أمل الحربي

فعلاً



رواية

مسكيلياني


محمد خطاب


فعلا

أمل الحزني



فعلاً

رواية





الكاتبة: أمل الحربي

عنوان الكتاب: فعلاً

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

صورة الغلاف: **الرسام محمد الشمري**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-013-9**

الطبعة الثالثة: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



إلى صديقـي الخبيث الذي نصحني بأن أمكث عند الحواف فهي لا تتجعّد ولم يخبرني بأنّها دائمًا مُتسخة.


MOHAMED KHATAB



﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾

الحاقة، الآية 19.


MOHAMED KHATAB



سمِع ملكٌ أنينَ صعلوكٍ تحت قدميه، نظر إليه وقال:

- ماذا تفعل عندك؟

قال:

- أرى ما لا يراه الملوك.

فقال الملك غاضبًا:

- ويحك صعلوك وترى ما لا أرى؟

ثمّ دهسه، ولم يعلم ما رآه الصعلوك.


MOHAMED KHATAB

فلسفة السفاسف



أقف خلف باب غرفتي، أكتم أنفاسي وأضعُ أذني على الباب، لا أعلم لماذا! ربّما أسترق بسمعي القليلَ ممّا أُصدّ عنه عادةً خلال حضوري، تؤرّقني الفكرة، أتراجع إلى الخلف، أنظر في المرآة، تبدو الرؤية مهزوزةً، أقتربُ أكثر وأركّز، في العادة لا أعرفني ولكن هذه المرّة أتعرف عليّ من جديد، لون عيني أحمر قانٍ، ربما أسرفت في السهر كالعادة.

مهلًا! ثمّة جملةٌ غير صحيحة. السهر مرتبط بالليل والليل عكس النهار، وكلاهما في تعاقب مُستمرّ، أمّا أنا فلا أعلم نهاري من ليلي، لا أتذكّر آخر مرةٍ رأيتُ فيها ضوء الشمس، باتت ملامحي مثيرة للرثاء، أتّجه إلى الخزانة وأنا أترنّح، أبحث عن قطرة العيون. هي ذي، أسكبها كلّها في عيني كالمحمومة، وإذ تحرقني، أعود وأنظر في المرآة لعلّي أجد احمرار عيني قد خفّ.

ما تزال عيني كما هي، ولكن لا بأس، فالقطرة كباقي الأشياء تستطيع فعل كلّ شيء، عدا ما تم كتابته على الغلاف.

آه، صنفٌ سيّئٌ، أشعر بوجع في رأسي وكأنّ أحدهم يفلح تربتها ضاربًا جذع مخي، ما بالك أيّها الفلاّح؟ تريّث فلا شيءَ هنا، التربة جدباء والجفاف مُستشرٍ، ابحث عن رؤوسٍ أخرى قد تثمرُ ما يثلج صدرك.

أخرج من الغرفة وأتقدّم نحو السلّم مُتمايلةً، أتماسك وأصعد درجتين، أمدّ رأسي أوّلًا لأتأكّد من خلوّ المكان، لمَ تبدو حركاتي بهذا الغباء؟ أسمع خطى أحدهم، أتراجع، وأقف عند أوّل السلّم، أنتظر قليلًا ثم أتقدم مرة أخرى وأبدأ الصعود وكأنّي طفلٌ يخطو خطواته الأولى، أقول لنفسي مُشجّعةً: «حسنًا، لقد قطعتِ شوطًا طويلًا ولم يعد هناك مجالٌ للتراجع، هيّا لقد أوشكتِ على الوصول».

أنت يا من تراني من فوق انظر إليّ، تأمّل عمق تعاستي، فكلّ المأساة الراهنة غايتها بُلوغ البرّاد لإحضار بعض المثلجات؟!

أصل البرّاد بمشقّة، آخذ حاجتي من المُثلّجات وآخذ معها تُفاحة، فإذا بفم ينبثق منها ويسألني: «لماذا أسقطوني من شجرتي وتركوني في هذا الصقيع؟». أُقسم أنّها سألتني، ولكنّني شُغلت عن سؤالها بسُؤالي: «لمَ أنا هنا الآن؟»، لا أجيب وأقفل راجعة.

حين أسير في غرفة المعيشة يزداد خفقان قلبي حدّةً خشيةَ أن يراني أحدُهم، أتوجّس من خطاي وكأنّي أسير فوق منطقة ملغومة، أصل إلى السلّم، أرتاع من احتمال السقوط، أحاول وضع قدمي في المكان الصحيح، في المنطقة الأقل خطورة. أشعر بأنه درجٌ كهربائي، ما يعني أنّ النزول أكثر أمانًا من الصعود. أجدني أتساءل: لمَ كل هذه الفلسفات عن الارتقاء والصعود؟ من المرجّح أنّ أيًا منهم لم يُجرّب نشوة السقوط.

هؤلاء الحمقى لا يعلمون أن كل ارتقاءٍ يتضمّن سقوطه الخاص، لا أستمتع بسكبِ خياراتي وشرب نخب خساراتي إلا مع المنتصرين منهم، أصحاب التوجيهات الوضيعة عن التجارب الحياتية الناجحة

أي المقولبة حيث كل الخطوات محسوبة، وحيث القناعات المغروزة تقتضي آراءً حتميّة، حسنًا ما شأني بحياتهم الروتينية الرتيبة؟ فلأتنفس الصعداء، لقد بلغتُ منتصف الطريق. وأخيرًا تكلّلت مهمتي بالنجاح، ها إنّ ذراعي ينبت منها جناحان، وقدميّ ترتفعان بخفّة عن الأرض.

فجأةً سمعتُ صوتًا من خلفي يخترق صمت المكان:

- منيرة!

تجمّدتُ في مكاني وكأنّ مُسدّسًا صُوّب باتجاه مؤخّرة رأسي، ارتجف قلبي، ودون أن ألتفت قلت:

- هلا يمّه!

- وش مصحّيك؟

من البقعة نفسها وفي الوضعية نفسها أقول من غير التفات:

- الحين أنام، سمّي!

- لاحول ولا قوّة إلاّ بالله.

عادةً الدعاء يعني نهاية النقاش، أكملت طريقي، أغلقتُ الباب فور دخولي الغرفة، التقطتُ أنفاسي وجلستُ في أريكتي، أمسكتُ بالريموت كونترول، الحمد لله أنّ هناك أمرًا ما أستطيع التحكم فيه بضغطة زرّ! أعدت تشغيل المسلسل الذي أتابعه دون تركيز حقيقيّ، وطفقت ألتهم المُثلّجات.

ليلة أخرى تتكرر، السيناريو نفسه والنهايات المفتوحة نفسها، أتنهّد وأُسند رأسي إلى الأريكة، أنظر إلى دخان سيجارتي وهو يتلاشى؛ ليتني أتلاشى مثله! الآن سيبدأ قاطنو رأسي بالغزو، أين أقراصي؟

أتقدّم بتكاسل نحو خزانتي الصغيرة أتلمّس بابها بهدوء، وأمرّر أصابعي فوقها صعودًا ونزولًا، تلك هي طريقتي في تحيّتها، تباغتني رائحةٌ عطِرة، أمدّ يدي، أُخرج شريط أقراص، أبتلع قرصين، وبعد تردّد أبتلع الثالث والرابع.

يومٌ آخر سيتمّ قتله بنجاح، أعتقد أنّه لن ينصرم هذا العقد إلاّ وقد أصبح القتل مع سبق الإصرار والترصد جائزًا، يجب أن أستعد وأبدأ بكتابة لائحتي، لائحة لمن أودّ قتلهم مجهّزة بصورة إلى جانب كلّ اسم.

فجأةً شعرتُ بغثيان أجبرني على النهوض، أمسكتُ بطني، حاولتُ أن أربّت عليها بيدي في حركاتٍ دائرية كي تهدأ، ثمّ عدتُ واستلقيتُ مرّةً أخرى، ولكنّها أبت إلاّ أن تواصل اضطرابها، أسرعت إلى الحمّام وطفقت أتقيّأ حتّى كادت أمعائي تخرج من حلقي. أخيرًا فرغت، تحسّستُ معدتي، فوجدتها في مكانها. غسلت وجهي دون أنظر في المرآة، ثم نشّفته وعدتُ إلى الفراش.

«تحكّمت بكلّ شيء اللّيلة إلاّ بأعضائي الحيوية» قلت مُحدّثةً نفسي قبل أن أنكفئ على وجهي وأغرق في نومٍ عميق.

حيوان قطبي مرمي على خط الاستواء

قرع قويّ ومتتابع على باب الغرفة، أفتح عينيّ بصعوبة، يستمرّ الطرق ويُرفق بالمناداة عليّ، أعتقد أنّني أكثر من سمع اسمه في العالم. يتملّكني التوتّر فأردّ بصوتٍ عالٍ وحادّ:

- نعم!

يأتيني صوت الخادمة مضطربًا

- ماما تقول قومي..

أقفز من الفراش وأمضي بخطواتٍ سريعةٍ إلى الباب، أسحبه بقوة، أنظر إليها ولا أتكلّم، أرى انعكاس نظرتي على ملامحها وهي تحاول الإشاحة بنظرها عني، فأصفق الباب وأعود.

لا أعلم كم من الوقت مرّ قبل أن أجد نورة واقفةً عند رأسي وبيدها كوب قهوة، لكنّ ما أعلمه يقينًا هو أنّ اختلاط رائحة عطرها برائحة القهوة زاد من شعوري بالصداع.

- منيرة وش ذا النوم؟

أتناول منها القهوة ولا أنظر إليها فتواصل:

- باقي ساعة على المحاضرة.

- أووه اليوم؟!

- إنتِ وعدتيني.

في مثل هذا الموعد تكون الاستعدادات في بيتنا على قدم وساق لاستقبال تلك المحاضِرة، ويكاد القيل والقال لا ينقطع بين الوافدات وجلّهن سيّدات فقدن السيطرة على حياتهن.

حسنًا، أعلم ما عليّ فعله بالضبط، سأنتقي أقراصي بعناية، لن أرخي نفسي بالمهدّئات بل سأُنعشها بمنشّطات تثبت حضوري وتزيده حيويّة، قليلٌ من الذكاء يُتيح لك العبور بسلام في هذا المحيط الأسريّ الضيّق، يا لسماحتك التي لم أكتسب منها شيئًا يا نورة!

أتردّد إلى الحمّام بعد أن ابتلعت ثلاثة من أقراصي المنشّطة، ما عدتُ أحتمل تلك السيّدة المعتقدة في قدسيّتها إلى حدّ أنّها تكاد تُخرج من حقيبتها صكوك غفران توزّعها على الآخرين، لن أنسى تحديقها فيّ ولا ذاك المزيج من التجهّم والاندهاش الذي استولى عليها حين طرحتُ عليها بعض التساؤلات -وهو ما لا أنوي تكراره- عن اعتناقنا لإرثٍ شفهي من مئات السنين قائلةً: يا شيخة ليس هناك أيّ دليل مادي ملموس عن أحاديث ديننا؟ فتمتمتْ ثمّ استغفرتْ وتعوّذتْ متمايلةً، والنساء يُردّدن خلفها كلّ ما تقول وكأنّهنّ جوقة مُحترفة، وأسكتتني بطريقة استعراضيّة دون أدنى جواب شافٍ. ومع ذلك أصبحت مُضغة في الأفواه وعبرةً لمن يعطّل عقله أمام شيخه. باختصار، لقد اعتُبِرتُ أضلّ من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء.

تناهتْ إلى سمعي نداءات من الخارج فاتجهتُ إلى المجلس مُلبّيةً وما

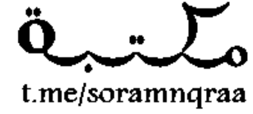
أن بلغته حتّى طالعتني السيّدة المباركة وقد غرقتْ في ثوبها الفضفاض إلى حدٍّ جعلني أشكّ في امتلاكها جسدًا كباقي البشر، لاحظتُ غيابَ اللّون الأحمر عن ثيابها واحتلال ابتسامتها لنصف وجهها، ألقيتُ التحيّة على الجميع، وعلى الفور علقتْ بي سهامُ العيون المتفحّصة، ولم تلبث بعض الحاضرات أن سألنني عن سبب نحولي المفاجئ! ولكنّ أمي أنقذتني حينما بدأتْ بصبّ لعناتها على الحمية وما شابهها من منتجات الثقافة الحديثة، فتحوّلت عيونهنّ إليها فيما راحت ألسنتهن توزع اللّعنات بالتساوي على الغرب والكفّار.

ذكّرني منظر النسوة وهن مُتحلّقات حول الشيخة المُتصدّرة للمجلس بلوحة العشاء الأخير لدافنشي، رحتُ أدقّق في وجوه النسوة بحثًا عمّن تستطيع لعب دور يهوذا وتخلّصنا من السيّدة، وللحظةٍ خطر لي أنني خير من يصلح لذلك فابتسمتُ، ثمّ سرعان ما قلتُ لنفسي: كلّا مثل هذا الدور يجعلني أنا «المنبوذة» وهي «المخلّدة».

ينهمر الثناء على الشيخة وكأنّها وقعت للتوّ من أحد كتب السيرة. تُبالغ النساء في التصاقهنّ بها على أساس أنّ مزيدًا من الالتصاق يعني مزيدًا من البركة، كيف لا وهي أقربهن إلى الله!

مازالت ابتسامتها تُعمّر وجهها بالقدر نفسه. هل هي سعيدة حقًّا أم تَدّعي السعادة كي تروّج بضاعتها؟ ما إن فكّرت في ذلك حتّى التفتتْ صوبي فجأةً وكأنها سمعتْ أفكاري:

– قرّبي يا بنتي. قرّبي يا منيرة. ادخلي الحلقة معانا عشان تحفّك الملائكة.



فهقهتُ لا شعوريًّا وإذا بأمّي ترمقني بنظرة أحدّ من السيف، فقمتُ وجلستُ في المكان المُشار إليه بكلّ أدب. وبمجرّد أن انطلقت طقوس الجلسة، مددتُ يدي في جيب ردائي وأخرجت هاتفي وباشرت اللعب.

طوال المحاضرة السقيمة حاولتُ أن أسرح بذهني ما استطعت، نظرتُ في هاتفي كثيرًا وإلى أمي أكثر، وفجأةً بدأ صوتُ الشيخة المدعّم بالغّنة والإدغام يثير في نفسي الاشمئزاز، شعرتُ بأنفاسي تثقل، فانتبهت إليّ المرأة المجاورة لي، وظلّت تلتفتُ نحوي، وكُلّما فعلتْ تململتُ وغيرتُ وضعيّة جلوسي، ولكنّ الإحساس بالاختناق ما فتئ يتفاقم، بادرتُ إلى فتح أحدِ الأزرار في ثوبي، ليتني كنت «كبيرهم الذي علّمهم السحر» وحوّلتهنّ الآن إلى دخان، لكن من الجيّد أنّي لم أفعل، وإلاّ لاستنشقتهنّ وتغلغلن في حويصلاتي الرئوية.

يا لنشاز صوتك! فلتخرسي الآن! يجب أن أقطع علاقتها بأمي، تصلني كلماتها فيجرح صوتها طبلة أذني:

- ادعوا الله أن تكونوا زوجات الدنيا والآخرة لأزواجكن.

أنا بطبيعتي لا أحتمل الزوجات اللزجات الملتصقات بأزواجهنّ، ثمّ إنّها لم تكلّف نفسها عناء السؤال عن رغبتهنّ الحقيقيّة، ربّما بينهنّ من لا تريد زوجها في الآخرة. مع آخر كلمات الدعاء الثمين نهضتُ وغادرتُ مُتجنّبةً حصّةَ تبادل الفتاوى والأسئلة العقيمة. وأوّل ما فعلته عند دخولي غرفتي هو تناول أقراصي وبكميّة مضاعفة، ثم أعدت ترتيب مجلسي لقضاء باقي الأمسية.

استرخيتُ في مقعدي، كان قد مرّ على ابتلاعي الدواء ما يقارب

نصف ساعة، ما أجمل هذا الشعور، تتنحّى الأحمال عن كاهلي ويحتضنني ملاكٌ من السماء! أين هو مني؟

توالى طرقٌ غاضبٌ على باب غرفتي، فنهضت وفتحت، إنّها أمّي قد جاءت لتقريعي:

- وش ذي الأخلاق؟
- آسفة.
- اللي حصل ما أبيه يتكرّر.
- سمّي.

نظرتْ إليّ بحنقٍ وذهبتْ، النظرات سيّدة الموقف اليوم، تحمل ما في الأرواح من صدق. أمّي ومثيلاتها يعتقدن أنهنّ آلهة مُصغّرة تقطن الأرض. كلّ ما أخشاه أن نكتشف عند صعودنا إلى السماء أن مبالغتهنّ في وجوب الرضا خرافةٌ أخرى أقنعننا بها، حتّى صار الواحد منا يعتقد أنّ قبلةً على رأس أمّه قد تجبر كسر العظام! آه متى أستقلّ؟

أغلقُ باب غرفتي غاضبةً، أتمنّى ألاّ يُصبح نزولي منها أمرًا مُتواترًا وأحمد الله على أنّ علاقتي بوالدتي رسميّة لا مجال فيها للأخذ والردّ، وإن كنت أعلم أنّها لم ترضَ عنّي يومًا فنحن على طرفي نقيض، أنا العلامة المُميّزة للنفور وهي زائدة الحبور.

أعود إلى أريكتي، أنظر إلى سيجارة سبق لي أن بدأتُها ولم أُكملها، أتردّد، أأشعلها أم أتركها وأشعل غيرها؟ فجأةً أمدّ إليها رجلي وأسحقها، وإذْ أُشعل سيجارةً أخرى أتساءل: لماذا لم أعطها فرصةً ثانية؟

ما اليوم؟ إنّه الخميس، لا إنّه الجمعة. كم الساعة الآن؟ أبحث

عن هاتفي للتأكّد، ها هو، حسنًا، إنّها العاشرة واليوم جمعة وغدًا لديّ عمل، فلأستحمّ مرةً أخرى، لا شيء يرفّه عنّي بقدر ما يفعل الماء، بعد ذلك سأصعد إليهنّ، ربّما!

حاول قدر الإمكان أن يظل الغرباء غرباء

لا أعلم ما الّذي أيقظني من النوم، ولكنّي أفقتُ. تناولت قارورة الماء وكرعت منها ما استطعت، وما تبقّى صببته فوق رأسي. أيُعقل أن أكون مضطربة المدارك؟ بل إنّ مَن حولي هم المُضطربون، فأنا أفتتح يومي بثلاث أحجياتٍ من لعبة «سودوكو»، بالمناسبة، أنا على استعداد للزواج من الياباني الذي اخترعها ولارتداء الـ «كيمونو» أيضًا، لو أفعل ذلك لأُصيبنّ جميع أفراد عائلتي بالشلل، أضحكتني الفكرة، أعتقد أنّي أعقَلُ ممّا يجب وتلك هي مشكلتي، إلى درجة أنّني أصبحتُ أعقلُ ما لا يُعقلُ، وفي كلّ زيادة نقصان.

أشعلتُ سيجارةً، وعدّلتُ جلستي، إنّ مهاراتي في الجلوس في تطوّرٍ ملحوظ. سأحترف فنّ الجلوس فهو الشيء الوحيد الذي أتقنه، ربما يومًا ما أنال جائزة أفضل من جلس.

رنّ الهاتف الداخلي، فأجبتُ متكاسلةً والسمّاعة تكاد تسقط من يدي، وكما توقّعتُ كانت والدتي هي المتّصلة، طلبت منّي الذهاب إلى عزيمة هند ابنة أخيها؛ لأنّها اتصلت بها تشكوني. صمتُّ برهةً، حاولتُ ضبط أعصابي التي بدأت بالانفلات، ورددتُ:

- يووووه يمه هند صاير دمها ثقيل!

جاءني صوتها مشفوعًا بزفرةٍ ساخنة كادت تثقبُ طبلةَ أُذني:

- الحين صار دم هند ثقيل وأنت طول الوقت كُنت عندها؟

لذتُ بالصمت وأنا أسمع ضجّةَ وضعِ سمّاعة الهاتف من جهتها بقَرقعةٍ مرتفعة توازي غضبَها، يا إلهي، لِمَ الجميع غاضب منّي؟! بالأمس نورة واليوم أمّي، لِمَ كلّ هذا اللّوم على مكوثي في داري؟ حمقاوات لن أترك مكاني، فالخطر يُحْدِق بي من كلّ جهة، أنا الوحيدة القابضة على أريكتي، ولا أشارك البشر في التدمير الخارجي، أمّا هم فمنافقون يكره بعضهم بعضًا ومع ذلك يتقابلون، لن أقابل إلا من يرقص قلبي لرؤيتهم، ولكن ما من أحد يرقص قلبي لرؤيته، ما بالك يا قلبي؟! أأنت مشلول مثلي أم أنّك لم تجد من يأخذ بيدك؟!

بمجرد مغادرتي المنزل، غمرني شعورٌ حادٌّ بالكآبة، وبينما كانت السيارة تنطلق عبر الشوارع المظلمة والطرقات المغلقة بسبب الحفريات، رحت اقول لنفسي: «لا بأس، سأذهب لساعتين وأعود، نعم ساعتين فقط وأعود. اللعنة! ما عدت أحتمل سهراتهن ولا ضيق أفقهن الذي لا يترك أيّ أثر بعد المغادرة، طوال الوقت وهنّ غارقات في أسرارهنّ، ألا يعلمن أن الأكاذيب أصدق من حقائقهنّ الهلامية؟ حتى أوجاعهنّ لا جديد فيها، ومثلي يُفضّل زحام الوحدة على فراغ البشر، ولكن لا ضير من الاستنجاد بقليل من المرح البدائي..».

خطرت لي فكرة فقرّرت أن أنفّذها، سأذهب إليهنّ حافية القدمين، وأدّعي أنّها موضة جديدة سرّية بدأتها «نكي موناج»، وأجزم أنهنّ من الحماقة بما يكفي لتصديقي. نعم سأفعلها، سأقوم بخلع حذائي. أين أضعه؟

طلبت من علي، وهو سائق العائلة الذي كان يُقلّني، أن يقتني لي حقيبة بلاستيكية، فتوقف أمام أحد الدكاكين ونفّذ ما طلبته منه، أخذت منه الكيس ووضعت فيه حذائي ثمّ فتحت شباك السيارة ورميته في أوّل سلّة مهملات مررنا بها، بعد ذلك أشعلت سيجارة واسترخيت، وبصوت حازم طلبت التوجه إلى بيت هند.

فجأةً، عدلتُ عن قراري، لن أذهب حافية القدمين، ما ذنبهم؟ رأفت بحالنا جميعا.

طلبت من السائق العودة، فاستجاب وعدنا أدراجنا وجلبنا الحذاء ثُمّ تابعنا المسير، تعساء هم سائقونا وخدمنا الأشبه بالآلات، الويل لنا منهم يوم يقتصّون منّا، سيأتي زمانهم، أنا واثقة من ذلك. أي ديستوبيا مُتخيله ستكون يا تُرى؟

توقّف علي أمام منزل هند، تناولت حقيبتي وأخرجت منها عطري وأغرقت به نفسي، إذ ليس ثمّة أنجع من رائحة خشب الصندل في القضاء على رائحة التبغ.

أخرجت ثلاثة أقراص حمراء وابتلعتها. وجدت البوابة مفتوحةً والحارس بجانبها ساهيًا، مددت إليه يدي مصافحةً فتفاجأ ولم يمدّ يده إلاّ بعد تردّد. من وجهة نظري هو أثمن من في هذا المنزل، قمت برفع يدي بجانب رأسي في تحيّةٍ عسكريّةٍ، فضحك وضحكت.

في طريقي إلى الداخل أخذت نفسًا عميقًا أصابني بدوارٍ خفيف، يا لرأسي التعس، خُلِق ليدور!

فتحت الباب الزجاجي ودخلت عالم الأصوات متداخلة.

مسحت الجميع بعينيّ، لم أجد فرقًا بين الحاضرات، لماذا هنّ مُتشابهات هكذا؟ أين أنا؟ شعرت بنَفَسي ينقطع، اختنقت، وراح قلبي يتخبّط في صدري، حاولت أن أنبّه الفتاة الجالسة عند الزاوية، لم أتذكّر اسمها فاكتفيت برفع يدي والتلويح إليها فقاطعتني هند:

- هوّ وش فيك؟ وش تبين من موضي؟!

التفتُّ إلى هند باستغراب، لماذا تستجوبني؟ ولماذا لا تساعد موضي؟ ألا ترى ما يحدث؟ على موضي أن تغادر مقعدها، إنّها توشك أن تلتصق بورق الحائط خلفها وتغدو لوحة من لوحات المكان. حدّثت نفسي: «ما الذي تحاول هند أن تخبرني به؟ لا أفهم حديثها، متى تعلّمت الحديث بلغة أخرى، صوتها ما انفكّ يرتفع، ولكنّي لا أفهم ما تقول، من هذه التي تقترب؟ ما بالهنّ جميعا تكالبنَ علي؟ ما هذه الشهقات؟ لِمَ هنّ فزعات؟ أبعدي يدك عني! أظفارِكِ من الطول أن تكاد تلتفّ حولي عنقي. يجب أن أغادر».

نهضت على الفور وغادرت، وأثناء ذلك ارتطمت قدمي بطرف الطاولة فأسقطت ما فوقها، وقبل أن تلحق بي هند رُحت أبحث عن علي.

خرجت فوجدته واقفًا بجانب السيارة، فتحت الباب وركبت. حين لاحظ محاولتي التقاط أنفاسي، بادر إلى سؤالي:

- عمتي فيك شي؟

نظرت إليه بحنق وأمرته بلهجة لا تحتمل النقاش:

- امشِ بسرعة.

- وعبايتك؟

- امشِ الحين.

طوال الطريق لم يكفّ هاتفي عن الرنّ، ظللت ألتفت يمينًا ويسارًا كي أتأكّد من أنّ أحدًا منهم لم يلحقني، تسللت إلى المنزل لأرتاح من عناء يوم أخذ فيه الجميع كفايتهم منّي، أغلقت هاتفي حرصًا على أعصابي لا سيّما وأنّي مُقتنعة بأنّي لا أصلح للاختلاط البشري، ذلك أنّ نقاط ضعفي مكشوفةٌ وقابلةٌ للصيد، نعم أنا فريسةٌ سهلةٌ، ولا أعلم ممّن ورثتُ هذا الخنوع!

أنا عاجزةٌ أمامهم، حاولت كثيرًا وفشلت، بلغت هذا السن ولم أفلح مع أحد منهم مهما كان مُسمّى العلاقة، إنّهم حمقى، لا يعلمون أن العلاقات البشريّة مآلها الفشل والذوبان مع الوقت مهما كانت صلابتها.

يا لندرة ممثلي الشريحة التي أنتمي إليها، بل ربّما أنا ممثّلتُها الوحيدة! أنا الشريحة كلّها، نفوري من الحياة والبشر يزداد يومًا بعد يوم. أعود إلى قوقعتي ومحمية الأقراص الخاصة بي، أتوحّد وإيّاها، سأبني من حولي جدارًا، حجارته الأقراص لأحتمي به من كل المتطفّلين والمتسلّقين.

استلقيت على فراشي ورفعت عينيّ إلى السقف وإذ لاحظت أنّ فيه شرخًا قلت له مواسية:

- أشعر بألمك يا صديقي.

خُيّل إليّ أنّه أجابني قائلًا:

- بل أنا من يشعر بألمك.

ثمّ بدا لي أنّه بدأ بالهبوط نحوي فصرخت:

- لا، لا تقترب، ستطبق على أنفاسي.

كان النعاس قد بدأ يدبّ في عينيّ، ولكنّي شعرت بتيّار هوائيٌّ يخترقني حتّى العظام، تجمّدت أطرافي وانتابتني رعشة فتشنّج. غفوت للحظات استيقظت بعدها وأنا أشهق، وجدتني مستلقية على الأرض، هل مازلت نائمة؟ حاولت لكز ذراعي لأتبيّن ذلك فلم أقوَ على الحراك، بحثت عن بصيص نور في الظلمة، ولكنّ خنجر الاكتئاب طعنني مع أوّل نفس.

بدأ الألم يسري في دمي ويتوزّع بين خلايا جسدي بالتساوي، تحطّم إنكاري واعترفت بأنّني أعاني من مشكلةٍ ما، لبثت أجول بعينيّ في أرجاء الغرفة إلى أن بدأت الرؤية تتضح رويدًا رويدًا.

شعرت بانقباضٍ، ثمّة إحساسٌ دخيل طفا على السطح، إنّه الخوف، لم أعرف من أي منفذ تسرّب لي، ولكنّي قرّرت دفنه في حشاشتي ليتجرّع سمّي. قبل ذلك كان لا بدّ من إعادة ترتيب كلّ شيء لأبدأ من جديد.

لا أعلم ولا يهم

استيقظت بغتة مبلّلة بالعرق، ساعة الحائط تشير إلى الخامسة، لقد نمت ما يقارب الثلاث عشرة ساعة!

اتّجهت إلى الحمّام، بلّلت رأسي بالماء البارد ثمّ التقطت فوطة وجفّفته، في الأثناء لاحظت تغيّرًا ما في الغرفة وكأنّ أحدهم عبث بأشيائي. التمست طريقي إلى الأريكة بحذر، وإذ مررت بالمرآة هالني الوجه الحزين الذي رأيت لا سيّما وقد استوقفني متسائلًا: «لِمَ أنت حزينة!».

المرآة انعكاسي، صيغتي المغايرة وندّي، بل كل أندادي مجتمعين. مددت يدي للمرأة الظاهرة على سطحها ومسحت على وجهها مواسية: «لا عليك، كل المرايا لعينات، تسرق الصّبا لكنّها تبقى صادقة». ثمّ لم ألبث أن أضفت: «الليلة سأجرب الصنف الجديد، نعم سأجربه بمفردي، أخبرني بذلك خالد، الكائن البشري الوحيد الذي لا أطيق الصبر عنه، قال إن استعماله سيعينني على الذهاب إلى العمل وعلى مقابلة أهلي بمزاج رائق».

شعرت برغبة في تنشيط ذهني فبادرت إلى الحافظة الزجاجية الأسطوانية أنزع عنها غطاءها، وأصوات برأسي تصرخ: «توقفي!» وكلما زاد إصرارها أمعنت حواسّي في عصيانها. معركةٌ حامية الوطيس مدارها

رأسي، وكأنّ نسخا مصغرة منّي تسير داخله وتتعارك. بأصابع مُرتجفة، أزحت التبغ من على كتاب السودوكو وسكبت مكانه القليل من البودرة.

ما عادت الفراغات ولا الأرقام تعنيني، أحنيت رقبتي وقربت أنفي من الكتاب واستنشقت، فسرتْ في جسدي ارتعاشة أعقبها خدرٌ لذيذ، أعدت الكرّة مرارًا ثمّ رددت رأسي إلى الخلف أو رُبّما هي رُدّت من تلقاء نفسها. بعد هنيهة ما عُدت أعلم من أكون ولا أين أنا، كلّ ما شعرت به هو احتدادٌ مُفاجئ في نظراتي وكأني قد تحوّلت إلى صقر يبحث عن فريسة، وللأسف، كُنت أنا فريستي الوحيدة.

شيئًا فشيئًا ملأني زهوٌ كاذب، وانتابني ذكاء مضطرب، ضغطت زر تشغيل الموسيقى وطفقت أرقص حتّى أحسست بأن ضربات قلبي بدأت تنشز. شعرت بطرق في رأسي وأصوات جهورية تفتك بي، ركزتُ قليلًا، فإذا شيخٌ يتلو آذانًا في رأسي، وعلى الفور شرعت أتيمم، ثمّ فرشت سجادتي دون أن أعير القبلة أدنى اهتمام، وبدأت أصلّي، ركعت ثم نهضت، عدت وسجدت فأطلت السجود، لعلّ ما في رأسي من تعب ووساوس يسقط، ضغطت بشّدة وتمنيت لو أستطيع دفن رأسي في الأرض كنعامة، حاولت الارتفاع بالنزول، أردت أن أحلّق فوق ألمي، فردّني تسارع دقات قلبي إلى واقعي، ولم أنتبه إلاّ ودموع حارّة تنسكب على خدّيّ. كيف غفلتُ عمّا كان بي؟

قطعت الصلاة وأجلت النظر في أرجاء الغرفة، حدّثتني نفسي بأنّها لن تستطيع قضاء الليلة معي، فحاولت تهدئتها، لكنّ أفكاري اضطربت بعنف، سرتُ جيئة وذهابًا، وأنا أشعر بأنّي لا أتحرك، ولعلّ

في ذلك تصديق لما ذهب إليه زينون من أنّ كلّ شيء ثابت وما الحركة إلاّ مجرد خدعة!

كان كلّ ما بداخلي يتفجّر، الشيء ونقيضه في آن، أعي أنّي في غرفة صغيرة، وأشعر بأنّي ضائعة الخطى في صحراء شاسعة، هرعت إلى أقرب جدار وضربت رأسي بقوة، أردت أن أضعَ حدًا لتلك المعركة؛ كنتِ في حالٍ من الجنون المُطبق، عاودت ضرب رأسي مرارًا، أردت أن أنفض رأسي وما به وليكن ما يكون، ولم أتوقّف إلاّ حينما شعرت بدمي يسيل.

افترشت الأرض وأسندت رأسي إلى الجدار، لا فائدة، لقد هُزمت، تملّيت غرفتي فبدت لي أشبه بمعبد مهجور، كمعبد راشمون في فيلم كوروساوا. وددت لو أنّي إحدى شخصياته، لو كان الأمر كذلك ليسّر لي الاعتراف مغادرة المشهد.

ودعت الأريكة والستائر الثقيلة الظل، وكذلك طفّاياتي وسجائري، ولسان حالي يقول «لن آسف على فراقكم فجميعكم خونة!».

انتعلت حذائي بجهد محاولة أن أنهض وقد تملّكني القرف من الدماء التي كانت تُلوّثني، وبمجرّد أن فعلت ترنّحت واصطدمت بطرف الطاولة فاندفعت بقوة وسقط ما فوقها من أشياء، وفي فورة غضبي التقطت كوبًا من الأكواب المُبعثرة ولطَخته على الجدار، فتهشّم وتناثر زجاجه في أنحاء الغرفة، أسرعت إلى المكتبة وألقيت نظرة على ما فيها من كتب وكأنّني أراها لأوّل مرّة، بدا لي أنّني صرفت وقتًا ثمينًا في قراءة هراء، ومن ثَمَّ دفعت بها إلى الأرض ورحت أمزّقها وأنفاسي تتصاعد بقوّة، وإذ لم يكفني ذلك التقطت قدم الطاولة المحطّمة وجلت

في الغرفة مُحطّمةً كل ما تقع عليه عيناي، ومع كلّ خطوة كان غضبي يزداد استعارًا. عند بلوغي المرآة قَذفَتْ في وجهي صورتي البائسة فقذفتُ صوبها قدم الطاولة، وبتطاير الزجاج في كلّ مكان أصابتني شظيّة في جبهتي، لم أشعر بالألم بل بمزيد من الغضب بلغ بي أن أمسكت قارورة عطري وبخخت ما بها في فمي وعيني، دون أن أعي ما الذي أرمي إليه من وراء ذلك، ولست أذكر كم من الوقت مرّ قبل أن أفقدَ الوعي وقد تحوّل كلّ ما حولي إلى حطام.

حين رُدّت الروح إلى جسدي وأفقتُ ذُهلت من حجم الخراب المحيط بي، حتّى أنّني اضطُررت إلى تصفيف الوسائد على الأرض صانعة منها جسرًا يُتيح لي الوصول إلى باب الغرفة دون دوس الزجاج المُتناثر، ولكنّني لم أغادر، ذلك أنّني وبينما كُنت أمسك بقطعة من الزجاج المحطّم لأقطع به حبل الستارة ومن ثَمَّ ألفّه حول قدم الطاولة علّها تتماسك، بينما كنت كذلك، طالعتني صورتي في الجزء المُتبقّي من المرآة فانتابتني حالة من الهذيان: «ما بالك أيتها الشظيّة؟ لا تخافي، أريد فقط أن أقطع بك الحبل، لمن هذه الصورة التي تعكسينها أيتها المرآة الخبيثة؟ وأنت أيّتها الأقراص، الُتعلّقة بأذيال الأرق كم أنت كاذبة! لقد كذبت عليّ في كلّ ما أخبرتني به قلت إنني سأشعّ في هذه العتمة، وها إنّي منطفئة وكلّ ما حولي كذلك! أنت السبب، اخرجي من رأسي وخذي معك تلك الساقطة المُنتحلة وجهي، سأقضي عليكما إلى الأبد، لا مزيد من الأقنعة سأكون أنا أمّا هي فستختفي..».

لم تنته النوبة إلاّ وقد رمي حبل الستارة، وبكلّ ما أوتيت من قوة قُمت بشقّ وريدي.

كيف تركت نفسي هناك بلا خوف

لم أكن أسير، بل أترنحّ كثملٍ أعمى، أتمايل كعود نحيل يجابه الرّيح بمفرده، وحولي أشباه بشر ووجوه مشوهة، أصواتهم صدى يصلني من بعيد، أتساءل: «على أي حافة أسير؟ ما هذه الأرض البيضاء المليئة بالدوامات؟ أيعقل أنّني مِتّ وأنا الآن منقادة إلى أرض الحساب؟».

أحرك يدي بتثاقل، أتحسس جسدي، أمسك ثوبي، لستُ عارية ولا عراة حولي، لسنا في أرض المحشر، فأين أنا؟

أشعر بشبكة الخوف تفترش صدري، أتنفس بصعوبة، أفرك عيني لعلّي أفيق قليلًا، ما الذي أخرجني من غرفتي وأنا بهذه الحال؟ رأسي سينفجر وتيار من الألم يضرب جسدي.

من هذا الذي يقترب مني؟

ما أشد وهج هذا الضوء، إنّه يحرق عيني.

– منيرة! منيرة!

هذا اسمي، نعم هو اسمي، أذكره لكثرة ما سمعته، أشعر بأنّني أهوي في وادٍ سحيق، من هذا الحقير الذي يصفعني؟ إنهم يؤلمونني،

ما الذي يفعلونه بي؟ يتردد في أذني صدى أغنيّة، «وين تبعد وأنت في نفسك سجين؟ » ثمّ أغيب عن الوعي.

أبذل الكثير من الجهد لأفتح عيني، وكأن جفوني مُثبّتة بصمغ قوي، ثمّة هدوءٌ رهيبٌ حولي لا يتخلّله إلا صوتُ طنين الأجهزة، لا أشعر بجسدي، كلّ ما أشعر به هو جفاف حلقي وروحي الثقيلة، ثُم يُعاود صدى الأغنية التردّد من حيث انتهى: «تدري أن الجرح للمجروح دين؟».

أحاول طرد الكلمات من أذني والتركيز في محيطي، أمسح المكان بعينيّ، وإذ أرى الأسلاك الممتدّة منّي إلى قارورة السوائل المعلّقة. أتساءل: «ما هذا السائل الكثيف؟ لونه أبيض ناصع، ربما هو مسحوق غسيل، جلبوه لي لعلمهم بحاجتي إلى غسيل داخلي» في نهاية المطاف أدرك أنّني في مستشفى، وأن الغرفة التي أرقد فيها هي العناية المركزة، لا أفهم ما حلّ بي؟ أبُعثت من الموت مرة أخرى؟ تغمرني مشاعر الخزي كنهر جارف، آسف لحالي الشبيه بحال مولود لا يقوى على الصراخ رغم التفاف الحبل السرّي حول عنقه! قد أقبل المكوث في حالة الشلل هذه إلى الأبد ولكن بشرط ألا أرى أحدًا البتّة.

بردٌ ونعاسٌ، ثم تشنجاتٌ قد تُقاس بمقياس ريختر لفرط قوتها، يتراخى جفني وكأنّه مدفوعٌ بقوة الجاذبية، ويعود الصدى مرة أخرى، ليبدأ من حيث انتهى: «طيف غدرك مثل ظلك يتبعـ...ك» يرنّ في ذهني الحرف الأخير، وأغفو.

ستعلم في يوم ما كم تعذبت

مُتعِبةٌ هي الحياة، لو كنت أستطيع الانتقام من نفسي دون أن ألحق بغيري أي أذى لفعلت منذ زمن. كل انتقاماتي خفيّة لا تطفو على السطح إلاّ بعد مدة، فليتحمّلوا معي القليل.

لم أقصد لفت نظر أحد، لكن الوحوش بداخلي لا تعرف حدودا. إلى متى ستظل همجيّة غير مروّضة؟ ماذا سأقول؟ ومن أين آتي بحجج مقنعة؟ لن يفهمني أحد، لن يفهموا تلك الغصّة في روحي، سئمت التوبيخ، لا شيء يفيد معي. أعلم أنّهم أعادوا إليّ الحياة ليسلبوني إيّاها مرة أخرى.

ها هم مقبلون، ما أتعس وجوههم، ليتني أملك طاقية الإخفاء، لا أقوى على لقائهم، لا أملك تبريرا أو ردّا. ليتني لم أكنْ ابنتهم، ليتني كنت في أعمارهم فأصادقهم، لعلّهم يفهمون، لكنّ الحاجز كبيرٌ. تقف الكلمات عاجزة في حلقي، لا أفتح عيني، يدخلون الغرفة، ما أضيقها على كلّ هذا الألم.

تقترب أمي، تناديني بصوت خافت وكأنّها تخشى إيقاظي، لا أجيب، تكرر النداء بصوت مهزوز يتبعه صمتٌ رهيبٌ والكثير من الأنفاس الساخنة، فجأةً يقاطعني صوتٌ أحبّه:

- حبيبتي حمد الله على السلامة!

أردّ ولا أسمع صوتي:

- الله يسلمكم.

أسخّر كلّ طاقات العالم لأحبس دموعي فأفشل. تبدأ الانسياب من عيني في صمت، ما أبشع هذه اللحظة! ليت الفراش يبتلعني!

يدخل طبيبٌ يرتدي معطفا أبيض، وبابتسامة لا تتناسب مع لون معطفه، تبدو كلطخة في جبين المعطف، يتوجه بعينيه نحوي، أكاد أختنق من نظراته.

- السلام عليكم، حمد الله على السلامة يا منيرة!

لا أكلّف نفسي عناء النظر إليه، أتحاشاه وأتحاشى تلك البقعة الصفراء التي تلوّث معطفه الأبيض، يشيح بنظره عني بعد أن فقد أي أمل في التواصل معي، لا أعتقد أن أحدًا غيري لاحظ ذقنه المتدلي الذي يُنمّ عن حمق أصيل في شخصيته. يشدّ من عضلات وجهه المرتخي ببلاهة وينطلق يُفرغ ما في جعبته:

- الحمد لله انكتب لها عمر جديد، نتايج المختبر وصلت، كمية المخدر في جسمها عالية جدًا.

كان وقْعُ الخبر على عائلتي كوقع مطرقة ضخمة هوت من بعد سحيق. بدوا وكأنّ قوى خفية كبّلتهم إذ لم يقوَ أحد منهم على الحراك. رأيت بعيني هول ما أصابهم، لفحتهم الصدمة، مسحتهم، بل سحقتهم.

ما أحقره! كيف لطبيب أن يُقدّم لأسرتي سيناريو مبتذلًا كهذا؟

أعلم أنّني في هدنة، ولكنّي أعلم أيضًا أنّها قد لا تستمر لأكثر من لحظات أخرى، لا سيّما وقد بدأت أشعر بالعاصفة الهوجاء قادمة، تلك العاصفة التي ستثور وتعمي البصائر.

بعد أن رمقني بنظرهِ وكأنّه يتحداني نطق بخبث:

- طبعا ما حنقدر نتصرف بأيّ شي إلا بعد مرحلة الديتوكس واختفاء أعراض الانسحاب.

غرقت أمي في البكاء وحنى أبي رأسه. لطّخ العار كلّ ما في الغرفة وخنق أنفاسنا جميعًا، لم أجد من سبيل للتواري عن أنظارهم، حتى إغلاق عيني بات مخيفًا، لو كنت أقوى على المواجهة، ولو لم يكن صوتي مختنقًا لصرخت بهم أن يغادروا الغرفة.

اقتربت أمي من حافة السرير حيث سجّي جسدي، وهي ترتجف:

- منيرة، صحيح الكلام اللي يقوله الدكتور؟!

لا أجيب ولا أنظر إليها، تمدّ يدها وتمسك بفراشي:

- ردّي علي، صحيح الكلام هذا؟!

- آسفة يمّه!

- متى؟ وكيف؟ ومن مين؟

يقترب منها والدي محاولا تهدئتها، بعد لحظات أصبحت أرى أفواههم دون أن أسمع حوارهم، انفصلت عن واقعهم، تحوّلوا في نظري إلى مشهد من فيلم تراجيدي، لا بل من مسلسل خليجيّ بائس.

لم أكن أعلم أنّها بداية الجحيم، ولا أنّ ما أنا بصدده لا يكاد يذكر بها

سيلحقه، كانت إلزامات الوضع الراهن متواضعة: اسمٌ شبه مستعار، أدوية مكثفة للنوم أطول وقت ممكن، تتخللها رعشاتٌ وتشنجاتٌ، فراشٌ أبيض كهدنة بين ما كان وما سيكون.

الجلطة الشعورية

لماذا لا يعون أنّني فعلًا لم أكن أنوي الانتحار؟

أُرهقت وأنا أحاول استرجاع التفاصيل بحثًا عن المسبب الرئيسيّ لفعلتي.

كنت أملك من الوقت ما أتاح لي استحضار الموقف. أملت رأسي إلى الخلف، وبدأت أسترجع المشاهد واحدًا تلو الآخر....

جالسة على أريكتي أفكّر في عجزي عن قضاء الليل دون أقراصي، وفي أنّ عليًا لم يعد بعد من إجازته، وكالمعتاد، ليس بوسعي مغادرة المنزل. ولماذا أغادر المنزل؟ كان أولى بذاك المتعجرف الفاشل خالد أن يستوعب وضعي كفتاة في هذا البلد. ولكنّي في جميع الحالات ما كنت لأقبل قدومه إلى منزلي، يستحيل أن أثق بمروّج مخدرات، من خان ضميره ووطنه قد يفعل بي أيّ شيء. نعم، فما من شبه بيننا، أنا لا أتعاطى المخدّرات البتّة، وكلّ ما أطلبه أقراص طبيّة كالتي وصفها لي الطبيب الأحمق حين زرته مرغمة من والدتي لعجزها عن استيعاب اختلافي. هل كلّ من وُصفت لهم المهدئات في مثل حالي؟

«إنّني مثلهم، ولكنّي أختلف عنهم بطلبي لنبتة القنب» قلت

لنفسي موبّخة ولم ألبث أن استدركت: «كفاني اتهامًا لنفسي كما هو دأبي، فالحشيش نبتة تُقدّم في البلدان المتطورة كعلاج، وأنا لم أقترف أيّ خطإٍ، ولم أدلّ غيري على المصدر، وإن حدث وأعطيت أحدهم فأنا لا أطلب منه مالًا مقابل ذلك، في نهاية الأمر، لو لم اشترِ ما يملك سيشتريه غيري من صغار السن، نعم، إنّني أخدم المجتمع، كل ما احتجته هو بضعة أقراص، وهذا الشخص يوفّرها لي، ما دخل المجتمع والوطن؟».

أذكر المكالمة جيدًا، وكذلك تفاصيل لقائنا الذي اتفقنا على أن يتمّ في الخارج.

يومها التقطت عباءتي، وقبل أن أنسلَّ من المنزل، لمحت صورة وجهي الملطّخ بالزينة في المرآة فقمت بمسحه بطرفِ عباءتي بكلّ عنف وغادرت بكلّ هدوء!

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، وكان لدي ربع ساعة قبل موعدي مع خالد، توقفت لشراء القهوة، ثم تابعت طريقي. حين بلغت المغازة المنشودة ركنت السيارة ودخلت، وما إن فعلت حتّى شعرت بدوخة وهاجمتني أعراض رهاب، ذلك أنّني لم أرَ كمًّا مُشابهًا من البشر منذ وقت طويل، شعرت بحرقة في عينيّ من كثرة الأضواء وراح قلبي يتخبّط، وكلّما مشيت خطوتين التفتّ وكأنّ هناك من يناديني، حتّى كدت أصطدم بأحدهم، وإذ بدأت أفقد صبري انتصب خالدٌ أمامي. لم أهتمّ لنحوله الشديد الذي جعله أشبه بالظل، ولا لبؤبؤ عينيه الذي يكاد لا يُرى من هالاته السوداء، ولا حتّى لأسنانه الشديدة الصفرة، كلّ ما همّني من أمره هو سوء ذوقه في اختيار الجينز، ومن ثَمَّ

قرّرت أن أهديه ملابس من اختياري في أول لقاء جديد يجمعنا، إذ كان من الضروريّ أن يظهر بمظهرٍ أفضل.

وكما يجري في الأفلام وَضَع الطلب بجانب حلوى «ماكنتوش» وأشار إليه بعينيه لألتقطه ففعلت ووضعت مكانه المال، ثمّ أومأت إليه برأسي وغادرت وأنا أسير بتأنّ وكأنّ شيئًا لم يكن.

ما كان جديدًا عليّ تلك الليلة هو الهدية الإضافيّة للّعين خالد، هديّته التي تسببت في كلّ ما جرى!

يعيدني طرق على باب غرفتي إلى واقع حالي. أتساءل عن هويّة الزائر، فلا يكشف لي دخوله إلاّ عن جنسه، ثمّة امرأة ماثلة أمامي ولكنّي أجهل من تكون، أفتّش عنها في دفتري الذهني فلا أجد لها من أثر. فجأة، وبينما هي تهمّ بوضع يدها على رأسي تأهّبًا لقراءة ما تيسّر من القرآن على سبيل الرقية أتذكّر أنّها ابنة خالٍ لأبي وأنّها داعية مشهورة، وطبعًا لا يُغيّر ذلك من الوضع شيئًا. تتنحنح وتقترب أكثر واضعةً يدها الأخرى فوق صدري بإخلاص والكلمات تنزلق من فمها، والغريب أنّها كُلّما لاحظت ارتجاف جسدي، وذلك عائد إلى توتّري الشديد، ظنّته علامة نجاعةٍ وازدادتْ إصرارًا على ما تفعل، مُضاعفة ضغط يديها على صدري المسكين، حتّى أنّي أكاد أصرخ فيها: «أفيقي يا امرأة! أنت في عنبر المختلين، وقد أقوم بخنق حلقك الثرثار دون أن أُدان، كان أولى بهم أن يجعلوك تنامين مكاني!».

لا بأس، فهذه البلاد كلّها عبارة عن مصحّ نفسيّ كبير، الفرق، أنّني قُبض علي، أمّا الآخرون فتُركوا ليعيثوا في الأرض فسادًا.

حين عجزت عن إيجاد حيلة لصرف زائرتي لذت بالنوم، وكم لُذت به من قبل في حياتي!

أمسح المكان بعيني الدامعة، ألمح علبة أنيقة جدا ومغلّفة بعناية، أقوم بجهد من فراشي وأجر خطاي منحنيةً. آهٍ، لو أنّها جرعة مُخدرة ترفق بحالي. أكاد أجزم أنّها من نورة، أقبض عليها، صدق حدسي، إنّها منها، كل ما كُتب على البطاقة: «أنا هنا معك، أحبّك».

أفتحها بودّ فأجد بداخلها خاتمًا ذهبيًّا ثمينًا، حُفر اسمي حول إطاره. أهمّ بوضعه في خنصري، ثمّ أتدارك نفسي وأتراجع. لماذا يا نورة؟ مزيد من القيود؟ أقسم أنّي لن أرتديَ خاتمًا ما حييت، ولو لم يكن منك لقمتُ برميه في سلّة المهملات.

قد أضعه كتعويذة. لا، فأنا لست معرضةً للحسد، ولكن يمكن وضعه تعويذة لطرد نظرات الازدراء المقيتة. كيف لم تعلمي بها يا نورة؟ من المؤكّد أنك لم تريها قطّ، أمّا أنا فقد كنت أختنق منها، ومن كل قيودي. عشت سجينة نفسي وغرفتي ومع ذلك كانت نبضات حياتكم تتسرب إليّ من شقوق الأبواب وفتحات التكييف، وتنفذ إلى صومعتي. كنت أتساءل: ما الذي قد يغريني بالصعود إليكم؟ وكلّما هممت بذلك ردّني دويّ أصواتكم، لأقبع حيث أنا وأرى بعين الخيال لوحة مُشوّشة عن مجلسكم، أرى بعضكم يتحول إلى عاصفة غبارٍ والبعض الآخر إلى رمادٍ أشعر به في حلقي فيخنقني. يؤذيني حاضري معكم فأفتح أدراج ذاكرتي بحثًا عن لحظة هانئة أقضمها علّها تسدّ جوعي إلى السكينة. ومن يوم اجتاحتني الرغبة في سلخ جلد أصابعي كي لا أترك أيّ بصمة في

عالمي القذر واضبت على سلخ كلّ جلد ينمو إلى أن أصبحت مسخا بلا هويّة، كرة قلق واضطراب تتدحرج، تقع، وتتشظّى ثمّ تعود، وتتكوّر من جديد.

كنت في حالة ذهنية لا تُحتمل، إلى حدّ أنّي في غياب أقراصي قد يُسبّب لي صوت وضع الكأس على الطاولة اكتئابًا حادًا. أُمضي وقتي في غرفتي الشبيهة بجزيرة مهجورة فيتخثّر فكري من الملل، لكنّي أعتبر ذلك أرحم من تسرّب أنفاسكم إلى عالمي، أنفاسكم المشحونة بالازدراء والنفاق.

كبرياء والديّ أعماهما عن رؤية خللي، «اختلال في الدماغ»، مسمّى يهين جيناتهم، إذ كيف لهما أن ينجبا من تناكح باهر هذا الخلل الفطري؟

لم أعش قطّ دون راعٍ إلا في غرفتي، وبمجرد مغادرتي إيّاها تمتدّ الأيدي كلها لترعاني، فأختنق، وأعود إليها، وأنزوي في حيّز يليق بجرذ لا بإنسان. وماذا كان بوسعي أن أفعل وقد امتلأ سمعي بها فوق قدرتي على التحمّل، وأبت عيناي أن ترى الأشياء إلا بالأبيض والأسود؟

أغلق فم القلب

أفقت على حوارٍ بين والدتي وجسدي المُسجّى انسحبت جرّاءه المرضة بخطى متسارعة، متيحة لوالدتي الاقتراب أكثر، أعاود التيقن من أنّ عينيّ مغمضتان قبل أن تراني، أسمع تنهّداتها الحارقة، فصوتها وهي تناديني:

- منيره!

لا أجيب، أعلم أنّها تعلم أنّي أعلم بوجودها وأتحاشها، لكنها لا تيأس. فالأمهات لا ييأسنَ البتّة من أبنائهنَّ، أفتح عيني:

- هلا يمه!

- كيفك؟

- الحمد لله.

- منيره! خالك عبد الله رتّب لك علاج في الخارج، بتسافرين بعد أسبوع بس تستقر حالتك! ما نبي أحد يعرف، كفاية فضايح! رقم تلفونك ألغيناه، والشغل انسيه.

يستثيرها صمتي فتتابع:

- وش سويناللك عشان تسوين فينا كذا؟

ومرّة أخرى لا أجيب، ولكنّ جسدي ناب عنّي وأنقذني من المواجهة، إذ بدأ يهتزّ في نسق تصاعديّ كزلزال نفض كلّ ما بي. آهٍ يا جسدي الحبيب شكرًا!

حين أفقتُ وجدتُ نفسي في مكان معزول، فأدركتُ على الفور ما يعنيه ذلك، لقد انتهتْ مرحلة رصد مؤشّراتي الفيزيولجيّة لتبدأ مرحلة النبش في صندوقي الأسود الغارق في محيط اللاوعي، عبر ما يُعرف بـ«أسلوب التفريغ الإجباري»، وهو-على حدّ قول الطبيبة- أسلوبٌ كان يُستخدم مع جنود الحرب المتضرّرين نفسيًّا من خوضهم المعارك دفاعًا عن الوطن أو غزوًا لأوطان الغير، ولكن في مثل حالتي لمَ كلّ هذا الحرص على إيجاد ما هدمني؟

كنت صائمة من الأمس، ألبسوني لباس العمليات، وسرت وراء ممرضتيْن تعيستيْن، أراهن على أن نفوسهنّ معطوبة كنفسي بل وربّما أكثر. ما الذي رسّخ الاعتقاد في أن اللّون الأبيض مناسبٌ للممرّضات؟ هنّ ملائكة الرحمة في كلّ الأقسام عدا النفسيّة، هناك يتحوّلن إلى زبانية مراقبة. يُعيد إليّ منظر أحذيتهنّ البيضاء المُكمّلة لزيّهن صورة الطبشور وقشعريرة مسامي عند احتكاكه بالسبّورة.

إنّ الزيّ المُوحّد من أقسى أنواع الاستعباد، ذلك أنّه يحوّلك إلى أداة بلا ذات، مُلغيًا آدميتك. وهو وفقًا لذلك أقدم استعمار للفرد.

وُضعت في سرير مُتحرّك أمام غرفة العمليّات، ومع اقترابِ وقعِ حذاءٍ عالي الكعب علمتُ أنّ الطبيبة قادمة. تلك الطبيبة التي تنطلق في بناء جميع فرضيّاتها العلاجيّة من طرح سؤالها المصيري هل أنت أعزب

أم متزوج؟ وكأنّ هذا التصنيف هو تأكيد الاكتمال، ومن دونه يكون المرء ناقصًا. اقتربت منّي ومسحت بيدها على رأسي:

- ها يا منيره، جاهزة يا حبيبتي؟!

بعد لحظات لحق بها رجل من ذلك النوع الذي يُنسى سريعًا، لا أذكر منه إلا حواجبه الراقصة، وما إن اقترب ووقف بجانبها حتّى قدّمتني إليه قائلة:

- أهي دي عروستنا يا إسماعيل!

نظر إليّ وسألني:

- صايمه؟

وإذ هززت رأسي بالإيجاب قال وهو يدفع فراشي إلى الداخل:

- عملية بسيطة يا منيرة بعدها إن شاء الله حتحسّي إنك أحسن.

أغمضت عينيّ تحاشيًا لضوء غرفة العمليات المسلّط عليّ. كانت الغرفة باردةً جدًّا وصامتةً كمقبرة. أمسك المدعو إسماعيل بيدي وغرز فيها الإبرة وهو يقول:

- أنا عاوزك تعدّي معايا لعشرة.

لم أكمل العدّ إلاّ وصور شتّى من كل المراحل العمريّة تتدافع داخل ذهني فتُتخمه حتّى يكاد رأسي ينفجر، يحتدّ ألمي وتصرخ روحي: «إنّكم تقتحمون وجداني، تمزقون خواء نفسي. لست جاسوسةً تحاولون أن تنتزعوا منها اعترافًا. لا أملك أي شيفرة سريّة لأيّ سلاحٍ مُدمّر، فكلّ ما أقوى عليه من الدمار هو دمار نفسي. توقّفوا! إنكم تنتهكون مجالي، أصواتكم المخيفة تنهش خلاياي، كفى!».

لا أعلم ما إذا كنت تلفّظت بالكلمة الأخيرة أم أنّ تقاسيمي هي التي عبّرت عنها، المهمّ أنّها بلغت الطبيبة فراحت تُردّد:

- منيرة، منيرة! ما تخفيش يا حبيبتي، أنا عايزه أعرف، افتكري!

شعرت بنفَسي ينقطع. ما عدت أعلم موقعي الكوني في تلك اللحظة، تملّكني الخوف، صرخت بهما وغبتُ مرةً أخرى.

أفضّل السقوط المؤلم على الهبوط المحبط

لم أستيقظ إلاّ مع الظهيرة. كالعادة، دخلتْ بهدوء مفتعل ونظراتها المريبة ترمقني بإهانة. ثمّة قاسمٌ مشتركٌ بين الأطباء النفسيّين والعوائل المالكة، مهما بلغ قربهم منك لديهم داخليًّا ذاك الإحساس بالتّعالي والأفضلية، وكلّ تفاعل معك يمنحهم إحساسًا بالتواضع.

هكذا ببساطة ساعدتني بشاعتهم على تقوية دفاعاتي في التصدّي لها.

أكاد أسمع صوت التصاق شفتها بطرف الفنجان، تنتفض طبلة أذني وتستنجد بي، لكنّي أصمتُ لشدة توجّسي منها. للأسف، كلّ شخص قابلته حتّى الآن لن أستطيع نسيانه ما حييت، فقد وصلوا إلى مناطق عميقة فيّ بتنقيب قذر، تحت مُسمّيات علميّة. من تكونين لكي تنسلّي إلى اللاّوعي وتحاولي العثور على ثغرة مكشوفة تلجين منها إلى أعماقي الخفية؟! ما أقبح منظرك وأنتِ تقفين على رأسي في غرفة العمليات، وكلّما سمعت صدى كلمات منطقيّة أمرت الطبيب المسؤول عن التخدير بأن يزيد الجرعة، كغواص أخرق قلق يريد أن يصل إلى العمق، ولكن معدّاته البحرية لا تؤهله لذلك! حتّى إذا اعتقدتِ أنكِ أمسكتِ بصدفة تسحبين شباككِ، تسحبينها بشبق لعلّكِ تجدين سرًا

بداخلها. يا لحظّك الرّديء فكلّ أصدافي فارغة، لا لؤلؤة لديّ؛ فارغةٌ أنا، وهذه مشكلتي.

يقطع حبل أفكاري صوتُ ورقٍ تعبث به أصابعها داخل جيبها قبل أن تخرجه. أنظر إليها فتردّ بابتسامة وقحة كابتسامة الطبيب السابق، تلك اللطخة على الميدعة البيضاء التي بتّ أعتقد أنّها سمة خاصّة بالأطباء!

تقول بصوتها الحادّ وهي تحاول إضفاء لمسات دافئة عليه بنحنحة مستفزة:

- بصّي يا منيرة زي ما وعدتك، أهو الورق اللي كتبت فيه الجلسات، نقرا سوا وأقطّعوا قدامك.

أصمت وأدعها تكمل:

- كل اللي بتمرّي بيه دلوقتي نتيجة لرفضك لنفسك وللواقع اللي إنت عايشه فيه، في حتّه مكسورة فيكِ من زمان، خلّتك تلجئي للمخدرات، إنت زعلانه من العالم ومن نفسك، اشتكيتِ كتير من الاكتئاب.

أقاطعها بحدة وحزم:

- أنا نِفسي أعرف إنتوا ليه مكبرين المواضيع؟
- إحنا مش بنكبّر حاجة، الموضوع كبير إنت بقالك أكتر من شهر ما قمتيش من سريرك، وحتى شغلك سبتيه، إنتِ رفضتي إنك تعيشي، وحاولتِ تنتحري.

لا أجيب.

- دا غير مشكلتك مع المخدّرات.

أواصل صمتي، لا أردّ ولا أصدّ.

- منيره لازم تتعاوني معايا!

أجرّ صوتي جرًّا:

- ممكن أنام؟

تبتسم ابتسامتها المعطوبة؛ متى ستغرب عنّي هذه المؤذية زيادةً عن اللزوم؟

تختم حديثها وهي تهم بالرحيل:

- إنتِ حتسافري على مصر في خلال كم يوم، بس تبقى صحتك أحسن من كذا.

لم أعر ما قالت أي اهتمام، وما يضير الشاة سلخها بعد موتها.

ما تبقّى من أيام مكوثي هناك كان كئيبًا، كمخزن توضع فيه العربات المحطّمة لحين إصلاحها. لبث الأهل شبه مجمدين خوفًا من اجترار المزيد من الفضائح، ومضى الوقت لا أذكر كيف.

لقد آن الأوان لأنْ يفوت الأوان.

- أين كنت؟

- أنا هنا الآن

- ماذا فعلت؟

- لا شيء

- كيف استطعتِ ذلك؟

- تَطلب ذلك كل شيء

- أنتِ معجزة!

- بل هي كرامة اللاشيء

العاصفة والعاطفة

بعد وداع تراجيديّ لعائلتي غادرت المشفى إلى المطار مباشرة، مع السيدة رنا وهي امرأة في عقدها الرابع كرّست حياتها للمساعدة، أنيقة وذات ذوق رفيع، سواء في ملبسها أو في ألفاظها المنتقاة بعناية، زد عليه أنّها متزنة ومبتسمة على الدوام. كانت زياراتها لي هي الأصدق خلال الفترة التي قضّيتها في المشفى، ولقد تطوّعتْ لإحضاري إلى هنا.

لم أنبس بكلمة ولم أنزع نظارتي السّوداء بتاتا، افتقدت مهارات التواصل، حتى صمتي كان حياديًّا لا يوحي بشيء. حالما صعدت إلى الطائرة اتجهت نظرات الركاب نحوي، راعهم مظهري: رجفتي وشدة نحولي. تحسّست شعري علّي أهذّبه، كنت أشبه بهيكل عظمي متحرك. آه لو أنّ هذه الرجفة تتركني! هذه الرجفة التي تسبقني إلى أي شخص أقابله، فتؤثّر في انطباعه وتُغيّر مجرى اللقاء. شوّشهم اهتزازي، ولم يعرفوا في أي خانه يضعونني.

قادتني المضيفة إلى مكاني وأجلستني في المقعد المُخصّص لي ولكنّي لم أتوقّف عن الارتعاد، أمّا السيدة رنا فقد استقرّت في المقعد المُحاذي لمقعدي. منعني النوم من تجاذب الحديث معها ولم أفق إلا حين هبوط الطائرة. بذلتُ جهدًا مضاعفًا للنزول من السلم، خشيت الوقوع أكثر

من مرة. كان يُخيّل إليّ أن حشد البشر في الأسفل يسيرون للخلف، حتّى أنّي هممت مرارًا برفع يدي لتجنب الاصطدام بهم. وحين لامستْ قدماي الأرض توقّفتُ لحظةً طلبًا للعودة لولا أن رأيت وجه السيدة رنا يبتسم لي. بعد ذلك أعانتني على بلوغ صالة المطار، وما إن دخلناها حتى استقبلنا ضجيج لا يطاق وكأننا ولجنا خليّة نحل. استُثيرت حواسّي فبدأت بالاستيقاظ، أصبت بهلع، شعرت بأنّي أقف وسط عاصفة من الغبار البشري. تولّت السيدة رنا الإجابة عن كافة الأسئلة المطروحة من عون الجمارك وكأنها تعلم ما يدور بخلدي، وبعد الانتهاء من كلّ ذلك وجدنا بانتظارنا رجلا غريبا ذا ابتسامة مبالغ فيها شرع يهلّل ويرحّب:

- أهلا أهلا مدام رنا نورتوا مصر.
- أهلا يا دكتور حمدي وحشتنا ازيك، العربية برّا؟
- كلو جاهز حضرتك اتفضلوا.
- على المصحّة على طول.

انسلخت السيّارة من زحام ساحة المطار وانسلختُ أنا عن نفسي. كلّ ضجيج القاهرة لم يستطع اختراقي، كنت في نقطة سحيقة من الصعب الوصول إليها.

استوقفني المكان، أرض رمليّة شاسعة يتوسّطها صرح قديم خلف سياج يحمل لوحة ضوئيّة منطفئة تحمل اسم مصحّة نفسيّة. حضر شخصان، أحدهما يرتدي جلبابا والآخر يرتدي قميصا وبنطالا أبيض، قاما بإنزال حقائبي من السيّارة التي لم تلبث أن غادرتنا وبها السيّدة رنا بعد أن تلقّيت منها حضن عزاء فجائي. كدت أصرخ بها أن «لا

تتركيني» ولكنّ الأمور جرت بسرعة لم أستطع مُجاراتها. التفتُّ حولي، كان ثمّة مبنى قديم ضخم، لم أستطع تمييز لون طلائه لشدة اتساخه، به شرفات كثيرة مهجورة ونوافذ محكمة الإغلاق بأسياخ حديدية. أشار إليّ الرجلان بأن أسير خلفهما فتبعتهما. صعدنا سلالما طويلة أفضت بنا إلى باب حديدي آخر ظهرتْ من خلفه فجأة كائنة مفتولة العضلات، مُتّشحة بالأخضر في تدرّجاته المختلفة وكأنها شجرة نجت من إعصار مُغبّر. كانت خطواتها ثقيلة، أمّا عيناها فسريعتا الحركة، ساخنتا النظرة، وما إن تحدثتْ حتّى انتابني الذعر من صوتها الحادّ:

- تعالي يا حبيبتي.

كانت طبيعة المكان طاغية على الأجواء، رواق خالٍ من أيّ لون، وبعد كل عدّة خطوات يظهر باب مُحكم الإغلاق يُفتح ويُغلَق سريعًا حال عبورنا من أمامه. الخطى محسوبة والسيطرة تامة. عند آخر بابٍ دخلنا إلى ردهةٍ عريضةٍ ضوؤها مُرتعش وسقفها منخفض، وليس بها من أثاث سوى مقعد من الخزف بجانبه خزنة من الرّصاص، تكشف أبوابها الزجاجيّة ما بداخلها من مستلزمات طبيّة: جهاز ضغط، وحُقن، وأمصال، وملفّات كثيرة مُكدّسة في الرف السّفليّ. طلبتْ مني مُرافقتي الوقوف وسحبت ملفًّا أخرجتْ منه ورقة بها تعهّد مكتوب قدّمتها لي كي أُمضيها ففعلت دون أن أقرأ منها حرفًا. أردت أن أُعجّل بمغادرة تلك البقعة المريعة. استحسنتْ سرعة إمضائي دون أسئلة، أعادت الملفّ وشرعت تفتح حقائبي فراحت الأشياء تتناثر منها في كل مكان. لم تكن كآبة المنظر وسوء المنقلب كافيين فتمت جمركتي بوحشيةٍ خشيةَ أن أنقل معي شيئا من العالم الخارجي.

بعد انتهائها من تفتيش حقائبي اقتربت منّي وبالصوت الحادّ نفسه قالت:

- ما تخافيش دا إجراء روتيني.

ومن ثَمَّ نزعت عنّي ملابسي قطعة قطعة، وكُلّما نقصت قطعة ازدادت رجفتي من البرد حدّة، لينتهي بي الأمر واقفة كجذعٍ عارٍ. بدأتْ التفتيش الجسديّ فبلغت الأغوار ولمست المناطق المحرمة، تلك التي عادت ما تظلّ مهجورة، تنقلتْ يداها بخفة وتمرّس بين أجزائي إلى أن بلغت الومضةُ المهينةُ ذروتها حينما مدت يدها والتقطت قلمين من الخزنة التي بجانبها وقامت بفحص مؤخرتي قبل أن تصفعها معلنة انتهاءها، وكأني رضيع بين يديها لا حيلة له. وقفت مذهولة، انتُهكت ولم أقو على فعل شيء. ثمّة لحظات تنأى فيها روحك عنك مُحتجّة، تترك جسدك ساكنًا على حافّة الزمن وتُغادر لتُشاهد ما يجري عليك من الخارج ساخطة، ولكن دون أيّ قُدرة على تغيير الواقع، وذاك تحديدًا ما جرى. وبغصّة في الحلق ولمعة في العينين لن تُمحى إلى الأبد التفتُّ نحوها وقلت:

- أبي أحلق راسي.

ضحكتْ، وليتها لم تفعل، فبمجرّد انفراج شفتيها كبدِيّة اللون ظهرت مغارة، بل منجم دُكَّ بحثًا ولم يُعثَر فيه على شيء، أصابتني ضحكتها بالهلع، فكان من ألطاف الله أن عادت إلى جدّيتها وقالت:

- ماينفعش تاخدي أي قرار دلوقتي، ممنوع. وبعدين أنا اسمي زينب لما تعوزي حاجه تقوليلي يا سستر زينب، يلا تعالي ورايا.

منذُ تلك اللحظة، جُرّدتُ من كافّة الصّلاحيات الإنسانية، وتحولتُ

إلى عنصر غير فعّال، مادّة هلاميّة للبحث والتنقيب. سرت خلفها ببطء، فتحت بابا أصدر صوتَ حنجرةٍ مجروحة، لأجدني في غرفة خالية إلا من سريرين متهالكين أرجلهما صدئة، الله وحده يعلم كم من الآهات شهدا، فوق أحدهما لحافٌ رمادي باهت. قاطعتني:

- خُشي ياحبيبتي، دي أوضتك لوحدك، وحمامك كمان خمس نجوم.

فجأة أطلّت فتاة بوجهها من باب غرفتي وقالت:

- مساء الخير، أنا عبير وبقوم من النوم وأصير أحمد.

خرجتْ كما أتتْ، في لمح البصر. غادرتُ السرير مسرعةً لأتبعها ولكنها اختفت، درت دورة كاملة في المكان فلم أر أحدًا، وصلت إلى مساحة مربعة للجلوس ليس فيها سوى مُتكإٍ بظهر إسفنجي عمودي مرتفع وتلفاز معلّق في سقف الغرفة، أعتقد أنّه من المُستحيل مشاهدته لأكثر من خمس دقائق دون الإصابة بالتواء في الرقبة.

وهناك كانت تَجلسُ فتاة أُوتيت من حسن المنظر الشيء القليل، حجابها رمليّ اللون، ووجهها كثير الثقوب كنسيجٍ وقع عليه رذاذ جَمر لم يُطفأ جيّدًا، أمّا أسنانها فسابقة لفكها، وكأنها صفٌّ جنودٍ مضطربين يسارعون للخروج من خندق.. التفتت نحوي واحتوتني بنظرة مركزة، أشحت عنها بعيني بعد أن رأيت فيها ومضة الجنون تلمع. تراجعتُ للخلف فزلّتْ قدمي وكدت أن أقع فاتّكأتُ بيدي على الجدار، ابتسمتْ ثم جلجلت بضحكة مخيفة، تلك الضحكة التي تصاحب من خسر ثروته لتوه.

لم أعلم ما أفعل، هل أسير أم أجلس، تجمدت في مكاني، باغتتني يدٌ تضغط على كتفي بما يتجاوز حدود الأدب، وإذ التفتّ طالعتني كتلة برتقالية هي في الأصل فتاة أخرى تكاد تتكور من السمنة حتّى أنّها بلا رقبة، عيناها مُدوّرتان وتلبس رداء رياضة برتقالي اللون ضيقًا، شعرها الخشن بني مائل للحمرة، وجبينها يحتل نصف وجهها. لم تتردّد لحظة في التعريف بنفسها:

- أنا نور حمدي ودي نور حبيب، شفتي ازاي في اتنين نور هنا، الله ينور علينا بقى، اقعدي، إنتِ اسمك إيه؟

لا أرد وأُشيح بنظري كعادتي فيسترعى انتباهي بابٌ موارب ألمح من ورائه صف أسرّة قد يزيد عددها عن السبعة! ومحدّثتي تواصل الحديث:

- أهي دي الصاله بتاعتنا.

وفجأة انفتح الباب الموارب على مصراعيه لتطل علينا مُسنّة سمراء مرهقة العينين يكاد رأسها يلامس حد الباب، وتشير إلي مُعلّقةً:

- هيا دي البت الگديده؟ ودي گايه في إيه إن شاء الله؟

يجيبها صوت زينب القادمة من بعيد:

- ملكيش فيها يا حگه دي مش معاكم.

فتطالعني بازدراء:

- يبقى مدمنه گتكم النيله أهو انتوا اللي خربتوا البلد ياولاد الوسخه.

تنهرها زينب بنبرة قاسية:

- بس ياحكه اسكتي

أنظر بذهول غير مستوعبة الإهانة التي تلقيتها للتو. وتستمرّ الحاجّة دون أي اعتبار لزينب موجهة كلامها للكتلة البرتقالية:

- أما تشوفي وحده كده گلد على عضم، تبقي تعرفي أنها بتاعة بودرة على طول، گتهم القرف.

أتركهنّ وأغادر، تحاول الكتلة البرتقالية اللحاق بي ولكن زينب تمنعها، أتجه إلى الغرفة وأجلس على السرير، فتفاجئني زينب دون استئذان:

- خش يا دكتور.

رغم المفاجأة أحمد الله على أنّني أخيرًا سأتحدّث إلى شخص طبيعي، أنظر إلى الرجل الخمسينيّ الماثل أمامي، أتملّى قميصه المُلائم لسنّه فيُنبئني باستقراره النفسيّ مُقارنة بمن شاهدت، وفي المُقابل يمسحني هو أيضًا بعينيه مسحًا شاملًا ثمّ يبتسم قائلًا:

- لازم نزوّد وزنك.

ودون انتظار لردّي يُعاود الابتسام ويغادر.

أحاول الانحراف تاركة مسافة بين حلمي ويقظتي

نهبني الخوف وتهت في غياهبه، أفكاري كرؤوس دبابيس تتأرجح وتجرح عقلي، تتناثر قشوره فتخنق أنفاسي، أقضي الجزء الأكبر من اليوم في النوم، نوم لا يقطعه إلاّ دخول ممرّضة لإعطائي الدّواء وبعض الطعام. لم أكن أشعر بما يجري حولي، أنام في مكان وأجدني في آخر، أستيقظ في أوقات ولا أعلم ما الساعة! أبذل جهدا لأتبيّن الواقع.

وهكذا توالت الأيام. ليتني أعرف كم مضى على مكوثي هنا! غريبةً كانت مشاعري، أصبحتُ ممزوجةً بشخوصي، اتّحدت كلّ الأشياء بي علّها تستطيع الصمود، لم أكن منقسمة كعادتي أو مترددة، بل كنت نتاج مزيجٍ لا يمكن فهمه أو فصله. استغرقت وقتا لكي أعيد بعض الأشياء إلى مسمّياتها، بات استيقاظي كلّ يومٍ بمثابة فاجعة، عادة ما تستيقظ أذني قبل عيني، مُلتقطة الكثير من الأصوات المزعجة، بدءًا من الأغاني الهابطة التي تصدح في الأنحاء، انتهاءً بصراخ الفتيات، أفتح عيني بصعوبة. تبدأ روائح المكان في شق طريقها إلى أنسجتي الأنفية، روائح مطهّرات قذرة وأحماض ومحاليل. باب غرفتي مفتوح، المكان بارد وحادّ، والجدران تتموّج أمامي، في قلبي انقباض رهيب وشعور بالوحشة، وفي الرأس ثقل. ليتني لم أفق.

تدخل إحداهن وتنتشلني من هذياني:

– صباح الفل يا گميل، أنا اسمي سستر علويه يلا معاد الغداء.. يلا بقى..

أحاول النّهوض ولكنّي أشعر بدوار، تقترب مني لمساعدتي، هي مجرد جلد على عظم حتّى أنّك تخالها رجلًا من بؤس مظهرها: عروقها تكاد تفر من يدها، وشعرها خفيف إلى درجة محزنة، مع مسحة من العناد فيها لا يمكن تجاهلها، تجلسني على فراشي وتذهب لفتح الستائر المهترئة وهي تتمايل في مشيتها وكأنّها تُحاول إحياء أنوثتها، ومن ثَمَّ تصدح بقول لا يمكن أن أنساه:

– أحلى مساء على الصرصار والخنفساء يلاّ يا بطه. بلاش دلع!

ها قد أصبحتُ بطّة، أدخل الحمّام المتهالك الخالي من المرايا خُلوّ المكان من المقاعد المُناسبة للجلوس، لا أكترث للأمر، فأنا على كُلّ حال لا أريد أن أراني. أغسل وجهي عشرات المرّات علّني أستعيد وعيي، أتوضّأ بصعوبة. وإذ أخرج من الحمام ولا أجدها أرتمي في سريري وأغفو.

استيقظت من نومي على كابوس مرعب، تنفست الصعداء، ثمّ أخذت عيناي تجولان في الغرفة إلى أن استطاعتا الرؤية في الظلام المشوب بضوء الردهة الباهت وقد تعوّدتاه. أحرقني الصّمت، وامتدّ الفراغ أمامي بلا نهاية، حتّى كدت أسمع صوت مسامات جسدي المتلكّئة من احتكاكها بأنسجة مرقدي، خُيّل إلي أنّي سمعت فحيح نفس أحدهم فتوجّست وبدأ قلبي بالخفقان. ثمّة جثة عملاقة متسلّلة حجبت الضّوء الهزيل الساقط، بدا انعكاس ظلّها مهيبًا وخصلات شعرها تترنّح

وكأنها شعيرات استشعار لحشرة عملاقة. لم أفهم ما يحصل ولكنّي لم أتحرّك، كنت كصيّاد قابله دبٌّ فجأة، لم أتسلّح بأيّ مهارات دفاعية لمثل هذا النّوع من الهجوم الخبيث، كانت عضلاتي متشنجة حدّ العجز عن فتح علبة ماء. سحبت الجُثّة غطائي وقال بصوت خشن متحشرج:

- أنت من المؤمنين ولا الكافرين!

«يا إلهي أهذه من زبانيتك؟»

اقتربت أكثر وكرّرت:

- كافرة ولا مؤمنة؟

أجبت بصوت مهزوز وأنا متمسّكة بغطائي بقوة:

- مؤمنة.

ابتسمت بخبث وغادرت. فانسابت دموعي وبدأ قفصي الصدري يصعد ويهبط كأرجوحة، ولم ألبث أن عدتُ إلى كوابيس النوم فهي أرحم..

أيّها البسيط بوركت أينما كنت وكيفما كنت

ساقوني من غرفتي إلى الخارج لأوّل مرّة، كانت الوجهة قاعة الطعام والغاية تناول وجبة الغداء، وقاعة الطعام هذه مستطيلة، وطلاء جدرانها من الأخضر المضرّ بالنّظر إذا حدّقت فيه أكثر من دقيقتين، ورائحتها شبيهة بأمكنة بيع الخضار. أمّا طاولاتها الحديديّه المتهالكة لفرط ما أكلها الصدأ فذات أسطح غير مستوية. يجلسَ إليها المرضى متقابلين متحفزين، ومن ثَمَّ تبدأ الصّواني بالدخول، وهي صوان معدنية مقسمة إلى أربعة أجزاء يُصبّ فيها الطعام.

ليس الملوخية بالنسبة إليّ سوى غذاء مثير للاشمئزاز، ذلك أنّ سيولتها ولزوجتها حالا دون ميلي إليها، أمّا في المصحّة فإنّها تحظى بالمكانة الأعظم، في المُقابل كانت السلطة باهتة ومخلوطة بها تساقط عليها من رذاذ الملوخية، والأرز معجون بخيوط من الشعيرية وقطعة دجاج.

انطلق الجميع يأكلون وكأنهم في سباق، يتناثر حولهم الكلام المتساقط من طاولة إلى أخرى، كحبات عرق، حاملًا رذاذا من الملوخية تقذفه أفواههم اللاهثة. كانت فترة تعذيب حقيقيّة، ساعة تحث على القيء، كرهت فيها لوني المفضل وعلم بلادي.

في خضم ذلك، تقدّمت إحدى الفتيات نحوي بكل جرأة، بدت لي مختلفة وغير مختلّة كما البقية، كانت قصيرة القامة يكاد الفضول يقفز من عينيها، شعرها ممشوط بعناية ومُثبّت إلى الخلف بدبوس، وملابسها نظيفة، وقد لفت نظري أنّها ترتدي عقدين تتدلى منهما عين زرقاء وكفّ، أمّا ملامحها فبها مسحة ألم تتوراى خلف فضولها بشكل جيّد. وضعت طعامها بجانب طعامي وجلست في المساحة البسيطة المتبقية ما اضطرّها إلى لكزي لكي أفسح لها المجال أكثر:

- نوّرتي، أنا هدى وبيدلعوني هدهد، ما تخافيش كلها كم يوم وتتعودي أنا باقي لي هنا أربعة أشهر.

أُحبطت حين سمعت المدّة الّتي ذكرتها لا سيّما وأنّها لا تظهر عليها أي علامات جنون. استمرت بالحديث دون أن تنتظر أي ردّ منّي:

- كنت بضرب أفيون وعايشه فلّ لغاية ما فتنت عَلَيَّ بنت الجيران أصلوا صاحبها كان مُعكّب بيا.

أنظر إلى الطّعام الموضوع أمامي ولا أجيب، ولا هي تصمت. قاطعتها إحداهنّ فجأة موجّهة حديثها إلي:

- عندك شوكالاته؟

نبّهني السؤال إلى الفتاة الضخمة المتحدّثة، وإذ تبيّنت أنّها من اقتحمت غرفتي في اللّيل كدت أهجم عليها وأكيل لها الضّربات ولكنّي تراجعت إذ لم يكن هناك من تكافؤ في الحجم بيننا.

التفتت إليها هدى:

- حكَبلك بعدين.

وعادت لوضعها واستمرت:

- بصّي دي بسنت بقى لها هنا يجي السنة، عندها هوس بالأكل وبوزنها بتقيس كل حاگه فيها كل ساعة، ابقي كل فترة والتانيه ناوليها حاگه لحسن تكرهك وتخلّي عيشتك گحيم.

استأذنتها وتركت مكاني دون أن أتناول طعامي، شعرت بأنّها امتعضت قليلًا ولكنّي لم أبالِ. لم أستطع الأكل رغم شعوري بنهمٍ طفيف، حقدت على كل الموجودين خارج أسوار المصحّة. عدت إلى الجلوس في الردهة قُبالة التلفاز الصامت، إلى أن بدأن بالتوافد فتركت المكان ودخلت غرفتي. لا أعلم كيف نمت. وحين أفقت كنت أتضوّر جوعًا، بدأت قواي تنهار أمام الجرذان الدّاخلية الّتي خلقتها كثافة الأدوية، الحيُّ الوحيد في كتلة مُغطّاة بجلد هي أنا. كان العشاء أسهل بلعًا، وهو شطائر من مكونات فريدة لم أفهم ما هي حتّى بعد أن استقرّت في معدتي. لم أشأ المكوث بينهنّ، لعدم ارتياحي إلى الثبات في مكان واحد، فرحت أغيّر من موقعي مُتوجّسة من اقتراب إحداهنّ منّي، لا سيّما وأنّهنّ كثيرًا ما يسرن بلا هدًى فلا تعلم متى سيقتربن، حتّى أنّ مجرّد قيام إحداهنّ يصيبني بارتعاشة خفيفة، ويسترعي كل انتباهي إلى أن تعاود الجلوس. إنّ قراءتي للغة الجسد في تقدّم، وتلك لغة أصدق من الكلمات. لطالما تساءلت: «هل يتألّم المجانين» وها قد علمت أنّهم يتألّمون جدًّا ولكن لا يستطيعون تحديد مصدر الألم والإشارة إليه.

في المساء تأخر النّوم عن الحضور ولكنّي ظللت مستلقية خشية أن يأتي ولا يجدني في مرقدي. لبثت أستمع إلى الضوضاء القادمة من الخارج في ما يُشبه عزف فرقة غجرية فوضويّة الأداء. فُتح باب

غرفتي على مصراعيه ودخلت بسنت وبدأت تعبث بأغراضي، اكتفيت بالمشاهدة ولم أحرّك ساكنًا، إلى أن أتت زينب وأشعلت الضوء ونهرتها بشدة وغادرتا، ثُمّ تكرّر الأمر مرارًا وفي كُلّ مرّة كانت زينب تتصدّى لها دون أن أتفاعل معهما إلاّ بتحريك رأسي الّذي أصبح يبحث عن الاستكانة كنرد على طاولة قمار يتجمهر حولها السكارى. في نهاية المطاف همدن تمامًا، وهمدت من بعدهنّ.

وقد خطر على البال
كل ما يمكن أن يخطر وكُسرت الخواطر

أفقت على قرقرة معدتي وتوسّلاتها، اتجهت إلى قاعة الطعام وهو ما يُعتبر تطوّرًا ملحوظًا في سلوكي، وقد شجّعني أنّ وجبات الإفطار أقلّ قرفًا من الغداء والعشاء. أكلت جبنةً بيضاء وخبزًا جافًّا ولم أقوَ على الاقتراب من المربّى فتحاشيته مثلما تحاشيت النظر إلى باقي الموجودين وأنا ألوك الطعام في شرود.

بعد تناولي الطعام اتجهت إلى الرّدهة فوجدتها خالية إلّا من هدى، وما إن رأتني حتّى هبّت من مقعدها:

– الحمد لله اتحايلت عليهم ومانزلتش معاهم الرياضة.

ومن دون مقدّمات ألقت بسؤالها الاستقصائي:

– إنت كنتِ بتضربي إيه؟

لا أعلم كيف غادرني صوتي وكأنّي أسمعه لأوّل مرّة:

– أنا ما أضرب شي.

بحلقت فيّ غير مُصدّقة وأتبعت سؤالها بآخر:

– أُمّال إنتِ هنا ليه؟

لم أُجب وهممت بأن أغادر إلّا أن هدى أمسكتني من يدي:

- إنتِ دمّك تقيل كدا ليه! ماتزعليش اقعدي، اقعدي بسّ.

تردّدتُ قليلًا ثُمّ طاوعتها إذ لم يكن لديّ ما أفعله، كنت أشاهد كلّ شيءٍ من خلف زجاج تلفاز يعرض فيلمًا مخيفا رديء الجودة. قامت وأحضرت مرطّبات وبعض الحلوى واستمرت في الحديث:

- بصّي زينب دي دهيَةْ من دواهي الزمن خدي بالك منها، أصلها بتنقل كل حرف للدكتور وساعات بتزوّد من عندها وياما عملتلي مشاكل، وعلوية دي أصلًا ستّ بتاعت خناقات، وكلّ اللّي في حتّتها بيعرفوها ومحدّش يقدر يهوّب ناحيتها.

سألتها:

- وعبير؟

- عبير مين؟

- البنت السعودية.

قبل أن أتلقّى منها إجابة جاءت زينب وقطعت حديثنا مُوجّهة حديثها إليّ:

- الدكتور عاوزك يا منيرة يلاّ معايَ.

سرت وراءها. وفي طريقي رأيت عبير تسير عائدة إلى العنبر فابتسمتْ وابتسمتُ. وبمجرد أن بدأت الجلسة مع الطّبيب سألته عن موعد مُغادرتي فنظر إلي نظرة مطولة ولم يُجب. وإذ نظرت إليه أنا أيضًا شعرت بأنّ شبابه وتقدّمه في السنّ يتعاركان، تارة ينتصر هذا وتارة ينتصر ذاك، وهو بالإضافة إلى ما ذكرت مُتّزن أكثر من اللاّزم ما يُشعرك بخللك أكثر من اللاّزم، صوته رصين وإيماءاته تنمّ عن ذكاء حادّ يظهر

على محيّاه بوضوح، وقد زاده شعره الكثيف الأشيب تطابقًا مع الصورة النموذجيّة للطبيب. وبعد أن أطال الصمت قال بنبرة هي مزيج من الجدّ والمُزاح:

- مستعگله ليه على الخروگ؟ وراكي حاگه مهمة؟ ممكن تعتبري نفسك زيّ لاعب الكورة اللي محتاگ يعيد لياقته عشان يرگع للملعب تاني.

ثمّ عاد ليكتب في الملف، فلم أشأ أن أتحدّث إذ كنت قد بدأت أشعر بالإعياء.

كانت الجلسات العلاجية مع الطبيب مختصرة وأغلبها لزيادة جرعة أو لتغيير نوع دواء، ففي مثل حالتي يحتاج الطبيب والمريض وقتًا طويلًا ليجدا الجرعة المناسبة، أي الجرعة الأقلّ ضررًا لأن التشنّجات في جميع الأحوال ستظلّ موجودة وما الهدف إلاّ التخفيف منها. ولقد أكّد لي مرارًا أن أمامنا تنقيب مضنٍ. وأنّ كلّ المطلوب منّي أن أستقر صحيًّا وأتغذّى جيّدًا.

عدت إلى العنبر، وكنت قد بقيت مُدّة محرومة من أيّ اتّصال هاتفيّ من عائلتي وهو أمر أخبروني به من البداية. ومنذ اقتراب نهاية الشّهر الأوّل وأنا أنتظر تلك اللّحظة الّتي ستناديني فيها زينب لأردّ على مكالمة هاتفية تخصّني، فجاءت اللحظة المنشودة في تلك الأمسية. فوجئت بصوت زينب يُناديني بالنبرة ذاتها التي تخيّلتها وكأنّه قادم من من مسافة بعيدة:

- منيراااه، يا منيراااه، تلفوون.

لم أصدق نفسي، انتشلت جسدي من المقعد بسرعة، وأوشكت أن أقع لفرط حماستي، تناولت السمّاعة من يديها بلهفة حتّى أنّي لم أقم بمسحها، وأنا التي تخيّلت مرارًا وتكرارًا أنّ أوّل ما سأفعله إذا تلقّيت مُكالمة هو أن أمسح السمّاعة من رذاذ لعابهم. كم كنت بحاجة إلى صوت من خارج هذا المحيط الهستيري!

جاءني صوت نورة من الجانب الآخر:

- ألو.

أخذت نفسا عميقًا وأجبت:

- ألو.

- حبيبتي كيفك؟

قلتُ وأنا أعارك العبرة:

- هلا، بخير.

- يجعلك دايم بخير.

- كيفكم كلكم؟

- حنا بخير بس وحشتينا.

تنساب دموعي حارقة:

- وانتم بعد.

- حبيبتي أنا بحاول أزورك بس هم مانعينّا، يقولون بدري.

- الله كريم.

- كيف نومك؟ أكلك؟

- سمنت.

- الله يبشرك بالخير، ما أتخيّلك سمينه أبدْ! كيف المكان وكل شي؟ طمنيني..

يدخل صوت في المكالمة وينقذني من عناء الإجابة التي لم أكن أستطيع إليها سبيلا:

- أيوا يا فندم إنت قلتِ دقيقتين واهم خلصم.

جاوبته نورة بإصرار:

- ماسك ساعة بيدّك! اصبرُ شوي.

- معليش يا هانم بس أنا حتحصلّي مشكله.

انسابت دموعي فأغرقتني، لم أكن أريد لذاك الصوت أن يرحل ويتركني لعالم المجانين الّذي يُحيطني:

- خلاص نوره سلّميلِي عليهم كلهم، أحبّك.

- وأنا أحبّك أكثر، محتاجة شي؟

أجبت والدموع تغشاني:

- شكرًا.

وضعتُ السماعة ومسحت عينيّ، وإذا بزينب مُنتصبةً أمامي. عندها فهمت لِمَ قد ترتكب الجرائم. تجاسرت وتركت المقعد المهشم وأنا أكثر منه تهشّمًا، جررت قدميّ جرًّا إلى زنزانتي. كان كلّ ما فيّ يرجف، وكنت أتساءل: ما هذا الّذي وضعت نفسي فيه؟!

في الاعتقال يكون الانعتاق

بمرور الوقت بدأت التواصل مع من حولي من المريضات، عطفت عليهنّ، وأصبحت أقضي المساء برفقتهنّ، أستمع إلى أحاديثهنّ الفرديّة الجماعيّة، وجلّها أحاديث غير مترابطة ولا علاقة بينها. كلّ منهنّ تتحدّث لغة خاصّة به وتصرّ عليها، قد يتقاطعن في كلمة فيحدث عندها تصادم وشجار، وقد تنفعل إحداهنّ فجأة وتشرع في البكاء أو الضّحك.

إضاءة المكان تزيدنا بشاعةً، لا أفهم تلك الإضاءة البيضاء ولا سبب إصرار فئة كبيرة من البشر عليها، بل إنّ اختيارهم لنوع الضوء هذا يجعلني أضعهم في خانة بعينها وأحكم عليهم بافتقارهم إلى الحسّ الجماليّ، كرهت المكان وطنين الضوء فيه، يواكب مجريات الأحداث ويغلّفها بغلاف فضائي غريب يفصلني عن الواقع بمسافات، وكأنّني قد رحلت إلى كوكب آخر.

تطل الحاجّة من وقت لآخر على البنات لتتفقدهن، وهي امرأة سليطة اللّسان وكثيرة الشّجار تحاشيتها ولم تتحاشاني، ولفرط ما كالت من الشتائم للمدمنين وللمخدّرات مُلحقة إيّاها بالدعوات، اعتدت بذاءتها. ولقد علمت من هدى أنّهم أحضروها إلى هنا جراء تفاقم نوبات غضبها واشتكاء كنتها منها. كانت الحاجة دائمة التفاخر

بتقطيعها لشعر زوجة ابنها وزيارتها لقسم الطوارئ أكثر من مرة.. أمّا نور حبيب ونور حمدي فنقيضان في كل شيء إحداهما ضعيفة جدًا جسديًا وشخصيًا والأخرى لها من القوّة ما يُصيبك بالتوتّر وأنت تجلس بجانبها. أودعت نور حمدي المصحّة لاعتقادها المرضي بأنّ ابن جيرانهم يبادلها الحب، ولم تكتفِ بأذيّته وملاحقته واتهامه بالتحرش بها، بل إنّها في إحدى الليالي ارتدت ثوب زفافٍ نادرًا ما كانت تنزعه عن جسدها وطرقت باب بيته بعد انتصاف الليل صارخة وباحثة عنه في كلّ مكان. ومن ثَمَّ أحضروها إلى هنا. أمّا نور حبيب، فكانت تعتقد أن أختها تكرهها وتكيد لها المؤامرات وهو ما جعلها مهووسة بإنقاذ ابن أختها من أمّه لعشقها المرضيّ له. وإذا كان محور مرض «النورين» بشريّ، فإنّ ما تشكو منه الفتاة الضخمة العالية الردفين «بسنت» مُغايرٌ تمامًا فهذه البنت ذات الشعر الغجريّ والصوت الخفيض بطريقة مريبة، والعينين الخاليتين من أيّ نظرة للتّعقل، تكاد لا تستقرّ في مكان بحثًا عن أي طعام تلتهمه وفي الآن ذاته لا تكفّ عن الشّكوى من ازدياد وزنها والوقوف أمام كلّ من تلتقيه كاشفة عن ثدييها ومُتسائلة عمّا إذا كان هناك فرق في الحجم بينهما. بقيت هدى وأظنّها لا تحتاج إلى تقديم فكل ما ذُكر بشأنها يدلّ على أنّها لا تصمت ولا تدع أحدًا في حال سبيله، تتكلّم عن الجميع وعن كل شيء، وتسترق الأخبار وتستمتع بسردها بأسلوبها الخاص.

لم تشدّني أيّ منهنّ أو تخفّف عنّي حملي إلّا عبير التي كانت تستيقظ كل يوم دون أن تُصبح أحمد، هي كتلة كسل بجزئية إنسانية، تمشي كرجل آليّ وتجلس كالمحنّطة ولا تتحدث مع أحد، إلاّ أنّها تملك ابتسامة

ملائكيّة تشع من ذلك الحطام. كانت بمعزل عن أي حسّ انسانيّ لكنّ الفراغ في عينيها لم يستطع إخفاء الحزن العميق السّاكن فيهما.

كان من الصّعب التعرّف عليها جيّدا ذلك أنّ كميّة ما تتعاطاه من مُضادّات الذُهان -حسب ما أخبرتني به- بلغ ضعفيْ ما أستهلكه أنا، وهي رغم ذلك ذات روح جميلة ترفرف حولها. وأعجب ما فيها قدرتها على المكوث في المكان نفسه والوضعيّة نفسها لساعات دون أن تفعل شيئًا. إنّ أولئك القادرين على سكون مُماثل إلى مكان ما والركون إلى دواخلهم، هم أقوياء هذا العالم.

والغريب أنّي ما زلت لا أعلم ما هي قصّتها إذ لم تستطع قوى هدى الاستخباراتية اختراق الجدران التي تحيط بها نفسها.

نشب شجار فجائيّ عنيف بين هدى والحاجة سمعت فيه قاموسًا جديدًا من الشتائم، وقف الجميع موقف المتفرج المكتوفِ الأيدي، وكذلك فعلت لفرط ما كان الملل لا يطاق. انتهى الشجار بسيل من الدعوات من فم الحاجة، وفجأة بدأ الجميع بالضحك الهستيري وأوّلهم هدى. إنّ هذه الفتاة لا شيء يثنيها عن الحياة. أعادت تسريح شعرها متباهية، وبعد أن اكتفَت من دور البطولة، أتت وجلست بجانبي:

- ولا بيهمني أنا كلها يومين وخارگه من هنا والأشكال دي أنا بعرف أتعامل معاها ازّاي، دي ست خرفانه، أنا لو من ابنها، مخرگهاش من هنا أبدًا، أعوذ بالله.

مددت إليها قنينة الماء التي كانت بيدي، علّها تصمت قليلًا فتناولتها منّي واستمرت في الحديث:

- هُمّا يومين وحبقى برّا سراية المگانين دي، بصّي أنا حكتبلك نمرتي بس خُدي بالك تشوفها زينب، إنتِ اخرگي بس من هنا وأنا حوريكي اللي عمرك ماشفتيه.

بلعت ريقها وأردفت:

- تخرجي بالسلامه.

كادت تشرق بالماء من تعجُّلها للحديث ومع ذلك تابعت بلا مُبالاة:

- ربنا يخلّيكِ يا منيره.

ثم أمسكت بمعصمي ونظرت لأثر الجرح:

- يبقى صحيح أنّو إنت حاولتِ تنتحري؟

نزل عليّ السّؤال كصفعة، تغيرت ملامحي وعدّلت من جلستي في ارتباك:

- مين قالك؟

- ممم مين قال إيه!

أكرر بنبرة أحدّ:

- من اللي قالك؟

تجاهلتني وهمّت أن تقوم فاستوقفتها وكررت:

- مين قالك؟

فكان أن أجابت بابتسامة صفراء:

- إيه يا منيره ما تدقّقيش كدا، سمعت زيّ ما بنسمع حاجات كتير.

ثمّ قامت وتركتني. ولشدّة ما تملّكني الغضب فكّرت في أن أتجه إلى زينب لأرى مصدر هذا الحديث ولكنّي عدلت عن رأيي، إذ لم تكن لي طاقة لأي جدال ولا رغبة بالحديث، تركتهنّ واستلقيت على فراشي أفكر: هل حاولت الانتحار فعلًا؟ ولماذا؟

كان فقيرا فنال نوما بالتقسيط

بوسع مُضادّات الذّهان أن تطفئ كلّ شيء، نعم كلّ شيء ما عدا الرّغبة في الطعام، فتلك الأدوية تحوّلك إلى مخلوق نهم يبتلع الطعام بلا تذوّق، خالقة بداخلك جرذانًا لا تلبث أن تطلب المزيد..

في ذاك اليوم، إبّان تناولنا الغداء شعرت تُجاههم بعداء شديد وأنا أنظر إليهم وهم يأكلون ويتحدثون ويضحكون، سيطرت عليّ فكرة الانتقام، أنا في مكان يخوّل لي فعل أي شيء وكل شيء.. أيعقل أن أكون على هذه الدّرجة من التفاهة. ماذا سأخبرهم لو سألوني ومللت من افتعال الجنون؟ أأخبرهم بأن الملوخيّة وأسنان نور هما السبب، وبأن إعطاء الدواء المشترك الإجباري قبل النوم يلامس كل الكهوف الفكّيّة؟! نعم، لدي أسباب قد يرونها شكلية وسطحية لكنّها في نظري ذات دلالة كونيّة، فكلّ منّا نتاج لما كانت عليه معاملته.

ومادمتُ أُعامل بهذا الانحطاط، فأنا إذًا منحطّة ومتوقّع منّي كلّ فعل وضيع. هم من وضعوني هنا، سآخذ حقّي من زينب ودكتورها الأحمق، لمسهما لي وانتهاكهما المستمرّ لجسدي أثارا بوهيميتي، لقد أذكيا فيّ الإحساس بالدونيّة. لكنّ وجود أبي في هذا العالم أنقذهما وإلّا لكنت تسبّبت في قضيّة تضرّ بالعلاقات الخارجية بين دولتينا.

حاولت البادرة بالاستفزاز ولفت الأنظار، لكنّ أحدًا لم يعرني اهتمامًا. وإذ انصرفنا من الغداء ودلفت إلى فراشي رحتُ أفكّر، كيف أهدّئ من البغض الّذي بداخلي.

طرقت الباب كعادتها بأدب جمّ، ومكثت واقفة خلفه:

- هلا عبير ادخلي.

سألتني وهي تبتسم ابتسامتها الملائكيّة المعهودة:

- ما ودك تزورين غرفتي؟

سألتْ وغادرتْ فقمت وسرتُ وراءها، وخلفنا سارت زينب، ولكنّي تجاهلتها رغم شعوري باقترابها. وكم كانت مفاجأتي عند دخولي غرفة عبير عظيمة! كل شيء فيها مختلف، وقد بدا جليًّا أنّها مكان مستوطن منذُ فترة ولفترة قادمة غير قصيرة أيضًا. غرفة مزدحمة، ملونة، وبها مُلصقات كثيرة تُخفي لون الجدار الشاحب، وغطاء فراش جميل وطاولة دائريّة بجانب الفراش عليها براويز صور عديدة لأشخاص جميلين والنظر إليهم مُريح، أمّا الجدران فذات رفوف وُضعت فوقها دُمًى، وألعابٌ وتحفٌ طفوليّةٌ بداخلها ماء ونجوم ذهبية، وعلى الأرض سجادة ناعمة كبيرة تدعوك للجلوس عليها. باختصار هي غرفة غنيّة في مكان مقفر، لا أعلم ما الّذي اعتراني إذ ولجتها وكأنّني أمام واحة في صحراء، واحة ستكون أجمل لو تركها الضوء الباهت.

سحبت عبير كرسيًا وطلبت مني الجلوس بإيماءة من رأسها، ثمّ شرعت تُعدّ القهوة.

خاطبتها:

- حبيت غرفتك.

التفتت إليّ وهي تبتسم ابتسامة تلامس شغاف القلب:

- هي في النهاية غرفة في عنبر!

لم أعقّب، فاقتربت مني واضعة يديها على كتفيّ:

- وتَرى الجنون ممكن يصير مُعدي في مكان مثل اللّي حنا فيه

تلامُسنا الجسدي مع مقولتها الحازمة، أصاباني بلمحة خوف إذا بدا لي وكأنّها تورثني وصيّتها.

كانت زينب ماتزال واقفة عند الباب، وإذ ما عادت تحتمل الإهمال نطقت:

- في إيه يا منيره، إنتِ عارفة إنّه ممنوع دخول الغرف التانيه!

ومن ثَمَّ أمسكت بذراعي وجرتني إلى الخارج متذرعة بحصة الرسم.

عبير كتلة سرّ لم ينقّب عنه بعد، ولم أكن أرغب في التنقيب عنه خوفًا من أن تنفجر فلا أستطيع لملمة شتاتها.

توجهنا مع باقي المرضى إلى الحديقة الّتي لا تمت للحدائق بقرابة، إنّ مشهد حصّة الرسم تلك كفيل بتدمير معنويات عائلتي لو شاهدوه عن بعد. أكثر من عشر مجانين ونيف من الجنسين يتراصّون متقابلين على طاولات مغطّاة بجرائد، أقلام ملوّنة بعضها شمعيّ وبعضها خشبيّ والبعض الآخر سحريّ جفّ منه السّحر، وأوراق مستخدمة متناثرة، وشخصان أحدهما طبيب يحومان حولنا بلا هوادة.

أمسكُ بقلم وأشخبط على ورقتي، أشعر بأنّي جاسوسة بينهم، ما

الّذي سأنقله إلى العالم الخارجي؟ ليس ثمّة فرق. هل أرسم منزلًا أم كوخا؟ لا أعلم. اقترب منّي الطّبيب وقال:

- إنت اسمك منيره صح!

أهز رأسي بالإيجاب، منظري الخارجي يوحي بأنّي منهم، هيئتي وشعري الأشعث، أيعقل أن جميعهم مثلي؟! أم أنّي أنا مثلهم؟ هل يفكرون بما أفكّر فيه؟ وهل لديهم وعي بما يحدث لهم؟ اللّعنة عليهم، ليتهم ينطقون لأعرف محلّي مما أنا فيه! أيكون الجنون مُعديًا كما قالت عبير، إلى درجة أنه لا يُميّز بين ضحاياه؟! ولكن اضطرابهم لا يمكن تجاهله، ولِمَ لا أكون أنا من يحبس المرض بداخله، لا أعلم ولا أرغب في أن أعلم ولكن الأكيد أن المصحّة هي الجحيم في الأرض.

تابع الطّبيب حديثه دون أن أكترث لتعليقاته البائسة. طلب الرّسمة لعرضها على الطّبيب المشرف على علاجي، فأعطيته إيّاها.

كان لمناجاتي في الليل فعل السحر، بدأت بالاعتقاد في امتلاكي لكرامات، وفي أنّي لو أمرت الأشياء أن تتحرك من مكانها لفعلت. وقوف على الحواف وخوف وارتياع وظلام محيط جعلت من صلاتي مناجاة خاشعة وكأنّي أقوم باتصال هاتفي مباشر مع الرب الذي صار ونيسي في خلوتي. فراشي شوك وكلّي شك. ينقضي وقت طويل كل ليلة قبل أن يعتاد جسدي أرضية مرقدي وكأني سباح مجبر أن يغطس في بركة ماء صاقعة البرودة، لطالما بثّت فيّ أسرّتي على اختلاف مواقعها ذلك الرعب، فمنذ صغري كُنت أكره فترة النوم وقبوعي لوحدي هناك. فانا كائن يخاف من نفسه ومن أفكاره.

صمتُ الليل يتخلله صراخ أحدهم، كل حركة أقوم بها يترتّب عنها أزيز من سريري. كل الأصوات والحركات تتحد مع آلامي وتتآمر علي. استيقظت وأنا أشهق بقوّة ولم يكن ذلك جديدًا، رأسي يدمدم ويكاد ينفجر. بدأ عقلي بالنهوض واندفعت الوساوس نحوه من كلّ صوب. نهضت من رقادي وجلستُ لعلّي أسقط بعضها. ثمّ قمت وتحرّكت في الغرفة الضيقة بحذر مُتحسّسة الجدار بحثًا عن زرّ إشعال الضوء، فمجرد اقترابي منه سلاح قد أستخدمه لو زادت الحالة سوءًا. أسند رأسي إلى الجدار، وفجأة ظهرت عبير، هي دائمًا تحضر حين أكون في أمس الحاجه إلى شخص ما، وحضورها هادئ لا يزيد عن لمسة حانية أو ابتسامة مُطمئنة. جَلست على فراشي، وقمت بالتأكد من أنّ أحدًا لم يتبعها وعدت مبتسمة وجلست بجانبها مرحبة:

– عبير كم صار لك هنا؟

– نسيت.و لا أبي أذكر.

وبفضول غير معهود تابعت السؤال:

– وإنت ليه هنا؟

لم تحرك ساكنا لوهلة ثم نهضت وغادرت مبتسمة.

بعد أن رحلت عدت إلى فراشي أفكر: «وأنا، ما الذي أتى بي إلى هنا؟».

قرص دواء يغنيك عن فرص لقاء

بعد مضيّ شهرين على وجودي في هذا المكان الغريب، بلغت مشاعري مرحلة التبلّد وكذلك عضلات جسدي، في الأثناء رحلت الحاجّة وهُدى. لا أستطيع القول إنّي افتقدت هدى بل المكان هو من فعل، فقد عمّ نوع من الهدوء والاستقرار بين المرضى، خصوصًا أنّها كانت تهوى إشعال فتيل الفتنة بين كلّ فترة وأخرى. أمّا البقية الباقية فلم يظهر عليهنّ أيّ تحسّن غير تعمق الجنون كل ليلة في قاع أعينهنّ الفارغة. عبير في ملكوتها الخاص، ونور ونور مازالتا تتحدثان في المواضيع نفسها كشريط مُعطّل، وبسنت تكاد لا تتوقّف عن التهام الطعام والشّكوى بهمهمة مستفزة. عدا ذلك قدمت نزيلة جديدة صامتة لم تُفق من صدمة المكان بعد. أمّا أنا فكنت لا شيء وكلّ شيء، لا أنا الجديدة تشكّلت ولا أنا السابقة استُعيدت. ولئن عملت على استقبال المكالمة الهاتفية الأسبوعيّة لعائلتي بحرصٍ شديد على التماسك، فإنّ ذكرى وجوههم المتوجّعة حرمتني السكينة.

راح وزني يزداد بخبث فبعد أن علمت من علويّة بوجود كافتيريا في المصحّة أصبحت أنهل منها كل ما هو معلّب أو مغلّف بكمّيات مهولة. لقد ضقت بمحاولة السيطرة على وزني لا سيّما وأنّ التمارين

الرياضية كانت تمارينَ وهمية، حتى أنّي لم أُكلّف نفسي عناء ارتداء لباس رياضة من أجلها ومردّ ذلك إلى أنّ مدرّبنا الصّامت باستمرار، ويُدعى «كابتن علي» لم يكن يتعامل معنا بجدّية الواقعيّ، فنحن بالنسبة إليه مُجرّد أطياف لا يعنيه من أمرها شيء، ما جعل حصّته أقرب إلى الرقص منها إلى الرّياضة.

بدأت الجلسات مع الطبيب تأخذ طابعًا جديًّا وبدأ يناقشني في أشياء كثيرة، ولكنّي لم أتجاوب معه. كنت أُواجه كلّ مبادرة ببرود، وحتّى حين أخبرني بأنّ خياري ذلك لن يساهم في تقليص مدة وجودي في المكان لم أبالِ.

ذات يوم استدعوني أنا ونور باكرًا لمقابلة الدكتور فتحي. قبعنا ننتظر خارج مكتبه. كانت الشّمس ساطعة، وصحّتي مُتدهورة على الرّغم من ازدياد وزني، ولكنّ الأسوأ ذلك هو الحديث المستمرّ لرفيقتي بلا انقطاع وبلا أيّ منطق أو تسلسل عن ابن أختها حماده -بطبيعة الحال- وعن إلمامها بمدى غيرة أختها منها:

– وأهو هو دا اليوم اللي گابوني فيه على هنا، يعني أمّا أروح المدرسة وآخذ حماده بشويش واروح اشتيرلوا موبايل، عشان أما يتصوّر ويبعت لي الصور.

أنظر إليها وأهزّ رأسي بابتسامة واهية فتستمر في الحديث وكأنها تخاطب جمهورًا غفيرًا ونبرة صوتها تزداد ارتفاعًا وحدّة:

– بس أنا عارفه هما بيعملوا معايا كدا ليه، مش عاوزينني، أصلهم بيكرهوني.

لقد سمعت هذه القصة ثلاث مرّات خلال أسبوع واحد بكلّ ذلك التفصيل المملّ والجنون ونظريات المؤامرات الوهمية. بدأ ينتابني شعور بالغثيان مشوب بشفقة سرعان ما تحوّلت إلى ازدراء. ليس ثمّة مساحةٌ خالية لأثبت فيها نظري، فالمصحّة صغيرة والمجانين كثر، وفي المقابل لا يُنتظر من نور أن تصمت لكأنّها حلفت أن تتكلّم حدّ الموت، زد عليه أنّ أسنانها واللعاب العالق فيها كانت تستثير رغبتي في القيء.

– في مرة من المرّات يا مُنيره، حمادة كلّمني وقال لي ماما ضربتني، ساعتها جريت..

«أعلم القصّة عن ظهر قلب بما في ذلك اتصالك بالشرطة، فلتصمتي». قلت في نفسي. ولكنّها تابعت وهي تغالب ضحكتها:

– شايفه ونهارها بقى إسوِد.

بثّت ثرثرتها الغضب في خلاياي المخدَّرة منذُ فترة (وأظنّها تستحق جائزة على ذلك) فصرخت بها وقد نفد صبري:

– حماااااادة مش ابنك، ومالك دخل فيه. ما هو ولدك فووووقي بسسسس كفايه!!!

ما جرى بعد ذلك هو أنّها انتابتها حالة من الهستيريا حدّ إسعافها بحقنة مخدّرة وأنّي استرحت منها قليلًا إذ لم أعاود رؤيتها إلّا بعد ثلاثة أيّام.

بلغت الضوضاء الناجمة عن تصادمي ونور مسامع الطبيب فخرج من مكتبه، وإذ علم بما حدث طلب مني الدخول وذهب لمعالجة الموقف.

جلست في المكتب مزهوّة بالانتصار دون أيّ شعور بوخز الضمير، أيكون الشرّ قد نبت فيّ؟ ما أجبنني! أتلذّذ الانتصار على مجنون.

دخل الطبيب وجلس بصمت وهو ينظر إليّ تلك النظرة المتذاكية التي حفظتها عن ظهر قلب لدى أطباء النفس، وهي نظرة تستمدّ مشروعيّتها من الشّهادات المعلّقة خلفه المختومة بأختام ذهبيّة مُختلفة المصادر.

- منيره، التّعامل مع باقي النّزيلات لازم يكون بحذر، مش عاوز أي احتكاك تاني بأي حدّ.

- متى أطلع من هنا؟

- متفكّريش، لسّه بدري.

- ليه اقعد أنا في مصح مجانين؟

- عشان إنتِ عندك مشكلة ولغاية دلوأتي الدواء مش مترّبط. أنا عايز أعرف علاقتك بأهلك عاملة ازاي؟

- من أرضى والديه فليفعل ما يشاء.

- ايه اكتر حاگه بتفكّري فيها، الأحداث القريبة ولاّ البعيدة؟

- ما أفكّر في شي.

- بتراوغي كتير يا منيره!

- بيتهيّألك يا دكتور.

- طيب إنتِ مش بتتخيّلي حاگات.

- ما فهمت.

- يعني هلوسَه بصريّه أو سمعيّه.

- واللي يهلوس يعرف يادكتور!
- أشوفك الأسبوع الگاي.

حين عدت إلى العنبر، وجدت بسنت تُبرطم منفعلة بعبارات شكوى يتردّد بينها اسمي من حين إلى آخر، وإذ بدأ صوتها يعلو تبيّنتُ قولها: «البنت الكافرة هي السبب هي اللّي ادّتني الشوكلاته». ثمّ لم تلبث أن اقتربت منّي وهي تشدّ رداءها:

- شفتِ عَملتِ إيه شفتِ إزّاي خلّيتيني أتخن، أنا عارفه، عشان أنا أحلا منّك انت عاوزاني أتخن.

فكّرت في أن أفعل بها ما فعلتُ بنور، ولكن زينب كانت أسرع منّي وأنهت الموقف. ومن ثَمَّ كان مساء مجنون آخر على أهبة الانقضاء.

كم كان عمرك عندما كنت مفعما بالحياة

حلّ الصّيف واشتدّت وطأته على المكان. أُضيفَ ضجيج دوران المراوح المُعلّقة في الأسقف المنخفضة إلى طنين المصابيح ودعَمَهُما صوت التشويش الرقمي للتلفاز، وألبست الخلفية المغلّفة بالضوء الأبيض المكان كآبة مُبهمة حتّى أنّي ما عدت أُطيق النّظر إلى يديّ. في تلك الأيّام بدأت أشعر بأنّ أحدهم بجانبي باستمرار، تارة أسمع فحيح تنفسه وتارة ألحظ شذرات من ظلّه وإذا حالفني الحظّ رأيت طيفه الذي كنت على قناعة بأنّه لن يلبث أن يتجسّد ويحملني بعيدًا عن هنا، ولذلك حرصت على ألاّ يعلم بأمره أحد. صرت أكثر انعزالًا، أجلس لساعات محنيّة الظّهر مُنكفئة على نفسي تحسُّبًا لحضوره الّذي أردته لي وحدي.

وفي واحدة من جلساتي تلك قطعت زينب خلوتي لتخبرني بأن هناك مُعالجة من مركز إعادة التأهيل تريد مقابلتي فلم أتردّد وتبعتها على الفور. أدخلتني مكتبًا يفوقها كآبة تجلس فيه فتاة نحيلة ذات أسنان صفراء وشعر طويل خفيف، يوحي وجهها بأنّها من فئة الغربان، وأمامها مجموعة من الأوراق. ما إن لمحتني حتّى وقفت وعرّفت بنفسها بطريقة محفوظة ونبرة آليّة وكأنها وكيل إعلانات لُمنتَج زهيد لا أحد يرغب في شرائه:

- ازّيك يا منيره! أنا اسمي عواطف، مُعالگه في المكان، عاوزاكي تتعاوني معايا، حسألك أسئلة وعاوزاكي تگاوبي بعد ماتفكري؟

لم أمانع، كنت على استعداد لقبول أيّ شيء من أجل تزجية الوقت. اعتدلَتْ في جلستها بينما ظللت أنا مُسترخية على مقعدي الخشبي:

- ازّيك يا منيره وعامله إيه؟

لم أجب. ما هذا السؤال؟ ما الذي قد يفعله شخص في مِصحّ للمجانين؟.ولكنّها كرّرت سؤالها:

- بسألك ازّيك؟

طأطأت رأسي فتابعت.

- في حاگه مديقالكِ هنا!

ابتسمت بسخرية وهززت رأسي بالنّفي

- طيّب دلوقتي حنبدأ گَدْ، زيّ ما اتفقنا تگاوبي بعد ماتفكّري ماشي؟

طرقتُ على المكتب الخشبيّ بحركة لا شعوريّة، تداركتُها بأن زدت من استرخائي على المقعد

- بسم الله، امتى كانت آخر مرّة تعاطيت فيها؟

أجابتها ابتسامتي الساخرة نفسها ولكن بزاوية أكثر انفراجًا:

- تعاطيت إيه؟

- مخدّرات يا منيره.

نظرتُ إليها بحدّة:

- أنا ما آخذ مخدّرات.

طرقَتْ على المكتب وكأنها تعلن أن الجلسة ستأخذ منحى أشدّ:

- هل أثّر تعاطي المخدّرات على حياتك العائلية؟

- أنا ما آخذ مخدرات.

أرفقتُ كلماتي بضرب الطاولة المتهالكة بيدي، ما تسبّب في سقوط شيء خشبيّ قبيح يُفترض أنّه تُحفة. قد أدفع ساعات من عمري المهدور، لأعلم من اشتراه ومتى ولِمَ! أتخيّل منظره وهو يدخل محل تحف بخسة ويسأل صاحبه، هل لي بأقبح قطعة لديك؟ أريد أن أبتاعها وأضعها على طاولة متهالكة في مشفى للمجانين، لأزيد حياتهم قبحًا. قمت عن مقعدي بعد أن فرغت من التحديق في القطعة الساقطة ولكنّ عواطف استوقفتني بنبرة شابها التوتّر:

- رايحه فين احنا لسه ما بدأناش!

التفتُّ إليها وكأنّي أراها لأول مرة، من هذه؟ ما دخلها في حياتي؟ وماذا تريد؟ ركّزت لأتذكّر ما كانت تتساءل عنه، نعم سألت عن المخدرات، فهقهت حتّى ارتجّ جسدي الفارغ وتركتها دون أن أقول أيّ شيء.

حين وصلت إلى عنبري، اصطدمت عيناي بلون غطاء فراشي، إنّه مُشابه للون قميصها، لون لا أعرف له اسمًا، سارعت بانتزاع الغطاء الرث، كيف أمزّقه؟ ليس ثمّة أيّ آلة حادة وإلّا لكنت حليقة الرأس جريحة اليد، «فلنرَ ما أستطيع فعله بك أيّها اللون النافق كحياتي» حدّثت نفسي. «قد أستطيع استخدام أسناني فلأجرّب، أين طرف

الغطاء؟ أوف، ما كلّ هذا الغبار لمجرّد تحريكه! لا بأس، سأحشر أنفي في فنيلتي..» وبينما أنا على حالتي تلك سمعت طرقًا وقحًا على الباب المُتشقّق، تلاه ولوج سيّدة قبيحة -ككلّ شيء هنا- بادرتني بالسؤال:

- بتعملي إيه؟؟

عليّ أن أجيب. نعم، يجب أن أجيب:

- ولا شي بَغيّر المرتبة!

- ووشّك ليه في فنلّتك مش شايفاكي.. فيه إيه يا منيره!!!

«لا تنطقي اسمي، اصمتي، اغربي عنّي، اغربي» تقول نفسي، أمّا أنا فأجيب:

- ولا شي عشان أنا عندي حساسيه من الغبار.

حين اقتربتْ منّي ما عدت أطيق، من سمح لها بالاقتراب، أين مدير الحياة، أحتاج أن أقابله، لأخبره بما يحدث من ورائه. إنّها تمسكني! يا لوقاحتها! أين أنت يا مدير الحياة؟ أشعر بأيدٍ كثيرة حولي. أهذه امرأة أم أخطبوط؟ ترتفع قدماي عن الأرض، يبدو أنّ مدير الحياة يستدعيني، انتظرني إنّي آتية.. إنّ الطريق إليك صعب ولكنّي أُقدّر ذلك، فأنت المدير العام، سأحتمل كل عبيدك.. وها هي عيّنة منهم. الأكيد أنّها ليست من إمائك المفضّلين، ولكن لمَ قمت بتقسيمنا إلى عبيد وإماء؟! فأنا لا تكفيني هاتان الخانتان أفيض من إحداهما فأنسكب في الأخرى. سأخبرك بحقيقة هذه الأمة، ولكن مهلًا، هي ذي الأيدي تزداد تكاثرًا، أحدهم قام للتو بلمس حلمتي وعصرها. أرجوك، أتوسّل إليك، سأحاول أن أتهذّب، ولكن كيف لي أن أفعل وأنا أُجرّ كالخروف؟

سأحتمل يا مدير الحياة في سبيل لقياك، سأجاهد في سبيلك، نعم، فهناك الكثير مما لا أعلمه وأريد منك إجابات عنه. يا مدير أشعر بكتفي تُسحق! انظر إنّي أحتمل المسمار الذي يخترق كفي الآن، وهذا الحزام الناسف الملفوف حول خصري، يا مدير إنّه ألم لا حد له، ولكنّي لها، انتظرني فأنا قادمة، أنا المُخلّصة المُختارة. هلمّوا هلموا أيها المكلومون التعساء، هلمّوا يا مجاريح الأرض إليّ بأوجاعكم وبكل آلامكم فأنا المخلّصة.. ما أكرمك يا مدير الحياة، ما عدتُ أشعر بأيّ ألم، ها إني أنسل من بين أيديهم، أرحل عن جسدي، أيعقل أني المسيح المنتظر، ياا! مديـ.. يا مدير. يا مد..

ارحل بالأزمات إلى عالم مسحور، مبهور الأنفاس

أرفع جفنيّ بصعوبة شديدة، فهما أثقل ما حملت، لا أرى إلّا بياضًا على امتداد البصر، أحاول رفع يدي أيضًا ولا أستطيع، أعاود المحاولة بلا فائدة، أكرّر فعلتي فتزيد علتي، أشعر بألم قويّ مُتأتٍّ من جانبي الأيسر، وكُلّما حاولت الحركة تعاظم وامتدّ حتّى ظهري، ثمّة كذلك صوت أزيز يعلو كلما حاولت تحريك يدي، أجرّ نظرتي الثقيلة المختبئة بين رموش لا تكاد تُرفع، وإذ تصطدم عيني بمنظر يدي المكبّلة، أستشيط غضبًا، وأصرخ: يا مديررر.. فيستجيب وأرحل عن جسدي!! أراني في السماء ولا أستطيع إمساكي، ولكن تكفي رؤيتي هناك لإسعادي. أنسلّ بخفّة من فراشي وأرتفع إلى حيث لا شيء، لا شيء إلّا أنا والغيوم القطنية..

أُفيق على ماء ساخن يتصبّب منّي دون توقّف، يُدفئني لوهلة ولكنّه سرعان ما يُصبح باردا، باردا إلى درجة مُزعجة. ما هذا البلل؟! أحاول القيام فلا أستطيع، يدي مازالت مُكبّلة، ومرّة أخرى أتصبّب ماءً ساخنًا ولكن هذه المرة من عينيّ، أستجمع قواي العقلية وأصرخ باسمها: زينب.. أيُعقل أنّ ما أعيشه الآن هو متلازمة ستوكهولم!! ززززيناااب..

تدخل علويّة. لِمَ كُلّما طلبتُ شيئًا حضر آخر؟ أسألُها مساعدتي وأنا غاصّة بدموعي، فلا توافق، وتطلب منّي أن أنتظر موافقة الطبيب، أتوسّل إليها مُكرّرة على مسامعها أنّي ما عُدت أحتمل، فتتركني وتمضي. يُبرعم فيّ كُرهٌ شديدٌ لها، ثمّ يأتي الطبيب وهي خلفه مُحاوِلةً تجنّبي، أطلب منه السماح لي بالذهاب إلى الحمام فيرفض، وإذ أُكرّر على مسامعه أني أشعر بالقرف من نفسي وأنّ بي حاجة إلى تغيير ثيابي، يلتفت إلى علوية مُصرِّحًا: «غيروا لها الملاية وهدومها».

تختفي علويه ثمّ تُعاود الظهور وبيدها غطاء فراش ساذج اللون، لا أعلم لماذا يستفزني لون الغطاء هذا الواقع بين الأخضر والأزرق! لا وقت لديّ لأكتشف، يدخل شخص آخر مفتول العضلات وطويل، كأنّه مُصارع، ويقف خلفها ووجهه للباب. فتوقفني وأنا أعاني من دوخة شديدة، وتُنزل عنّي بنطالي دون أن أبالي لفرط ما اعتدت ذلك. تمسح جسدي وما بين فخذيّ، بفوطة مبلّلة وتُلبسني حفّاظا كالأطفال ثمّ تنقلني إلى فراش آخر مع المُحافظة على تكبيلي، وهو ماجعلني أذرف الدمع وأتوسّل إليها أن تُحرّرني ولكنّها لم تستجب بل وضعتني في فراشي ومسحت على رأسي قائلة:

- معليش يا منيرة دي أوامر الدكتور.
- اطلبيهولي.
- أمّا يخلّص من المرضى اللي عندوا..

ثمّ ذهبت وجلبت لي حليبًا وتفّاحًا تناولتهما وإيّاها مُجبرة، فزيادة على قرفي المعهود من الحليب بدا لي أكل التفاح عمليّة مُضنية. وككلّ

مرّة لمتُ أمّي على تركها لي في هذا المكان ولكنّ الوقت الطويل الذي قضيته مع نفسي قبل استغراقي في النوم كان كافيا لأغفر لها.

أيقظني الدكتور فتحي وحالما فتحت عينيّ ولمحته واقفًا عند رأسي سألته:

- ليه يا دكتور؟!

- معليش يا مُنيره، الدوا مش متزبط معاكِ واللي بنعملوا لمصلحتك.

أسرعت في الحديث خشية أن يذهب، أردت أن أُكبّله بكلماتي مثلما كبّلني:

- أرجوك يا دكتور فكّوني، كلّم لي أهلي!

وكم كانت دهشتي عظيمة حين أجابني مُبتسمًا:

- إنت بقى لك يومين نايمه، يوم كمان وتخرگي من هنا

كل ما كنت تعرفه لاحقا أصبح سابقا

شيئًا فشيئًا أصبحتُ أشبه عبيرا في طريقة سيرها وكان ذلك كفيلًا بإجابة تساؤلي عن مدى تمكّن الدواء من جسدي.

توقفت عن حساب الوقت إذ صارت الحياة في نظري يومًا واحدًا متصلًا أشبه بعملاق كبير ابتلعنا فرحنا نعيش في ثناياه وأجزائه دون علم ببدايات الأشياء ونهاياتها. أمّا أكثر ما أذكره من تلك الفترة فهو ومضات الشراهة التي ما انفكّت تنتابني وجلوسي وعبير لتناول الحلوى ثمّ إتباع ذلك بتناول مشروبات غازيّة وبطاطا مقليّة وكأنّنا مجانين، والواقع أنّنا كُنّا كذلك.

كسر احتجازي وتكبيلي في معزلي الفرديّ شيئا في نفسي فازدادت كآبتي حدّة، أيُعقل أنهم أتوا بي إلى هنا من أجل تحطيمي؟ فقدت حسّ التمرّد وأصبحت مُطيعة وكأنّي واحدة منهم، بل أنا منهم أو هم منّي، لا فرق.

لّما حان وقت لقائي الثّاني بالمعالِجة مندوبة مركز إعادة التأهيل. اغتسلت وهذّبت شعري ولبست قميصًا جديدًا ثمّ سرت إليها بخطى متّزنة. طرقت الباب واستأذنت بالدخول وإذ أذنت لي دخلت عليها

بابتسامة مُتصنّعة فرحّبت بي:

- أهلا يا منيره أنا عواطف فاكراني، ازّيك؟

أكثر ما كان مُزعجًا فيها هو اصفرار أسنانها، وقرطاها المتدلّيان من أذنيها تدلّي النجفة من السقف. ومع ذلك أجبتها والابتسامة لا تفارقني:

- بخير الحمد لله.

- حاسّة ازّاي؟؟

- بخير، الحمد لله.

تُضيف وهي تباشر بإخراج أوراق من حقيبتها:

- يعني گاهزة للاختبار؟

لم أسترخِ على المقعد الخشبيّ كما في المرّة السابقة لما أعقبها من عقاب قاس. نعم، لقد نجحوا في تهذيبي كما تُهذّب الحيوانات إذ تُدرَّب على إخراج فضلاتها في المكان المُخصّص لذلك بعد أن أخرجتها في المكان الخطإ.

بدأ الاستجواب من حيث انتهى سابِقه:

- امتى كانت آخر مرّة تعاطيت فيها حاگه؟

أقلّ ما يُقال عن سؤالها أنّه غبي، فكيف لي وأنا هنا أن أتعاطى أي شيء غير الجنون، ومع ذلك أجبت بتعقّل مُفتعل:

- قبل أربعة أشهر.

- ودا أثّر على حياتك العائلية والاجتماعية؟

- نعم.

- وعلى شغلك؟

- نعم.

- هل أنت مدمنة؟

- نعم.

وابل من الاسئلة انهال عليّ فكان دِرعي الوحيد في مواجهته هو عبارة «نعم» أُكرّرها دون وعي، وحين أُتخمتْ مُستجوبتي من السؤال، وقفت مُعلنة انتهاء اللقاء بقولها:

- كمان أسبوع وحكّي آخدك تشوفي اخواتك وتتعرفي على المكان.

استوقفتني كلمة «اخواتك» إذ لم تكن لي سوى أخت واحدة ما أشعرني بنفور مُسبق ممّن سألقاهنّ.

صافحتها ورَحَلتُ. رحلتُ وأنا أحمل بداخلي ظهيرة مقهورة، أجبت فيها مرغمة عن أسئلة مبهمة.

أين تذهب الأشياء حين نحتاجها

صدقت المعالِجة في وعدها فلم ينقضِ الأسبوع إلاّ وقد عاودت المجيء. في الأثناء كنت قد حفظت عبارة «ليس لي إلّا أخت واحدة» حفظي لاسمي، وأبديت من الطاعة ما لم أُبد من قبل وكلّي أمل في المُغادرة بلا رجعة. ذهبت للقائها، طرقت بابها ودخلت. وما إن رأتني حتّى قامت وحضنتني:

- أنا حخدك النهارده عشان تتعرفي على اخواتك والمكان اللي حتقعدي فيه ونرگم.
- يعني ما راح اطلع من هنا اليوم.!!
- معليش هانت، كلها كم يوم، عندك أي أسئلة؟
- في كِتب هناك؟

تضحك:

- ايوا يا منيرة عندنا كتب،يلاّ البسي عشان نروح.
- ليه هو لبسي مش عاجبك؟!

تضحك:

- إلّا عاگبني ونصّ. أنت عسل يا منيرة يلا بينا.

قمت وراءها وأنا في إحباط شديد، ولكن مُجرّد خروجي من أسوار المكان ولو لفترة منحني شعورا، لا أجد له اسمًا ولكن يكفيني أنّه شعور بشيء ما. حين عبرنا الباب، أحسست لوهلة بقوّة تدفعني إلى الهروب منها، ولكنها كانت فطنة فأمسكت بيدي عند الحدّ الفاصل بين الجنون والحياة. ابتسمت بمجاملة إذ لم أكن من النّوع الّذي يقدّر تشابك الأيدي، فهي في نظري علاقة جسدية مستفزة.

ركبنا باص المصحّة، وأنا أُمنّي النفس بألاّ تفتح معي أيّ باب للحديث. أردت أن أشاهد العالم بسلام، ولكنّها خيّبت أملي وطفقت تتحدّث فتظاهرتُ بالإصغاء دون أن يعلق بمسامعي من كلّ ما قالته سوى جملتها التي ختمت بها حديثها حين أوشكنا على الوصول:

- إخواتك زيّ العسل.. في خمسة هناك وإنتِ حتكوني السادسة إن شاء الله.

توقّفنا أمام منزل ليس سيّئًا جدًّا في موقع جميل من حيّ المهندسين، نزلنا من الباص ووقفنا عند بوابة سوداء مرتفعة أشبه ببوابات مدارس الفتيات في المملكة. حتى هي لم تكن تملك مفتاحا. دقّت جرس الباب الحديدي:

- ايوا أنا عواطف.

فُتحت البوابة مُصدِرةً صوتًا أكثر إزعاجًا من رنين الجرس نفسه، ولجنا، أنا وهي، حديقة مختصرة جدًّا تختلف عن شبه الحديقة في المصحّة. كان ثمّة جلسة أرضيّة على يمين البوابة وأرجوحة صغيرة على يسارها، وبجانب باب الدخول كيس ملاكمة مُعلّق يتلوه ممرّ ضيّق يفضي إلى باب من الخشب الرديء..

استقبلتنا سيدة قصيرة سمراء، مشمرة عن ساعديها: أهلا أهلا...
منيرة مش كدا؟؟

أهزّ رأسي بالإيجاب.

- اهووا أنا بطة اللي بتعملكوا الأكل هنا.. بطة گودة وأناقة ودقة هيهيهيه.. خشّي يا حبيبتي..

أضحكتني معها، ولكن بصمت. مضى زمن على آخر مرّة سمعت فيها ضحكتي.

أجلت عينيّ في المكان: على اليمين تنتصب سفرة طعام مستطيلة وكبيرة، مفروشة ببساطة، يقابلها حائط عُلّقت عليه بضع أطباق حديد منقوش عليها «الله». وحول الطاولة فتيات كثر يترأسهنّ الطبيب فتحي الذي بادر هو أيضًا إلى الترحيب بي:

- أهلا يا منيرة.

وبأمر منه هبّ الجميع من المقاعد، فانتشرت الضوضاء وتداخلت الأصوات مُشكّلة لحنا بدا لي للوهلة الأولى غاية في الإزعاج.

كان أوّل من اقترب مني هي مضاوي:

- هلا يمّي، تعالي أورّيك ذا المكان المخيس.

وفي لمح البصر حالت عواطف بيننا:

- إيه يا مضاوي انت حتبتدي شغلك مع منيرة؟!

ثم وجّهت حديثها إليّ:

- قبل ما ناخد لفّه على المكان حعرفك على إخواتك وحده وحده..

أعقبت كلامها بالالتفات إلى من يُفترض أنّهنّ أخواتي:

- يلاّ يا بنات.. كل وحده تگي تسلم على منيرة وتعرف بنفسها..

وقفت أمامهنّ وقد غمرني إحساس عابر بالأهمّية فتوافدن عليّ.

ابتسمت أولاهنّ وقالت:

- أنا اسمي فرح.. أهلا بيكِ.

تلتها أخرى احتضنتني:

- أنا وفاء. وأهلا بيكِ معانا دا مطرحك ومكانك.

بَدَينَ في تشكيلة ملابسهن وهيئتهن وكأنهن يعشن في فقاعة خارج الزمن، الحياة تسير وهنّ خارجها. أعدت النظر إلى فرح، فلاحظت أن لوجهها مسحة تفرّد تُميّزها عن الأخريات ثم التفتُّ إلى وفاء، فإذا هي عاديّة في كلّ شيء، من رأسها حتّى أخمص قدميها، إنّها من ذلك النّوع الّذي يعبر بجانبك فلا يصيب منك اهتمامًا لكثرة من يُشبهونه في هذا العالم. إلاّ أنّ الطيبة البادية في عينيها تشفع لها.

أمّا مضاوي، وهي سعوديّة مثلي، فقد ظلّت مُلتصقة بي وكأن جواز سفرنا الأخضر المشترك يمنحها الحق في أن تُلازمني كظلّي. ومضاوي على عكس عبير تنضح حياةً، حضورها قوي، وثيابها متسقة، وكأنّها تتحدى المكان والزمان بمظهرها الأنيق.

ثم جاءت ياسمين واجتاحت روحي بما في عينيها من نقاء عذب كلحن موسيقي، وبما ميّزها من لطافة حتّى في سلامها، ووراءها ظهرت سميحة، وليست من اسمها في شيء، فسلّمت باقتضاب وكأنّ لسان حالها يقول: عودي من حيث جئت.

وسط ذاك الزحام، اخترقت المكان كتلة مستفزة من السذاجة محشورة في فستان بنفسجي يظهر انحناءات جسدها، وقفت أمامي وصافحتني بيد متعرّقة:

- أهلا يا منيرة.. ازّيك؟ أنا گميلة معالجة هنا وحبقى أقولك على نظام المكان، احنا هنا مش في فسحه.. تعالي أما أفرگك.

ما إن تحرّكنا حتّى تحرّكت معنا مضاوي فنهرتها جميلة بحدة:

- عاوزة إيه يا مضاوي.. خلّيكِ مكانك.

سرت وراءها في ردهة قصيرة ذات أرضيّة خزف تُنافس وقاحة لونها قباحة لون الجدران، وإذ لاحظت أنّ جميلة تكاد لا ترفع قدميها عن الأرض، أي أنّها بمعنى أدق تجرّ خطاها جرًّا فكّرت في أيّامي المُقبلة التي سأستيقظ فيها على الصوت المُزعج لاحتكاك حذائها الرخيص بالأرض خمس مرّات في الأسبوع. مررنا بحجرة ضيّقة ذات أرضيّة خضراء وجدران رماديّة تُغطّيها خزائن بنيّة جعلتها شبه مُظلمة، لو لم تخبرني جميلة بأنّها المطبخ لظننتها غرفة لممارسة التعذيب بالألوان. بعد ذلك فتحت مُرافقتي أوّل باب من أبواب الرواق المُوصدة فإذا أنا إزاء مكعّب غاصٍّ بأسرّة ثلاثة وبمثلها من الخزائن، وكان اثنان من هذه الأسرّة بطابقين، أمّا أغطيتها فمشجّرة بألوان لا تقلّ رداءة عن السجّادة البالية المفروشة على الأرضيّة منذ زمن ليس بالقصير.

نطقت جميلة بحروف تخرج من فمها معلوكة كما قطعة اللبان التي بين أسنانها:

- هنا بيناموا البنات والمعالگات، وفي أوضتين زيّهم بالزبط..

دخلت الغرفة بمفردها بينما ظللتُ في الخارج وإذ انتبهتْ لذلك غادرتْ وأغلقتْ الباب مُستطردة:

- تعالي.

سرت وراءها فمررنا بالفتيات اللاتي سيكنّ خلفيّة يوميّة لأيامي القادمة، وهو ما أشعرني برغبة في البكاء. ثمّ ظهرت عواطف حاملة حقيبة يدها العجيبة وقالت:

- يلا بينا يا منيرة.. السواق برّه.

تركت جميلة دون أن أنظر إليها أو أشكرها وسرت وراء عواطف، وفي طريق مغادرتنا قابلْنا رجلاً بدا لي أنّي رأيته من قبل ولكن لا أذكُر أين. كان قويّ البنية، أسمر، وذا ذوق خاص جدّا في اللّباس، وهو فضلاً عن ذلك واثق من نفسه إلى حدّ مستفز:

- يا هلا يا منيرة، حتشرفينا قريب، ولازم تكوني مستعده، قدّامك طريق صعب جدّا.

كان صوته حادّا يعزوه النّفس لنطق الكلمة كاملة..

عادت عواطف إلى مسك يدي مُوضّحة:

- دا الدكتور حمدي، راجل زي العسل.

في طريق العودة أيضًا لبثت صامتةً، تمنّيت أن يتوه السائق بين المكانين. وفي النهاية عدت إلى مخدعي وطلبت دوائي مبكّرًا، فقد كنت أكثر إحباطًا من ذي قبل..

ما الذي كنت أتمناه!!

في أواخر أيامي بالمصحة اندمجت معهم. لم أُبد أيّ عصيان أو تذمر. أردت للطريق أن ينتهي حتى لو اضطررت إلى مشيه حافية القدمين، وحتّى لو تقدّمت فيه كل يوم قدر أنملة، المهم أن أصل خطّ النهاية.

في اليوم المنشود، ودعني الجميع بحرارة، بكت نور لرحيلي ولكنّي في المُقابل -ويا للجفاء!- لم أشعر تجاهها بشيء. عبير فحسب لم تغادرني إذ غادرتُ.

ركبت الباص مساءً دون أن أحمل أغراضًا، ذلك أنّهم نابوا عنّي في نقلها. توقّفت أمام بوّابة المرّة السابقة ونظرت إلى السماء بيأس علّ مَن فوق يُحدِث في أمري أمرًا. وبمجرّد أن دخلت انبرت جميلة تتلو عليّ ضوابط الإقامة وقواعدها، وهي باختصار تحجير تامّ للحياة، حتّى أنّي توقّفت عن سماعها ولم أعاود الإصغاء إليها إلاّ حين ذكرت أني لن أحظى بأيّ إجازه قبل انقضاء ثلاثة أسابيع وأنّي سأخرج مع معالجِة في الأسبوع الرابع لمدّة ساعتين ثمّ تزداد ساعات الخروج بعد ذلك مع كلّ أسبوع ينقضي. كان اللّيل قد هبط فبدت هي من أشباحه. طلبت منّي الجلوس مع الفتيات لحضور آخر نشاط لذاك اليوم.

اتخذت كل منهنّ مقعدها وتولّت معالِجة تُدعى صفاء إدارة الجلسة. كنت أراها لأوّل مرة، وأوّل ما لاحظته فيها ذكاؤها المتراقص في عينيها الخضراوين وشعرها الكستنائي المحيط بهما كستار مسرح، واكتنازها الذي لا يخلو من أناقة. لم يكن بها ما يعيبها إلّا فمها الذي كشف حديثُها عيوبَه الجمّة. افتتحت الجلسة بدعاء: «ندعي ربّنا إنّو يساعدنا نفتكر كل الأفكار الوحشه ونعترف بكل أماناتنا اللي وقعت وندعي ربنا إننا نفتكر كل السيّات عشان ننام مرتاحين».

وفي الحال بدأت إحداهن الحديث على عجل:

- أنا وقعت مني خطوتي الأولى النهارده، راوغت كتير في الإكتماع. وكل أفكاري كانت سلبيّة، وكنت بحس وحش، وبرغم دا كلوا ما كلمتش مشرفتي.

كنّا نجلس في حلقة دائرية، وبعضهن يبادلنني النظرات فأتحاشاها بينما راحت صفاء تنظر إليّ بتركيز محاولة حثّي على الاندماج وهي تُجيب في الآن ذاته:

- ببساطه يا فرح إنتِ ما عملتيش أولويّاتك النهارده، ادعي ربنا وكلّمي مشرفتك بُكْرَة واحكيلها عن كل حاگه.

ثم رفعت الفتاة ذات النبرة الجافّة يدها وقالت:

- أنا مستاءه من وفاء النهارده دخلت الأوظه من غير ما تخبط على الباب.

جاوبتها صفاء وهي ماتزال تلاحقني بنظرتها:

- كان ممكن يا سميحه تواگهيها وما تقعديش مستاءة لغاية

دلوقتي، وأمانتك النهارده كانت عامله ازاي؟

- ما عملتش حاگه غلط.. أنا راضيه عن نفسي النهارده.

- إنتِ وأمانتك بقى، يا بنات لازم تفهموا أن أهمّ حاگه الأمانة، حتى لو كانت على حاگات صغيره. المرض بتعنا خطير وأولويّتكم برنامجكم أهمّ حاگه في حياتكم.

شردتُ عنهنّ بفكري، كان اجتماعًا مملاً. فمن هذا الذي يرغب في سماع مكنونات غيره كل ليلة. أنهين الجلسة بدعاء حملت على إثره المُعالجة حقائبي وقادتني إلى غرفتي، وكما كان يحدث في في المصحة جلست أنظر إلى قدمي إلى حين فراغها من تفتيش أغراضي. وبينما نحن كذلك اقتحمت سميحة المكان فالتفتت إليها صفاء:

- إيه يا سميحة، مش بنخبّط على الباب قبل ما ندخل؟

- «معليش يا سوسو بس أنا نعسانه أوي، إلاّ هي سريرها حيبقى فين؟». قالت سميحة وهي تتفحّصني بتأنٍّ فأجابتها صفاء بلا مبالاة:

- أوّلا أختك اسمها منيره، وتاني حاجه حتنام في السرير اللي فوقيك.

تمنيت أن أنقضّ عليها وأخنقها، وإذا بثالثة تدخل علينا وتتّجه نحوي وتحتضنني:

- حتنورينا يا منيره.

لم أعلم ما يتوجب على فعله ولكنّ صوت سميحه المزعج أنقذ الموقف:

- يورووه إنتِ عارفه يا صفاء إنو السرير اللي فوق بيضايق اللي تحت، ليه ماتنمش فوق سرير وفاء، دي نومها تقيل وبتشخر.

كانت صفاء قد انتهت من تفتيش أغراضي ما يعني أنّها صارت مُتحفّزةً بكامل حواسّها:

- في إيه يا سميحه، عاوزه مشاكل في آخر الليل وعلامات، منيره حتنام في السرير اللي فوقك وخلصنا بقى!

دخلت سميحه فراشها وهي تتمتم بامتعاض واضح. بينما نقلت صفاء نظرها منها إلى الفتاة الأخرى:

- إيه يا وفاء يلاّ على النوم..

امتثلت الفتاة واتّجهت إلى فراشها. فاقتربت صفاء منّي وهي تتصنّع الابتسام:

- يلاّ يا منيره على السرير، يا الله اطلعي السلم.

قمت وتسلّقت السلّم فاهتزّ لصعودي واهتزّ الفراش لاهتزازه، ومن ثَمَّ بدأت سميحة تتململ وتظهر انزعاجها. استمررت في الصعود إلى أن وصلت، ومن أوّل مُلامسة للسرير شعرت تجاهه بنفور لا حدّ له، كنت وكأنّني في قبر من قبور قبائل الأنكا التي تدفن موتاها بين الصخور الشاهقة، ولكنّ جرعة الدواء الكبيرة التي ناولوني إياها في مسائي الأوّل بينهم تحسّبًا لكلّ طارئ جعلتني أهوي إلى حيث لا ندم على شيء.

الكلام الأبكم

أفقت على رنين جرس مرتفع وكأنّه جرس إنذار. وإذ هممت بالنهوض مُرتاعة ارتطم رأسي بحد السرير. ومضة لم أعِ فيها أين أنا! نظرت إلى الأسفل فوجدت الفتاة البغيضة بصدد تهذيب فراشها، والأخرى، تبتسم لي:

– صباح الخير يا منيرة، لازم نرتّب المرتبة قبل ما نسيب السرير.

كلّ ما كنت ما أفكر فيه لحظتها هو إيجاد طريقة للهبوط من أعلى.

فُتح الباب دون استئذان وسمعت صوتًا يقول: يلاّ يا بنات عندكم خمس دقايق.

أردت أن أناديها قبل أن تغادر ولكني لم أتذكّر اسمها، مكثت دقيقة أطلب من الله الصبر وبدأت محاولة النّزول من السلم الخشبي المهتز وأنا أمسك به بحزم، اخترقت نثارة خشب صغيرة يدي من قبيل الترحيب بالوخز فزادت من انزعاجي، وبمجرد أن لامست قدماي أرض الغرفة حاولتُ نزعها، فدخلت عليّ المُعالجة وأنا على تلك الحال، وهذه المرّة ذكّرني مضغها للّبان بأن اسمها جميلة:

– إيه يا منيره! النظام كدا ما ينفعش، واقفه بتعملي إيه عندك؟

تجاهلتها واستمررت في محاولة إخراج نشارة الخشب من يدي، فاقتربت منّي وتحدّثت بنبرة أعلنت من خلالها أنّ ما كان من ترحاب بالنزيلة الجديدة قد انتهى وأنّي من تلك اللحظة سينطبق عليّ ما ينطبق على الجميع:

- لازم تعرفي إنّ النظام هنا يمشي على الكل، وأنا قلتلك امبارح كل حاگه وفي علامات، وعقاب، حتتأخّري على التأمّل، وبعدين ليه ما رتبتيش سريرك؟ حنعدّ من أوّل يوم..

سألتها بنفاد صبر:

- المطلوب؟

- رتّبي سريرك الأول.

- أرتّبه كيف وهو فوق!

قامت بتسلق السلم برشاقة وهذّبت الفراش وهي تواصل الحديث:

- بصّي عشان النهارده أوّل يوم أنا حمشّي موضوع السرير، روحي اغسلي وشك عشان ما تتأخريش على» المتيتيشن»

طلبت فرشاة أسناني وغادرت دون أن أتوقّف عن محاولة إخراج الشوكة اللّعينة المستثيرة لجهازي العصبي، ولكنّ دخولي الحمّام أذهلني عنها، بل إنّني لو أمسكت قنفذًا بيدي لَما انتبهت لِمَا أتيت، ذلك أنّ الجدار لم يكن أخضر بل مُخضرًّا متآكل الأطراف تآكل الأرضية الطينية اللّون التي طفح الماء فوقها وغطّى السّواد حوافّها، أمّا المرآة المكسورة -والحقّ يُقال- فقد جذبتني، وكيف لا وأنا لم أرَ انعكاس وجهي منذ زمن.

للوهلة الأولى كدت لا أعرفني، ثمّة نظرة في عينيّ غيرت كلّ ملامحي، نظرة غضب ممزوج بالألم. ارتعت منّي وأشحت ببصري فوقع على كأس مليء بفرش أسنان متهالكة، نأيت عنه مُجيلة النظر فإذا هو رُكام من القبح مُتوار بخجل تحت غطاء الضوء الخافت: علبة من الصفيح، صنابير ماء صدئة، و«شاور» مربع صغير مشبوه. جلست على الكرسي وأسندت رأسي بيدي، على الأقل في المصحة كنت أحظى بدورة مياه خاصة وعلى قدر من اللياقة، أمّا الآن فعليّ أن أتشارك وأكثر من سبع فتيات.هذا الحمّام «العمومي» القميء. قطع أفكاري طرق على الباب:

- منيره، منييره، إنت بتعملي إيه عندك، يلا.

تجاهلت نداء جميلة، قضيت حاجتي وغسلت وجهي وأسناني، والطرق يزداد حدّة، ثم فتحت الباب على مصراعيه دون أن أوليها أي اهتمام واتّجهت مُباشرة إلى مكان الاجتماع فوجدته يفوح برائحة أعقاب سجائر تحترق وقد انتشرت فيه غيمة كثيفة من الدخان راحت تحوم فوق رؤوس الجالسات حول مائدة الطعام الطويلة وبيد كل منهنّ كوب قهوة تُرطّب به ما تلتهمه من سجائر. كان انعكاس الضوء المتسلّل من فتحات النوافذ على الأرضية والجدران ذات الألوان البائسة كفيلاً بإغراق المكان في جوّ من الكآبة يتلاءم تمامًا ووجوه الفتيات المُتجهّمة. لم تبتسم لي أيّ منهنّ عدا مضاوي التي قبّلتني وجلست بجانبي مُتودّدة:

- خذي يمّي قهوتك.

وسرعان ما تصدّت لها جميلة:

- وبعدين بقى.

فأجابتها مضاوي مُتذمّرة:

- يختي أول صباح لها، خافوا ربكم.

بذلت جهدًا لأرسم ابتسامة لمضاوي كعربون شكر على دعمها لي. وقبل أن أنتهي من ارتشاف قهوتي نهضت الفتيات وغادرن عبر الباب الذي وقفت بجانبه معالجتان، ما أجبرني بدوري على المُغادرة واللحاق بهنّ. جلسنا جلسة أرضيّة في الهواء الطلق، وبيد كلّ واحدة منّا كتاب، إلّا أنا بطبيعة الحال، ثمّ افتتحت صفاء الجلسة بالدّعاء وشرعت تقرأ:

- لقد بدأنا نستمتع بالحياة ونحن ممتنعات عن التعاطي، ومانزال نريد المزيد من الأشياء التي توفرها لنا زمالة المُدمنين المجهولين:

م.م

الخطوة الثالثة النص الأساسي

بعد أن فرغت المُعالجة من القراءة، وكنت قد كففت عن مُتابعتها منذ زمن، طلبت منّا أن نحذُوَ حذوها، وهو ما أضفى على الوضع -دون قصد منها- مسحة من الفكاهة، ذلك أنّ أغلب البنات كُنّ ينطقن الذّال زال والقاف كاف وهكذا.. زد عليه أنّ إحساسهنّ بالنعاس ورغبتهن في الدخول وتحاشي الشمس الساطعة جعلاهنّ يلُكن الحروف الهجائية كما تلوك جميلة لُبانها.

ظللتُ أتلقّى الجدول اليوميّ للنشاط في غير حماس حتّى جاء دور الرياضة فإذا هي أقرب إلى حصّة رقص تتكفّل فيها واحدة من البنات بقيادة الفريق على وقع أنغام موسيقى شرقية.

بعد أن اكتشفت حصص الرياضة جاء الدور على اكتشاف أسوإ ما في الجدول. أحضرت جميلة بعض الفوط والمكانس ووزعت علينا المهام وبدأنا التنظيف، كانت أرضية المكان خشبية معتقة، ولَكَمْ شعُرتُ بأنّ استعمالنا المُفرط للماء في تنظيفها يعجّل بانتهاء صلاحيتها، ولكن ما لي وما لها؟ فلتحترق الأرضية وليفنى المكان بمن فيه وأنا أوّلهم. كُنت قد كُلِّفتُ بتنظيف مائدة الطعام الطويلة المتماسكة ومقاعدها الثمانية القابلة للزيادة. رفعت المقاعد واحدًا تلو الآخر فوق الطاولة،

وبي يقين أنّها ستنكسر قريبًا ثمّ مسحت الأرضية ثم جففتها ثم أعدت الكراسي ثم مسحت سطح الطاولة، ثم لعنتُ اليوم الذي ولدت فيه وكدت أترك المكان وأهرب. حالما انتهينا جاءت جميلة للتأكد من أننا قمنا بالتنظيف على أكمل وجه، وطبعًا لم يفُتها أن تُتحفنا بواحدة من جُملها العظيمة:

- بُصّوا يابنات التنظيف دا هو المؤشر الحقيقي لأمانتكم.

ثم صدعت:

- الشاور النهارده على مين؟

فانتهزت الفرصة وفزعت قائلة:

- اذا ما اتحممت كل يوم ما راح أقعد هنا.

- القانون بيسري على الكل.

لم أعرها انتباهًا. اتجهت إلى الغرفة، أخذت منها ما أحتاج، وقصدت الحمّام. تحمّمت بصعوبة جعلتني أعي افتقار المكان للماء وتكرّر انقطاعه. حين انتهيت وجدت جميلة بانتظاري عند الباب:

- بس عشان أوّل يوم حعدّيها، الدكتور حمدي عاوزك.

لم اتأخّر عن الذهاب إليه، طرقت بابه ودخلت، كان يجلس بغرور، رأسه حليق ونظّارته ذات عدستين مدورتين وإطار معدني، ولا أدري لِمَ بدا لي أنه يعتمد الاستشعار الدّاخلي أكثر من العلم.

- أهلا يا منيره، إنت عارفة إنت فين؟

- أنا في القاهرة.

- أنا مش بهزر، إنت هنا في مكان إعادة تأهيل زي الجيش بالضبط،

الأوامر تتنفذ بتفاصيلها.

– قصدك مخالبها.

– فصيحة يا منيره، اوّل يومين حنعدّيلك، لكن بعد كدا حيكون في علامات، والعلامات معناها مفيش اگازات، وخصم سگاير، وممكن نزول مرحله، وإنت واختيارك بقى.

قلت وأنا أهمّ بالوقوف:

– لو ممكن أنام في السرير اللي تحت.

– أنا ما خلّصتش كلامي ولسّه قدامك اسبوعين على ما تنزلي.

خرجت حانقة فوجدت نفسي أمام فورة من النشاط: الكلّ يحمل أطباق الطعام والبعض يلعق الملاعق. طلبت منّي جميلة أن أُحضِّر الشاي فدخلت الجحر المُسمّى مطبخًا بتبرّم وأنا لا أدري من أين أبدأ، وفجأة ظهرت السيدة بطه وربّتت على كتفي:

– أساعدك يا عنيا.

– لو سمحتِ.

– إنتِ بسّ افردي وشّك وسيبي الباقي على بطه، گوده وأناقه ودقه، تابعيني حبّه حبّه، بُصّي هنا بنغلي الميّه، ودا الشاي، والكاسات في الدولاب.

لطيفه هذه السيدة، لطفُها غلب تجهّم وجهي فشكرتها بابتسامة.

فتحت الخزانة الخشبية وأخرجت الفَناجين، لم يكن هناك سخان ماء كهربائي، بل إبريق نحاسي لغلي الماء، جهّزت المطلوب وعدت إلى طاولة الطعام، فإذا بالفتيات منتعشات ويضحكن لكأنّهن أخريات.

كنت أتضوّر جوعًا، فشعرت بي مضاوي وناولتني خبزًا وضعت عليه قشدة وعسل:

- ما عليك من أكلهم، نقدر نطلب من السوبر ماركت اللي نبيه.

ومرّة أخرى ظهرت جميلة:

- بضّي يا منيرة ممنوع تاخدي أكل من حد بسّ عشان أوّل يوم.

وضعت الخبز بغضب على الطاولة والتفتّ إليها:

- ذلّيتي أمي!!

شهقت:

- مين اللي گاب سيرة مامتك دلوقتي، حنفتري على بعض!

قمت عن المائدة غاضبة وتسلّقت فراشي، وسحبت الغطاء فوقي رغبةً منّي في الاختفاء، دعوت الله أن أتقلّص، وأن تتحول خلاياي خيوطًا تنسل وتتشابك فأصبح سجّادة صلاة تحت قدميْ الديلي لاما.

دخلت عليّ صفاء، وخيرٌ أنّها كانت هي لا جميلة وإلاّ لكنتُ ارتكبت جريمة. قامت بإنزالي بكل هدوء من فراشي، وعلى شفتيها ابتسامة حانية:

- يلا يا منيرة عندنا گروب دلوقتي.

سرت وراءها. وجدت البنات مُتحلّقات فاتّخذت مقعدًا وأنا أتحاشى النظر إليهنّ، وفي الحال ابتدأن بالدعاء:

- ندعي ربنا يدينا الشجاعة والأمانة والقوة وإنّنا نفضل مبطّلين.

- گروب النهارده يا بنات: «الآن وهنا». عاوزه كل وحده فيكم تتكلم عن اللي هي حاساه دلوقتي واحنا عارفين شروط الگروب

ممكن يا ياسمين تقوليها عشان أختك منيره جديده معانا

نظرت إليّ ياسمين بودّ:

- محدش يقاطع حد ومحدش يعلّق على كلام حد ولما نتكلّم نقول «أنا»، مفيش صيغة جمع، ومفيش نصايح.

شكرتها صفاء ثمّ عادت ووجّهت كلامها للجميع:

- بسم الله نبدأ من عايز يتكلم الأول.

رفعت وفاء يدها وبدأت:

- دلوقتي أنا حاسّه بخوف، زيارة ماما قرّبت واخويا عماد لسّه بيزنّ على موضوع الگواز.

صمتت برهة ثم تابعت بأسى:

- أنا مش عارفه إذا حقدر افضل مبطّله.

غبت عنهنّ وماعدت أسمعهنّ، رحلت وتركت جسدي متكئًا على المقعد، ولكنّي كنت أعود من حين إلى آخر لأجد إحداهنّ بصدد الحديث فأعاود الرحيل. بمجرد سكوت وفاء، تحدثت فرح:

- أنا حاسّة إني بتغيّر والأسبوع دا حبدأ أمسك سكرتارية أوضة الأكتماع، أول مرّة أعمل حاگه بدون مُكافأه، ومبدأ «لليوم فقط» مبدأ عبقري، أنا ممتنّه لمشرفتي وللتّبطيل.

كنّ بالنسبة إليّ مجرد أفواه متحركة، كائنات ناطقة بلغة لا أعيها، إلى أن سمعت صفاء تُكرّر اسمي مرتين وفي الآن ذاته لكزتني الفتاة الجالسة بجانبي لأفيق.

- ها يا منيرة إنت شايفه نفسك فين؟

لم أجب، وإذ أطلت النظر إليها كرّرت:

- منيره، ممكن توصفي إنتِ دلوقتي حاسّه بإيه!

- ولاشي



- ازاي يعني!

- يعني أنا مش هنا ولا في الساعة ذي وبس.

لم تكرر سؤالها، إلاّ أن عينيها فعلت.

انتهينا، ومُنحنا ساعة للراحة. لم أكن أشعر بالنعاس، فجلست أمام التلفاز المُطفإ. وحين لاحظت اقتراب وفاء منّي تنهّدتُ بسرّي ودعوت الله ألاّ تفتح معي أي حديث ولكنها كانت أسرع من دعائي.

- والله أنا حاسه بيك، إدّي نفسك فرصَه، أنا عارفه إنّو روحك گميله،أنا بقى لي هنا خمس شهور، كنت بضرب بودره، والنبي بطّلت بس هُمّا مش مصدقيني.

ولم تلبث أن استرسلت في حديث طويل منعني ضجري من أن أُبدي تُجاهه أيّ تعاطف فابتسمت لها بفتور وأدرت وجهي. ولئن هدتها فطنتها إلى أن تلوذ بالصمت فإنّها لم تهدها إلى الابتعاد عنّي. استرخينا في أماكننا وقامت بتشغيل التلفاز، وهو عمل يُحسب لها، لننغمس في فيلم أبيض وأسود حتّى قُرِع الجرس مُعلنًا حلول ساعة القراءة الإجبارية. أُعطيتُ كتابًا أزرق وطُلب منّي قراءة تعريف للمُدمن، ولكنّي فقدت الاهتمام من السّطر الرابع. لست مدمنة، أنا بينهم بالخطأ. انتهينا من القراءة وحان وقت الدواء، اصطففت مع الجميع وتناولت دوائي

بصمت. كُنتُ قد منّيت نفسي بجرعة أقلّ من المُعتاد ولكنّ ذلك لم يحدث. انسللت من زحمتهم ولُذتُ بسريري، وبرحمة إلهيّة غرقت سريعًا في نوم عميق، لولا أنّ كابوسًا مُريعًا حوّل الرحمة إلى نقمة فأيقظني مع تمام مُنتصف الليل جافّة الحلق مُبلّلة الجسد من فرط التعرّق. اتجهت إلى المطبخ بحْثًا عن جرعة ماء باردة، وبينما كُنتُ أسير بحذر اصطدمت بحافة الباب فكتمت ألمي وتابعت السير، وفجأة رأيت أمامي طيف أحدهم فتراجعت إلى الوراء، لم يكن وهمًا كان ثمّة شخص ينتحب سُرعان ما تبيّنت أنّه سميحة. تردّدت في الاقتراب من مقعدها الذي تجلس عليه خشية أن يكشف ذلك أمر نهوضي ويزيد من ملاحظات المعالجات بشأني ولكنّي في النهاية حسمت أمري وتقدّمت باتجاهها، وإذ لاحظت ما أصابها من ذعر ألجمها للحظات. نظرت إليها بمودّة مُحاولة الابتسام قدر استطاعتي:

- إنت كويّسه!

تجاهلت سؤالي واستمرت في البكاء، فتركتها برهة ثمّ عدت إليها حاملة كوب ماء أخذته منّي وهي تُواصل الصمت. وبينما كُنت أهمّ بتركها وشأنها نطقت:

- إنت عارفه إن النهاردة كان عيد ميلادو.

كم تمنيت لو أني لم ألتفت إليها، لم أكن أطيق قصص الحبّ ولكنّها استمرت:

- يعني فيها إيه لو سابوني أكلّمو النهاردة؟

طفقت تبكي وطفقت أبحث عن عبارة مُناسبة لمثل هذا الموقف،

راجعت كل رصيدي من الحوارات الإنسانية فلم تجد عليّ شفتاي إلّا بـ:

- معليه.

انسحبت بهدوء وقد أدّيت فرضًا أثقل كاهلي، وفي الآن ذاته أيقنتُ أنّي لن أجد في هذا المكان من يُخفّف عنّي حملي ولو قليلاً. الكل تعيس ويبحث عمّن يُخفّف عنه. حتى الماء البارد لم أشربه. وليلتها بالذات، بدا أنّ الوقت نفسه يريد أن ينام وأنا آبى ذلك.

الطاقة غير المسكوبة
في مكانها الصحيح تحزّ في نفسي مبكراً

مضت أيّام الأسبوع الأوّل ثقيلة، تكرار مملّ للجدول نفسه، كانت محاولة التعايش مع تلك الكائنات الهُلاميّة التي تحوم حولي مُنهِكةً، وكنت يقظة كـ «رادار» ألتقط كلّ ما يدور حولي، تنهداتهن، وزفراتهن، ونفثهن لسجائرهن، وخطواتهنّ... كم رغبت في خنق إحداهنّ، بغضتهنّ وبغضت تفاصيلهنّ. صرت أفتقد مجانين المصحّة كلّما قارنتهم بهنّ، بل هم فعلاً أرقى من عاشرت، هناك لا يُوجد تصنّع، فلا يُبدي أحد ودّك أو بغضك إلّا صادقًا.

سميحة غامضة وبغيضة، رغم محاولاتها المستميتة لإخفاء ذلك. ووفاء تعيسة لدرجة تحزنني ولا أستطيع إزاءها شيئًا. وفرح، كأنّ عينيها في قمة رأسها، تكاد لا ترى الآخرين. أمّا ياسمين فهي بالفعل ياسمين المكان ولكنّ هدوؤها مملّ. وحتّى مضاوي التي كثيرًا ما كانت تُضحكني تُزعجني ثرثرتها، ويستفزّني اقترابها منّي يومًا بعد آخر بائنة فيّ طباعها وتفكيرها المحدود.

نظرات المعالِجات لا تُحتمل، وكأنهنّ هنّ فقط من يعلمن ما حلّ بي مع أنّ الكُلّ يعلم ذلك إلّا أنا! يجُمن في المكان باستمرار ولا يترُكننا وشأننا ولو للحظة واحدة، مفرداتهنّ مُوحّدة وعباراتهنّ مستهلكة وفوق

كلّ ذلك كانت الجلسات العلاجية تدور في حلقة مُفرغة. تراكم بداخلي الاستياء فلم أجد من سبيل إلى تفريغه إلّا كيس الملاكمة المعلق عند الباب.

جلست مرّة مع عواطف منزويتين في أبعد مقعدين عن بقيّة البنات، كانت تُمسك بيدها ورقة وقلم وتحاول إقناعي بأنّي أعاني من مشكلة الإدمان، خاطّة خطّ حياتي مُشفعة ذلك برسم دوائر اجتماعيّة، وخانات، وتقييم، وبطبيعة الحال كان عماد الجلسة حزمة أسئلة من كلّ حدب وصوب.

- فكري يا منيرة، فكري قبل ما تتكلمي، حاولي تركزي عشان تفتكري..
- ما افتكرت شي.
- بُصّي يا منيره، الإدمان بيصاحبو إنكار شديد، يعني في عالم كتير مُدمنه ومش بتعرف، صدقيني كل بيت فيه مدمن.
- أنا في النّادر كنت آخذ حبوب.
- حتى لو كنتِ بتاخدي حبوب، حتى لو كنتِ بتقعدي شهرين تلاته أو خمسه ما بتاخديش حاجه مش معناه إنّك مش مدمنه.

قاطعتها وقد بلغ منّي الضيق مبلغًا:

- طيب أنا مدمنة.. في حاجة ثانية؟
- مش حضغط عليكِ أكتر من كدا، إيه رأيك في إخواتك؟

صمتُّ لوهلة أوشكت أن أرتكب حماقة بتقطيع دفترها وشتم كلّ من في المكان ولكنّي وجدت أنّ أسلم طريقة لانهاء هذه الجلسة الدّسمة هي أن أُسمعها ما تريد.

- الحمد لله.

- ايه الحمد لله، بسألك رأيك إيه؟

- كويس كله كويس.

اقتحم الدكتور حمدي خلوتنا وفي يده مجموعة من الأظرف الملفوفة بعناية، ثمّ نادى باقي الفتيات فبدأن بالتوافد، وحين اكتمل نصابهنّ وقف في المنتصف منتصب الهامة مُعلنًا بكل زهو:

- يوم الخميس فرح سوسن ودي بطاقات الدعوة، الكل معزوم، حتى منيره.

أجبته من آخر الردهة:

- أعتذر.

- اعتذارك مرفوض.

- ما أعرف سوسن.

- هي تعرفك، ومفيش نقاش، الكل رايح.

أثناء توزيعه الدعوات على الفتيات اقترب منّي وناولني بطاقتي وهو يبتسم باستفزاز، فأخذتها مرغمة ووضعتها بجانبي وقمت من مكاني، لكنّه استوقفني وأعادها إليّ، فأخذتها مرة أخرى وقمت برميها بعد ذلك في سلة المهملات الموجودة في غرفة نومي. لم يمض على التحاقي بسريري وقت طويل حتّى دخلت عليّ سميحة منتعشة وشرعت أبواب خزنتها، ثمّ توقفت فجأة وعاودت الخروج لتعود بعد بُرهة ومعها الدكتور حمدي وبمجرّد أن بلغا عتبة الباب لفتت نظره إلى سلة المهملات المركونة هناك فانحنى وانتشل البطاقة من السلة:

- تعالي هنا يا منيرة أنا ماأقدرش أدخل أُوَض البنات.

قمت متململة ووقفت أمامه.

- دي ثالت وآخر مرة أسلّمك البطاقة.

تناولتها منه وعدت أدراجي، أمّا هو فنادى جميلة وأملى عليها التعليمات بصوت أراده مُرتفعًا:

- حطي علامتين لمنيره على الحيطه وخصم خمس سجاير النهارده وبكرا كمان.

ثمّ غادر، وغادرت وراءه المُعالجة السخيفة بعد أن رمقتني بنظرة ذات مغزى، عكستُها على سميحه فتحاشت النظر إليّ وغادرت هي أيضًا على الفور.

تملّكني غضب عارم فرحت أحدّث نفسي كالمجانين: «حسنا يا سميحه، صدق حدسي عنكِ. وها قد بدأت أعلم مع من أتعامل، لا بأس..» وبينما أنا كذلك دخلت وفاء وجلست بجانبي على استحياء:

- سميحه دي سوسة ولا يهمك لو عُزتي سجاير من عينيّا، أصلي ما بدخنش بجدّ، بنفخ هوا بس، اهو بتسلّى.

عدّلت من جلستي وابتسمت لها:

- تسلمي يا وفاء.

- وبعدين لازم تشوفي أفراح مصر، صدقيني حتنبسطي.

فجأة دخلت مضاوي ثائرة كعاصفة:

- أنا اوريك في بنت الكلب سميحه.

لم تكد تُتمّ جملتها حتّى لحقت بها جميلة مُستفسرةً، وكأنّها قرينُها الذي لا فكاك منه:

- كُنتِ بتقولِي إيه يا مضاوي.

- ولا حاجه بسأل وفاء لو عندها شامبو؟

- وليه ما استأزنتيش؟

- نسيت.

- طب يلّه على اوضتك دلوقتي.

وقبل أن تغادر ومضاوي أمامها التفتت إلينا:

- وفاء ومنيره، فاضل على العشا ربع ساعه ما تتأخروش.

وضعت وفاء يديها على ركبتيها وهمّت بالوقوف بعناء:

- حقوم أشوف حلبس إيه عشان يوم الخميس، أنا ما صدقت اننا حنروح فرح.

تناولت كتاب السودكو محاولة الهروب من كل شيء إلى الأحجيات، كنت ما أزال غاضبة، وبعد هنيهة سمعت وقع حذاء ذي كعب عال، كانت وفاء بصدد التحرّك بين خزانتها والمرآة، وفجأة توقّفت وتصاعدت تنهّداتها وأخذت تنثر ما في الخزانة من ملابس بعصبيّة وكلّما أخرجت رداءً ازداد تبرّمها وكرّرت: «ليس هذا ما أريد»، نظرتُ إليها فإذا بها في ثيابها الداخليّة، ويبدو أنّ تفاجُئي بذلك ليس بأكبر من تفاجئها بمنظر جسدها الذي انعكس على المرآة لحظة أغلقت باب الخزانة.

تساقطت دموعها حرّى على جسدها المتهدّل فشعرت نحوها بأسى قطعته جميلة باقتحامها الغرفة:

- ايه دا؟ لا لا، البسي هدمه يا وفاء. ممكن تسيبينا لوحدنا من فضلك يا منيره.

غادرتُ ولكنّ عبارة وفاء أبت إلاّ أن تصلني:

- الناس بتخرگ تتفسح وأنا بخرگ اتخنق. معدش حد يقولي اخرگي معانا. أنا ماعنديش هدوم.

وقفت في الردهة برهة ثم دخلت الحمام لأستريح قليلاً، وبينما كنت أهمّ بغسل وجهي علّي أطفئ شيئًا من غضبي خطر لي سؤال: «أكانت تبكي قلّة ثيابها أم ترهّل جسدها؟» لم يُمهلني رنين جرس العشاء وقتًا للإجابة، ففتحت الباب وخرجت، وجدت وفاء تمسح دموعها بخشونة وقد ارتدت قميصًا وبنطالاً لا مجال للوفاق بينهما، فابتسمت لها واتجهنا إلى سفرة العشاء.

ونحن نتعشّى كُنّا أشبه بفرقة مسرحيّة يُؤدّي أفرادها أدوارًا مُجترّة: وفاء تأكل بشراهة انتقامًا من جسدها، فرح لامبالية كسائر عهدها، ياسمين لا تتحدّث إلّا من خلال ابتسامتها المنكسرة، مضاوي تحاول استفزاز سميحة، وسميحة تتحاشى النظرات وهي تبتسم ابتسامة المُنتصرين، وأنا...... ما عُدت أذكر.

بعض ما بي في مكانه الصحيح

وصلنا مقصدَنا تحت سيطرة تامة. كنت أسير بتباطؤ وملل محاولة تجنّب الجميع قدر استطاعتي، تناهى إلى سمعي وقع خطوات تقترب مني سُرعان ما علمت أنّها لجميلة فسألت الله أن يُلهمني الصبر، وسألت نفسي: «أوَلاَ تكون هذه المرأة من جنس الأشباح؟» وقبل أن أجيب أحاطتني بذراعها وألصقت شفتها في أذني مُفاقمةً قرفي:

- اسمعي يا حبيبتي لما المدير يسأل في عضو گديد، ترفعي إيدك وتقولي أنا منيرة مدمنه.

التفتّ إليها بعين غاضبة:

- مستحيل!!

-ماينفعش كده، فين التسليم والتفتح بقى؟

أسرعت الخطى مُبتعدةً عنها عبر ممرّ بدا لي أطول من سور الصين، لا سيّما وأنّه يكاد يكون مُظلمًا لولا خيوط الضوء المُتسرّبة بين فينة وأخرى من شقوق سقفه غير المُكتمل البناء. سرت بتهالك وجميلة تُواصل مُلاحقتي حتى وصلت إلى قاعة كبيرة حالُ سقفها من حال سقف الممرّ، وألوانها درجات كئيبة من البنيّ. ومع أنّ مراوحها كانت تعمل فإنّ نوافذها فُتحت على مصراعيها، رُبّما للتخفيف من حدّة

الضجيج بالداخل. تردّدت في الدخول إلاّ أنّ دَفعة من الخلف لم أعرف مصدرها حسمت تردّدي فدخلت مطأطِئة الرأس. في البداية أربكني العدد الهائل من البشر إلاّ أنّني بمرور الوقت استطعت مسح الجميع بعينيّ، ولقد كشف لي ذلك أن شباب مصر يتمتعون بقدر لا بأس به من الجاذبيّة، وبينما أنا غارقة في أفكاري أدركتني جميلة وجرّتني من مرفقي جرًّا. وهذه المرّة غيّرت السؤال: «لماذا لا تموت جميلة وتُريحنا؟».

بعد أن استقرّ الجميع كُلٌّ في مكانه، صدح في المكان صوت جهور:

- اهلا بيكوا ياگماعه في اگتماعات المدمنيين المگهولين، أنا احمد اسمحوا لي أدير اگتماع النهارده عشان أنا مبطل النهارده.

وعلى الفور دوّت أصوات كل من في القاعة كهدير رعد:

- أهلا بيك يا أحمد.

شعرت بشيء من التوجس ذلك أنّي لم استسغ الجماعات يومًا ولم يخطر لي قطّ أن أنتمي إلى إحداها. نقّلت نظري بين الحضور فبدوا لي أشبه بالقطيع. كلّما نظرت صوب أحدهم وجدته يجلس باحترام أو يُغمض عينيه على سبيل الانسجام.

واصل المدير سيطرته على القاعة بحديثه، كان أكبر ما فيه تفاحة آدم البارزة من حنجرته وكأن رقبته رقبة ثعبان ابتلع بيضة لتوه. ومثلما يُحرّك الثعبان رأسه رصدًا لفريسته حرّك هو عينيه مُستعرضًا الوجوه وقال:

- معانا أي عضو جديد النهارده؟

عمّ الصمت بُرهة طفى فيها صوت وشوشةِ جميلة في أذني وهي تدوس قدمي آمرة:

- ارفعي أي دك.

بعد ترددٍ وتبادلِ نظرات عدائيّة معها رفعت يدي وقلت: أنا.

كاد قولي يجلطها فراحت تُكرّر بصوت اعتقدت أنه خافت:

- مُدمنه، قولي مدمنه.

رمقتها بنظرة أظهرت ما في روحي من اشمئزاز وقلت بعناد:

- أنا منيرة.

ومرّة أخرى غلّف الصمت القاعة والكلّ في انتظار الكلمة التي لم تُنطق وإذ يئسوا منّي دوّى صوتهم من جديد:

- أهلاً بيك يا منيره..

آه يا أبي لا أعلم أيّ ردّة فعل كُنت ستُبدي لو أنّك هنا وشاهدتَ ابنتك توشك أن تقول «أنا مُدمنَه»، بل قل توشك أن تتبرأ من اسمك.

وقف رجل في الأربعينيّات ذو بذلة كاملة بربطة عنق جعلته أشبه ما يكون بموظف استقبال في فندق، وشرع يتحدّث:

- أنا عمرو، وأنا مدمن. الواحد من غير البرنامگ دا والزمالة مايقدرش يعيش، اليوم كان صعب من أوله، وأنا رايح الشغل الصبح بالعربية، گا واحد وقطع عَليّ السكة، قلت أنزل أهزّقو وكانت حتبقى خناقه للسماء، بس افتكرت عگزي، والحياة ليها شروطها بقى. أنا في الخطوة التالتة وبقيت أعمل دُوري وأسيب الباقي على ربنا، أنا ممتن ليكو ياجماعة والحمد لله إنّي موگود ومبطل.

بمجرد أن سكت عمرو شكره المُستمعون ووجّهوا أنظارهم إلى غيره:

- أنا حسام وأنا مدمن. وأنا ياگماعه تعبان أوي من الخطوة التامنه خطوة التعويضات، مُشرفي مصمم إنّو أنا أبدأ أعوّض وأنا مش قادر، إزاي أروح لخالتي وأعترف لها بإنّي أنا اللي سرقت فلوس عمليّة القلب المفتوح اللي كان المفروض تعملها، ازاي أروح للكنيسة وأقولهم أنا كنت بسرق تبرعات يوم الحد، صعبة عليا جدًّا، وفوق كِدَه أنا لو اشتغلت طول عمري مش حقدر على التعويضات المادية لكلّ الناس اللى أنا لهفت منهم، ادعوا لي ربنا يدّيني الشجاعة والأمانه والقوة.. وشكرًا ليكو.

توالت المشاركات من أعضاء آخرين دون أن أُلقِي لها بالاً إلى أن قامت سميحه برفع يدها بدلال وقالت:

- للأمانه، هي الأمانه اللي بتغيّرني، تلات شهور تبطيل وحاسّه إني بقيت وحدة تانيه، حاسّه إنّي بكبر، مكنتش أعرف أعمل حاگه في حياتي من غير مخدّرات، أتكلم بيها واخرگ بيها، مش عارفه إزاي كنت عايشة من غير مبادىء البرنامج. أنا سعيدة إني موگوده هنا ومبطله.

راحت مضاوي ووفاء تنظران لسميحه باستهزاء وتعجّب، ثمّ أعلن المدير انتهاء الاجتماع فوقف الجميع ووقفت معهم، ولم يلبثوا أن شكّلوا دائرة وشابكوا أيديهم مُردّدين بصوت واحد:

- اللّهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها

والشجاعه لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها والحكمة لمعرفة الفرق بينهما..

عمّت المكان أصوات تحريك المقاعد وتبادل الحضور التحايا ولم تمض لحظات إلاّ وعواطف أمامنا وجميلة وراءنا تسوقاننا إلى الأسفل. وطبعًا لم تُطق جميلة صبرًا حتى وصولنا فاقتربت مني وقالت:

- أوّل ما ننزل تشوفي أي بت تشاركيها، أولاد لا، مفهوم؟..

تجاهلتها ورحت أُملّي النظر في جموع الواقفين أمام البوابة وكلّ منهم يتحدث مع من اختاره لمُشاركته الحديث، الذكور مع الذكور والإناث مع الإناث، ولأنّ جميلة لا تعرف الكلل عاودت الاقتراب منّي ولكن هذه المرّة برفقة سيدة ترتدي حجابًا ونظارة طبيّة ذات إطار سميك صافحتني بودّ شديد مُعرّفة بنفسها:

- أنا كامليه، إنت منيره صح.

حاولت الابتسام فلم أستطع بينما تابعت هي:

- بقى لك قد إيه مبطله؟

- مدري.

- معليش كلنا في البداية كنا كدا، تعرفي تمسلي.

- هه.

- لا بجد «فيكت تل يو ميكت»، ربّنا معاكِ.

ثمّ حضنتني وابتعدت.

عدنا للمنزل وتناولنا العشاء ثم قمنا بالنشاط الأخير المُتبقّي،

أخبرتنا عواطف بأنّنا سنغادر لفرح سوسن في الثامنة من مساء الغد، ذهبنا إلى غرفنا لننام لا لأن النعاس هدهدنا بل لأنّ موعد النوم قد حان، اندسست في فراشي ورحت أفكّر في مسألة النّوم بالإجبار، فالنوم في نظري من أصعب الأشياء حضورًا، لا يأتي إلّا كملك مُتوّج بعد أن تكون أنت قد انتهيت من إخماد كل الأسئلة بالإجابة عنها وعالجت جميع الندبات الروحية لتصل في النهاية إلى سطح اللاّوعي فتثقبه وتغيب داخله قليلاً.

Moon walk

أفقت على خطى ثقيلة تقترب من غرفتي. تساءلت عمّن تُراه يكون القادم إلى الغرفة بتلك الطريقة الفجة. ولئن لم أستطع أن أرى جيّدًا فإنّ الأنف المعقوف والعينين المتباعدتين، واللحاف ذا الألوان المُتنافرة أنبأتني بأنّها جميلة حتّى قبل أن يُلعلع صوتُها في المكان:

- مُنيره.. يا مُنييره.. يلا يا حبيبتشي قومي، إنت بتتأخّري كل يوم!

لملمت نفسي وحاولت النهوض ولسان حالي يقول: «دعيني أفتح عيني أولاً أيّتها البلهاء، مالذي فعلتموه بي؟».

- هاتي إيدك، يلا قومي، إنت بتنتفضي كد ليه؟ معليش، دلوأتي تفطري وتبقي كويّسه.

سرت مترنحة إلى الحمام وطرقت الباب، لكنّ إحداهن كانت بالداخل. أسندت رأسي على الجدار منتظرة، استرجعت ماحدث بالأمس، فبدت لي الأحداث ضبابيّةً ثمّ تذكّرت الضوضاء التي تسببت بها في الحفل، وكان آخر ما علق بذهني مكالمة جميلة للدكتور:

- ألو، أيوَه يا دُوكتُر منيره مهيْبَرَه آخر حاگه، آه حقنه، أنا شايفة كدا برضو.

خرجت ياسمين من الحمام، وشعرها مبلّل وحين رأتني كتمت ضحكتها وسارت. في ما هممت بالدخول يلاحقني صوت جميلة:

- ما تتأخريش لحسن تاخدي علامه ومفيش سگاير النهارده.

أحسست بأنّي في أكثر دور الراحة إزعاجًا، كلما اصطدمت عيناي بالمرآة غضضت بصري على الفور، ربما خجلاً من نفسي، وجهي ممسوح بأسى ظاهر وعيني مرتاعة شديدة الحمرة ورأسي بدأ يغزوه الشيب، لمحت كلّ ذلك في ومضة لم أعلم بعدها هل القطرة التي سالت من عيني دمع أم حساسيّة من تلوّث المكان، قلّبت نظري في فرش الأسنان المتلاصقة مُتسائلة: «ما هو لون فرشاتي؟ ما لونها؟.. نعم أخضر..» كان صوت جميلة ما يزال يُلعلع: «يا بنااات! مَتْ يلاّ».

حاولت الإسراع قدر الإمكان تجنُبًا لعقوبة خصم السجائر التي لا قبل لي بها، سرتُ نحو الصالة بتكاسل، نظرت إلى البنات وتنهّدت، أمّا هنّ فكنّ يتبادلن الابتسام وبظهوري تحولت الابتسامات إلى ضحك.

كانت وفاء أوّل من تحدّث:

- إنت كنت تحفه امبارح يا منيره، مش ممكن، أنا كنت حفطّس على روحي من الضحك..

ثم تلتها فرح وهي تنفخ الدخان:

- ما كنش باين إنّو دمك خفيف قد كدا..

- يلا «المتيتيشن» يابنات.

صرخت جميلة فاتّجهنا إلى الخارج، وبينما كنت أتلقّى صفعة نور النهار قالت لي:

- ممكن تقرئي التأمل يا منيره!

أجبت سؤالها بسؤال حتّى دون أن أنظر إليها:

- ممكن أقوم أجيب قهوه.

ردّت بتبرّم:

- طيب يا منيره وماتنسيش إنّو اليوم استثنائي عشان حقنة امبارح.

دخلت المطبخ ووجدت بطه فسارعت بسؤالي:

- عاوزه حاگه يا عنيا؟

- شكرًا.

شرعت أحضر القهوة، ثمّ فجأة التفتُّ نحو بطه وسألتها:

- بطه ينفع تغسليلي هدومي؟

تركت ما بيدها وأجابت:

- بصي يا حبيبتي هو ممنوع بس من عِينيّ، نهاية كل اسبوع حاخد منك الغسيل.

وإذ أجبتها بأنني سأمنحها من مصروفي في نهاية الأسبوع شدّدت عليّ ألا أُخبر أحدًا مُؤكّدة أنها تقوم بذلك من أجلي:

- لأنو إنتِ لازم تبقي هنا في الوقت دا، أنا شايفه كل حاجه، كلو باين في عينيكِ.

بعد أن شكرتها بريبة أخذت قهوتي وسرت إلى الصالة، جلست مُنكفئة على نفسي في أبعد زاوية، تمنّيت لو أن الجدار يبتلعني لأستريح قليلاً، اقتربت منّي مضاوي وعلى وجهها ابتسامة عريضة سُرعان ما

تحولت إلى قهقهة، وبيدها قرطاس حلوى ما انفكّت خشخشته تنخر رأسي:

- هذا وإنتِ ما كنتِ تبين تروحين وسويتِ مشكلة على البطاقة!

ثمّ راحت تضحك ومدت لي قطعة من الحلوى، وإذ أشرت إليها بيدي أني لا أريدها ردّتها وجلست بجانبي:

- صراحه يا منيرة أول ما شفتك، كان ودي أعطيك كف على وجهك.

نظرت إليها باستغراب فيما استمرت بالكلام:

- لا حبيبتي موب قصدي، بس الكآبة اللي فيك ما كانت طبيعية، لكن عقب أمس، في عرس سوسن واللي عملتيه برّد قلبي..

واصلتْ القهقهة وهي تروي لي ما كنت أجهل من أمور يُفترض أنّي من قام بها:

- اشوا تخيلي لو كان في سعودي واحد ياويلي، كان رحنا فيها أما زحفتي زحفة مايكل جاكسون فوق المسرح وبأعلى صوتك رحت تقولين «مايكل ما مات» وش مسكها معك..

هممت بقول شيء ولكنّ عينيّ وقعت على جميلة وهي تتسلل بهدوء لتتنصّت علينا فارتبكتُ، أمّا هي فلم تتورّع عن سؤالنا:

- بتتودودو في إيه! إبعدي عنها يا مضاوي.

تجاوبها مضاوي وهي تمضغ:

- لا حوول، يعني وشو ما اتكلّم معها، يختي اعتبروها وطنية.

كثيرًا ما رفّهت مضاوي عنّي، لقد بدأت تصل إلى مهجتي، خصوصًا عندما تتحدث بلهجة مصرية مشوبة بلكنة خليجيّة في مزيج لغويّ مضحك. لطالما اعتبرتُ اللهجة المصرية معبّرة، ربما ضيق الأفق هو ما أكسبهم هذه الفصاحة.

اتجهنا لتناول الأدوية وبينما أنا وقفة أنتظر دوري، اقتربت مني عواطف والهاتف في يدها، وأخبرتني بأن والدتي تريد التحدث معي، انتزعت الهاتف نزعا من يدها وقلت بلهفة:

- ألو.
- وحشتوني.
- بخير وعافيه.
- وين نوره؟
- سلميلي عليهم كلهم.

بكل إحباط أعدت الهاتف لعواطف وعدت لأقف حيث كنت علّ الأرض تبتلعني. كلّ العبارات التي قيلت كنت أنا من قالها أمّا أمّي فقد منعها بكاؤها من أن تقول شيئًا. لاأذكر من ذلك اليوم الحقير سوى مكالمة أمي التي لازمتني وحفّزت غددي وعضلاتي وأوعيتي الدموية وأنسجتي شوقا وندمًا، قبل أن يغلبني النوم ويرحل بي إلى أماكن قديمة لن يلبث الصحو أن يُعيدني منها قاذفًا إيّاي في اللجة من جديد...

أتمنى لو أني كنت أرتدي قميصا ورديا

إنّ الغزو الفكري لمن أقسى العقوبات حتّى أنّ الأعراض الجسدية تعدُّ نعيمًا مقارنة بما يحدثُ الآن. أتأرجح، تنخرُ الأفكار رأسي من كل جهة مترابطة وملتحمة تارة، وهوجاء تتعارك وتتوالد وتنتشر في كل خلية تارة أخرى.. لقد دمّر الألمُ الكثير من الخلايا..

أنهضُ وأستعدّ للاستحمام. أحاول نفض ما ألمّ بي. تدخل جميله:

- يلا الاكتماع اتقدم النهارده وحيكون في الكنينة..

تركت ما أحمله في يدي وسرت خلفها. جلس بينهن راجية من الله ألاّ تحدّثني إحداهن، غبت عنهنّ بمخيلتي وعدت لأجد الساعة لم تتحرك غير بضع ثوان. تسري نبرات أصواتهن في عروقي وتسبب لي لوعة حفظتها عن ظهر قلب. لا جديد ولا تسلية تُرجى منهنّ. أشحتُ ببصري عنهم في اتجاه النوافذ المفتوحة في المباني حولنا. رحت أفكّر فيمن يقطن بها. يا ترى من يسكن هذه الشقة؟ إنّ غرفة نومه كئيبة. هل هو راض عن دولابه؟ هل يستخدم يده اليسرى أم اليمنى عند فتح الباب؟ لو فكّر أن يغيّر لون الطّلاء لقضى بها وقت أطول. لا أومن بأن الحاجة تستدعي الذوق الرخيص. صورة الرجل المعلّقة على الجدار تستوجبُ الاحترام، نظرته عميقة وشموخه يكادُ ينطق. ما أرقاه. لقد

زاده الشيب وقارًا وهيبة. أكتافه مرفوعة وكأن الزمن لم يستطع حنيها. كم أتمنى لو أقابله وأنهل منه. لماذا تشدني هذه الصورة؟ لا يعقل أن أكونُ أعرفه؟ نعم إني أعرف هذا الرجل، إنه أبي!

ماذا تفعلُ صورة أبي هنالك؟ لماذا يرتسمُ هذا الخط الأسود على طرف الصورة؟؟ هل مات أبي؟!!! لمَ لمْ يخبرني أحد؟ ألهج وأشهق بالبكاء.

- منيره مالك في إيه!!

تنهض مضاوي على الفور وتمسك بي، أبتعد عنها، أقوم فوراً من مكاني وأصرخ فيهنّ:

- ليه محد قالي؟؟؟

تقتربُ جميلة وتلتف حولي كثعبان:

- إيه في إيه!!!

أسحب يدي بصعوبة من أطرافها وأشير إلى الصورة المعلقة:

- يا أبوي.

تتدخل فرح وقد عرفت إلى ماذا أشرت:

- صورة مين مالك.

بعد أن تتمعّن في الصورة، تعلن بثقة أنّها حلت المعضلة:

- لا لا دا مش باباكي، بصّي كويس

حضرت عواطف فقطعت عليها جميلة طريق الوصول إليّ قائلة:

- منيرة بتعيّط على الصورة اللي في بيت گارنا فكراه باباها

- اتصلي بالدكتور فتحي بسرعه.

أدخلوني الغرفة فاقدة الوعي وغير قادرة على منعِ دموعي، فوقع الصدمة عليّ كان كبيرًا حتى وإن لم يكن أبي هو من في الصورة... ماذا لو حدث له شيء؟ لماذا لا يكتفي من إعلان العداء لي؟ ألا تكفيه صفعات واقعي ليخلق لي أوهامًا جديدة؟

وقع الاتصال بالصيدلية وحضر المُمرّض من هنالك. أسمع صوت جميلة تطلب من الممرّض المراهق القادم أن يجهّز الحقنة. ثمّ يعلو صوتها ويُوجّه نحوي:

- حتخدي الحقنه وتبقى كويسه.

أطالعها برفض ولكنّها تستمر:

- دي تعليمات الدكتور، متخفيش، وصدقيني حتهدّيكي.

كان لكلمة «حتهديك» وقع السحر في نفسي ذلك أنني كنت بحاجة إلى جرعة هدوء.. مددت يدي بكل انصياع إلى الممرّض ليحقنها.. كرهتُ لحظة الضعف تلك التي عرّتني وجلبت لي الشفقة المقيتة. استسلمت للحقنة اللعينة، تلك التي تشل العقل تمامًا وتأخذ المرء إلى منطقة خارج الزمن لا تطالها أيدي ولا تصلها كلمات ولا يمكن اختراقها..

هذا حقلي وهذا افضل ما لدي

أعودُ إلى أرض الواقع مرّة أخرى. ومع كل عودة يتجدّدُ إحباطي، وأعيدُ استيعاب ما يحدثُ حولي. الجديدُ في الأمر هو أنّي مُنحتُ أوّل إجازة ولكن لمدّة ساعتين فقط. تناقشنا أنا والدكتور حمدي بخصوصها وإذ سألني فيمَ سأقضيها أجبت:

- في الشارع.

رد وهو يضحك:

- الشارع!
- ودي اتفرج، وودي اكل ماكدونالدز.
- طيب يا ستي روحي إنت وصفاء لماكدونالدز ولفوا في الشارع، بس أي خمس دقايق تأخير بحرمان ساعه من الأگازه الأسبوع الگي.

غادرت أنا وصفاء سيراً. لم أرغب في ركوب تاكسي. شعرت بموجات مكثفة من الحرية، مثل سجينة أُطلق صراحها. لأوّل مرة منذ وصولي إلى القاهرة، أشعر بنوع من الغبطة. تنفست الهواء بعمق، قضيت وقتا وأنا أنظر إلى النّاس حولي وأحدّقُ فيهم. حينئذ أدركتُ

أني أصبحت خبيرة في رؤية الأموات الأحياء.. أعلم ذلك الآن من إحساسي بتوقّفِ الحياة فيّ منذُ زمن.

كانت الرغبة بالهروب تلازمني. تسير ملتصقة بي. تمسك إحدى يديّ وتمسك صفاء باليد الأخرى وكأنها تراها. واصلنا السّير داخل الشّارع المزدحم والمتفرّع إلى أن بلغنا ماكدونالدز. أحسست أني سآكل طعاما من الوطن رغم أنّه طعام أمريكي. وبينما كنّا نتناول الطعام، نظرت إلي صفاء مبتسمة، وهي تمسح عن فمها آثار الطعام:

- كنت بتشتغلي إيه يا منيره؟
- في بنك.
- جميل، وإيه اللي خلاكِ تدمني؟

أجبت بعد تنهيدة طويلة:

- ممكن ما نتكلّم في الموضوع.
- ولا يهمك مش حنكّد عليك فسحتك، هو إنتِ ليه مش متحگبه؟
- ربنا غفور رحيم.
- آه بس دا فرض.
- بس مش ركن.
- أنا بقى لي تمن سنين مبطّلة، إنت عارفة أني خسرت ابني بسبب المخدرات، كنت بضرب وأنا حامل واتولد ابني اللي مفرحتش بيه مدمن، ومقدرش يستحمل اكتر من أسبوع، لازمني وقت طويل لغاية ما أقبل اللي حصل.

يقطع حديثنا رنين هاتفها:

- ألو، طيب يا دكتور، دوغري، حنروح.. مع السلامه، يلا يا منيره عشان الدكتور فتحي عاوز يشوفك.

أوقفنا تاكسي وذهبنا إلى المصحة. عندما ترجّلنا من السيارة بدا لنا المساءُ هناك مختلفًا. وكأنّه مستاء. وقفت عند بوابة المصحة وداهمتني أحاسيس مؤلمة. اشتعلت ذاكرتي. مسحت على وجهي وسرت. كم تمنيت لو صادفتُ عبير في طريقي فقد اشتقت إليها. كان الدكتور فتحي يقف عند باب العيادة. رحب بي وضرب على كتفي. جلست أمامه.

- ازيّك؟
- الحمد لله.
- لا ازيّك بگد؟

نظرت إليه وبالفعل فكرت في حالي ولكني كررت بحزم:

- الحمد لله.
- منيره، إنت بتشوفي أو تسمعي حاجات؟
- كلنا نشوف ونسمع يادكتور.
- ايه اللي خلاك تفتكري إنّ الراجل اللي في الصوره والدك؟
- يمكن تعب مش أكثر.
- إنتِ شايفه إنّو اللي حصل طبيعي؟
- من جيت هنا ولا شي طبيعي.
- عموما حيگي الوقت اللي تتكلمي فيه.

قام بسحب وصفة طبية وشرع يدوّنُ فوقها. لم أسأله عن شيء. اتجهنا إلى الخارج. هنالك، كانت صفاء تقفُ مثل جنديّ. ناولها الوصفة وسألها:

- إنتوا معاكم سيارة؟

- لا يا دكتور.

- خلاص أنا حوصلكم.

سرنا وراءه. ثمّة سيّارة، وبها سائقها، تنتظر في الخارج. ركب في المقعد الأماميّ بينما جلسنا، أنا وصفاء، في الخلف، ومن ثمّة أخبرنا، وهو يشدّ حزام المقعد، أنه لا يستطيعُ قيادة سيارته في شوارع القاهرة المزدحمة. ثمّ أدار مفتاح المذياع فصدحت أغنيه قارئة الفنجان:

- جلست والخوف بعينيها تتأمل فنگاني المقلوب، قالت يا ولدي لا تحزن..

عند سماعي الأغنية، حزنت جدًّا. انتهى الطريق سريعًا. وبدخولنا، سألتُ عواطف إن كانت أختي قد اتصلت. أجابت أنّ خطة العلاج تتطلّب أن تبتعد إحدانا عن الأخرى لفترة ما. إنّ كل شيء في عالمي الجديد هذا يبدو غير مقبول وموجع. أصبح المنزل فارغًا إلّا من مضاوي ووفاء أمّا البقيّة فقد غادروا لقضاء الإجازة مع ذويهم. بدلت ثيابي وأحضرت قارورة ماء وعلبة سجائري وجلست قرب مضاوي ووفاء وقد كنّ يتبادلن الحديث.

- أنا أوّل ما شفتها ما ارتحت لها.

- أنا كمان، شفت منها كتير.

بعد أن استدارت مضاوي بكامل جسدها نحوي، سألتني:

- وش ناويه تسوين فيها؟

- من هي؟

- مين يعني؟ سميحه.
- ما عاد يفرق معي شي.
- صراحه مدري عنك إنتِ! يختي صحصحي شوي!
- أنا اللي ودي اصفقها جميلة.

تنبهت وفاء:

- ايه اصفقها دي.

أدرت رأسي نحوها:

- يعني اكفخها.
- أنا فهمت الأولى عشان افهم التانيه.

تدخلت مضاوي:

- يعني تديها علقه على دماغها، أنا صار لي هنا اربع شهور المفروض أني في المرحله الرابعة، بس من كثر مشاكلي معها للحين في المرحله الثانيه وعلى كثر ما مثلت قدامهم للحين في الخطوة الأولى، ناويه اغير مشرفتي، إنت ما خذتي مشرفه للحين؟
- محد قالي.

تحدثت وفاء بعد أن شربت من قارورتي:

- عشانك عنديه، لما تفكي شويه حتاخدي مشرفه.

أردفت مضاوي:

- يووه بيغثونك بالمبادىء هم سبعه، عجز وتسليم وتقبل وأمانه، وتفتح ذهني، وش بعد يا ربي، إيه تواضع.. المهم أنا حافظه

قطعت حديثنا عواطف، وكانت تحملُ قدح شاي، قبل أن تقوم برفع شعرها الطويل المتهالك وهي تضعُ الكوب على الطاولة:

- بتتودو في إيه، عاوزين تطلبوا إيه للعشاء؟

لا أنكر أني بدأت أستلطف وفاء ومضاوي، خصوصا بعد موقف سميحه وتفاعلهما معي الذي كفاني ردة فعل مني. في العالم الخارجي، يكاد ينعدم هذا التفاعل أو لعلّي أنا من كنت لا أتخذ موقفا من الأساس. لا أعلم. ما أعرفه أنّ الحياة الحديثة قتلت كل هذه النخوة أينَ أصبح كل حدث يقع، يُفسّر بطريقة هندسية حسب المواقع الاجتماعية، وتقسيم الأدوار بموضوعية، وجدولة الأحاسيس ببرود، تحت مسميات الحرية الشخصية.

بعد تناول العشاء، جلست إليهنّ ما تبقى من الوقت، استمع إلى قصصهنّ المسلية، وقد شاركتنا الحديث كلّ من عواطف وصفاء أيضاً. لم أجد أخفّ من دم المصري. لا يمكن أن تقضي نصف ساعة مع أحدهم دون أن يلقي نكته ذكية ومباغتة. مع السّاعة الواحدة صباحًا، اتجهت إلى سريري الذي وقع نقله إلى الطابق الأرضي، وهنالك وجدت فوق السرير المجاور هاتف نقال. لم أقاوم رغبتي في استخدامه. انتشلته وهاتفتُ نوره، لكنها لسوء حظّي لم تجب. فجأة، دخلت عواطف ورأتني، القت علي نظرة حادة بطرف عينها، وأخذت الهاتف الذي كان يرنّ فأجابت المتصل:

- أيوا مين، ازيك يا نوره. مونيره بخير، ممنوع يا حبيبتي، والله ما

ينفع، حبقى أتفاهم مع الدكتور ونشوف، ما تخافيش هي كويسه وصحتها زي الفل.

ما أن أنهت المكالمة حتى اتجهت نحوي وهي تقول بلهجة غاضبة، إنّها لن تدع هذه الحادثة تمرّ. وعلى الفور، اتصلت بالدكتور حمدي، الذي اتصل بي بدوره وأنبني، بسبب عدم أمانتي وتجاهلي للعواقب. قاطعته قائلة:

- من الآخر العقاب إيه؟

- تنظفي الحمامات في المكان لمده اسبوع كامل.

أقفل الخط. نظرت عواطف إليّ راغبة في إكمال محاضرتها، لكنّي كنتُ قد سحبت الغطاء فوقي، لاعنة إيّاهم في سرّي، الواحد تلو الآخر. إنّ شوقي لصوت نورة كان هائلا...أيّ فائدة من علاج يحرمنا من الحديث إلى من نحبّ. إنّ من أشدّ أنواع الوجع، أن تكون في فراشك، وبك شوقٌ إلى شخص لا تعلم مكانه وما الذي يفعله الأن!

.. دعوت لها كثيرا واستسلمت إلى الشعور المؤلم حتّى غلبني النوم.

أخطأت وتعمدت ألّا أنبّهني

قبل أن يخفت ألمي الكبير، ذلك الذي سيطر على جذعي نتيجة تنفيذي لعقوبة تنظيف الحمامات، علمت أن والدتي قادمة في الغد لزيارتي. فاجأني الخبرُ. بل أنّ ما فاجأني أكثر هو تلك الأحاسيس التي انتابتني، بعد جفائها الطّويل. كنتُ مثل ورقة بيضاء كتبت عليها أحرفُ قدري بحبر سريّ، وها هي تظهر الآن وتعيدني إلى واقع طالما هربتُ منه. ما الذي يتعيّن عليّ أن أفعله أو أقوله؟ كل هؤلاء المستشارين ثرثارون، يطبقون قاعدة واحدة تسري على الجميع. إنّهم لا يعلمون أن الاستثناءات أكثر من القواعدِ. لكم أتمنى لطم أفواههم التي لا تتوقف عن الثرثرة. كنتُ قد حفظت طرائقهم عن ظهر قلب: محاور علاجهم أسئلتهم عن أمنياتي، واستياءاتي وأسراري.. ما الذي استفدته منهم حتى هذه اللحظة؟

ماذا سأرتدي؟ هل أخبر والدتي عمّا أقاسيه هنا أو أطمئنها؟ سيكون من الأفضل لو طمأنتها. يكفيها ما سبّبته لها. لم أكن أعلم سابقًا أن الإحساس بالذنب أشدّ قسوة من أي أحاسيس أخرى، بما فيها الندم.

تقبل جميلة متسكعة وكأنها تسير أمام كاميرات:

- الدكتور عاوزك.

أطرق الباب وأدخل:

- أزيك يا مونيره؟

- الحمدلله.

- أنا قلقان من زيارة مامتك بكره، وانتي عامله كدا،عاوزين نرتب الموضوع.

- إن شاء الله خير، أنا فكرت.

يقاطعني قائلاً:

- ما تمشيش بدماغك، احنا دورنا هنا إيه ولا نسيتي دماغك خدتك لفين.

أرمقه بنظرة، سلاحي الوحيد.

- أنا حطمنهم لما يجوا.

- تطمنيهم على إيه، إنت شايفه شكلك عامل ازاي، لا علامات گايه نتيجه معاكي ولا أي حاگه.

- ماعليك أنا حتصرف، بس ابيك تنادي كل المعالجات

- ممكن اعرف ليه؟

- خير أن شاالله، لوسمحت عشان ما اتوتر وتعدي الزيارة على خير.

- لازم اعرف الأول!

- أحتاج أنبه عليهم في موضوع الأسرار.

- احنا عرفنا حاگه اصلاً، مش فاهمك يا مونيره.

لن تفهم ماذا يعني مفهوم الخصوصية في يوم واحد. نعم، فبالنسبة

إلينا، نحن أبناء الجزيرة العربية، يعدُّ إفشاء الأسرار لعنة تلاحقُ من يفعلها إلى الأبد. لعنة تحدد مسارك وتلطخ سيرتك، لعنة لا تمحيها المغفرة.

نادى بأعلى صوته:

- گميله، عواطف وصفاء تعالوا المكتب.

بعد أن حضرن، نظر إليهنّ بملل وقال:

- مونيره عااوزه تتكلم معاكم في موضوع.

أنظر إليهنّ بحدة وجدية:

- الوالدة جايه زياره بكره، لو أي احد حكى لأمي كلمه عني تأكدوا حتخسروني للأبد الموضوع عندي مافيه تساهل التحذير جدي للغايه.

يردّ الدكتور حمدي بامتعاض:

- ايه لعب العيال دا يا مونيره، إيه تخسروني والكلام الفاضي دا!!

تنطق جميله:

- احنا نعرف إيه بقى، ما هو كلو باين.

اوجه كلامي إليها بخشونة:

- ايه كلو باين وش قصدك! كلمه وحده لأمي عني وعن الأدمان ما حيصير خير. أنا اتكلم جد.

يقف الدكتور حمدي: تهديد دا ولا إيه يا مونيره!

- افهموا زي ما انتوا عاوزين، الموضوع مافيه لعب عندي، أنا

اعرف أنكم تحكون كل شي للأهل.

- إيه الاتهامات دي بقى، خلاااص مش عاوز كلام تاني اتفضلوا يا بنات شكرا، وانتي يا منيره كمان.

كعادتي، تركت مكتبه حانقة. دخلت إلى الحمام، ذلك المكان الوحيد الذي يمكنني أن أنفرد فيه مع نفسي. وقفت أمام المرآة، تروّعني هذه الدهشة اللحظية كلما اكتشفت تفاصيل غابت أو حضرت بفعل الصدفة أو بفعل فاعل. لا أعلم كيف أغيّر هذه المرأة المنعكسة أمامي في المرآة. كيف أستطيع أن أنفض كل ما رأيت خلال هذا الوقت عن ملامحي؟ يا لبؤس منظري! كيف سأقابل أمي هكذا؟ أمسكت فرشاة الأسنان ونظفت أسناني بكلّ ما أوتيت من قوّة. توقفت عندما رأيت الدم على فرشاتي. قذفتها. حاولت تصفيف شعري، شعري الذي لا ينفكّ الشيب يغزوه. في الأثناء، انتبهت إلى أثر الجرح في يدي. بدا كوشم بدائي أو كرسومات عهود ما قبل التاريخ، بلا نمط وغامضٌ. هذا الوسمُ الذي زلزلت به أركان عائلتي، لن يُمحى من تاريخي أبداً. كم أمقت معصمي الذي لم يعصمني من نفسي العاصية. كيف حدث كل هذا ولماذا؟

وكالمعتاد، بدأ الطرق على الباب. غسلت وجهي مرة أخرى وفتحت الباب ثمّ دخلت غرفتي. أمسكت بقنينة عطر ورششتها علّي حتى سالت الدموع من عيني. عند الباب وقفت مضاوي:

- الحمدلله والشكر! وش فيك؟
- مدري قرفانه من نفسي.
- لا ياحبيبتي المكان اللي يقرف ولا أنت ما فيك إلّا الخير.

أكملت وهي تغالب ضحكتها:

- بس صراحة شعرك المشكلة، كنك وش اسمه ذا، اللي ابلشونا بصورة يا ربي وش اسمه أي أينشتاين.

شاركتها الضحك. عندما مرّت ياسمين من أمامنا استوقفتها مضاوي:

- مش شعرها زي شعر أينشتاين؟

- حرام عليك يا مضاوي، هم حبتين شعر أبيض بس، إيه رأيك أصبغ لك شعرك يا منيرة؟

أجيب متفاجئة:

- طيب.

- ممتاز أنا حروح استأزن من عواطف واگيلك.

عادت ياسمين وخلفها جميلة التي لا تترك موقف يمر من دون أن تتدخل فيه:

- ايوا الترتيب ما نؤلش عليه لا، بس لازم ترگعي لياسمين الصبغه.

قاطعتها ياسمين غير مبالية بتوسطها المسافة بيننا، تجاوزتها وكأنها شبح وقالت لي:

- ممكن تستنيني في الحمام، شويه واگيلك، آه وگيبي كرسي.

وهكذا بعد خمس دقائق كنت أجلس فوق مقعد أحضرته مضاوي قبل أن تغادر بعدما أجبرتها جميله على ذلك. أتت ياسمين وبيدها

أدوات الصبغة وبدأت تعمل. كنت أشعر ببعض حياء، ذلك أنني لا أحبّذ اللّطف الزائد وأعدّه حملا ثقيلا. وكأن لطف سميحه معي نقل العدوى إلى ياسمين. ولا بدّ أن هذه العدوى ستصيبُ شخصا آخر. الحياة ماهي إلّا معايير غير متوازنة وخلاصات مختلة، ليتني أستطيع أن أتسلق قاعي ولو قليلا. من يقدرُ أن يتسلق بئر أجوف كصدري، فحتى الحبال التي تُلقى فيه حبال مهترئة قصيرة، كقيام هذه الفتاة الآن بصبغ شعري. يقطع حبل أفكاري صوتها الموسيقي:

- خايفه؟

- يعني.

- المفروض تبقي فرحانه؟

- ليه.

- مامتك گايه!

- اي صح .

- انتي عارفه أنا باقى لي اكتر من سنه ما شفتش امي.

- اسفه.

صمتت شاعرة بغصة. يا لي من دنيئة، كدناءة قاعي. كان من المفروض أن أسألها لماذا، ولكن حتى لو أخبرتني، فهل سيكون بيدي شيء أفعله لأجلها؟ لا حلّ سوى الصمت. في هذا المساء العقيم، لا يجبُ أن أدخل مناقشة في هذا المساء داخل حمام في حي المهندسين بالقاهرة، مع فتاة مكسورة الخاطر والنظرة.

لكنّي أعدلُ عن ذلك. سأسألها فربما تحتاج أن تتحدث وأن تشارك

وجعها، ذلك الذي، لو علمت، لن يؤثّر بي، أنا التي لم تعد تؤثّر بها الكلمات. هربت أفكاري نفسي على صهوة حبالي الصوتية ونطقت بصعوبة:

– أن شاالله تشوفيها.

– هي مين؟

– أمك.

– يا ريت بس ما اعتقدش.

– مافي زي قلب الأم.

– في حاگات اقوى من قلب الأم.

– بس مش أقوى من حبها.

– الحاگات دي بتهد كل حاگه، بتهد حتى غريزة الأم، حاجات بترگع الواحد ل ولا حاجه.

أنقذت جميلة الموقف. لقد جاءت مسرعة تستعجلنا. وللمرة الأولى، أشعرُ أنّ حضورك مرحب به يا جميلة. فهذه الليلة ليست مناسبة كي أسمع بوح ياسمين عن سرّها المدمر لعلاقة أمّ بابنتها. هذا ما رددته في خاطري، وهذا ما فهمته هي بطريقة ما. ربتت على كتفي وطلبت مني أن أقوم بغسل شعري بعد ربع ساعة قبل أن تغادر مبتسمة. خرجتُ لأجلب سيجارة ثمّ عدتُ إلى الحمّام. جلستُ على كرسيّ أدخّن. صحيح أنه ينتابني شيء من الفضول لمعرفة قصة ياسمين لكن حبل أفكاري، يتأرجحُ داخل رأسي ويجعل من التشبّث بفكرة واحدة ضربا من الخيال. تنهدّتُ في انتظاري. لا أعتقد أنّي سأنام هذه الليلة.

عدت إلى المكان التعس بعد أن غسلت شعري وشكرت ياسمين طابعة قبلة على خدها. مكثت شاردة في آخر تجمع رغم محاولات عواطف إجباري على الحديث، لكنها لم تستطع أن تحول بيني وبين نفسي، قبل أن يذهب الجميع إلى النوم، ذلك الحضن الوحيد المتبقي لياسمين. نعم لقد علق في قلبي وجعها، ذلك أنني لم أرَ فَقدا أكثر أناقة من فقدها.

أمكثُ في سريري متقلبة وقلبي أكثر ما بي تقلباً. لم أتخيل أنه مازال هنالك في الدنيا شيء قد يثيرني وها هو ما تبقى من توازني المختل يختلُّ بدوره. هي زيارة أمّي ما يفعل بي ذلك، زيارة مثل أفاعيل المارد الذي يحملها في كفّ، ومنزلي في كفّ آخر، بعد أن اقتلعه من الأرض بأسواره وتربته، ونورة وأبي وكل من خلّفت ورائي.

بعد أن تأكدت من نوم الجميع، نهضتُ دون إرادة منّي وشرعت أنظف الأرضيات وألمعها، وأنفض الكنبات وأهذب الستائر. لقد أردت تخفيف وطأة فوضى المكان على والدتي. لقد أردته أن يصبح لائقا بخطواتها. غرقت في حركة محمومة أنظف وأقلب كل ما أجده أمامي إلى أن استيقظت عواطف مرتاعة وأعادتني إلى سريري بعد أن أضافت علامة أخرى بجانب اسمي.

لقد انتهى الليل وما انتهيت.

كان يخشى من الرفض لذلك لم يظهر حقيقته

أفقت بمزاج سيء للغاية. كان قسط النوم الذي حصّلتهُ مسموما. شاركت في الأنشطة الصباحية بتكاسلٍ. وبعد عدّة محاولات، سمح لي أن آخذ غفوة لمدة ساعة. أفقت هذه المرة على صوت فرح وهي تطرق بابي:

- قومي مامتك جت.

استيقظت مفزوعة. دخلت خفية إلى الحمام. خشيت أن تراني هكذا، بشعري المشوّش وعينيّ الناعستين. أخذت نفسًا عميقًا وتدبرت أمر خروجي للقائها بعد أن ارتديت ثياب عطرتها منذُ ليلة الأمس. لقد أنجزت كلّ هذا بعجلة قبل أن أذهب إلى مكتب الدكتور حمدي. صلّيتُ في سرّي قبل أن أدخل. طرقت الباب وفتحته. كانت تجلس هنالك حزينة وممزقة، كما لو أنّها كبرت عقدًا من الزمن. هالني مظهرها مثلما هالها مظهري. نهضت من كرسيها قائلة:

- هلا بنتي.
- هلا والله، الله يحيك.

احتضنتني وراحت تشهق بالبكاء، أمّا أنا فرحتُ أمقتني أكثر.

عانقتني واستسلمت لحضنها. عناق خارق للطبيعة لم أعهده من قبل. سألتها عما ترغب في شربه، وألحقت سؤالي بالإجابة، فأخبرتها بأنني أصبحت بارعة في صنع القهوة التركية.

أردت متسعا من الوقت لأتماسك أكثر. لم أكلّم أو أجيب أحد في طريقي نحو المطبخ، الذي رجوتُ الله ألّا تدخله أمي. كنت أمسح دموعي التي تسيل مع غليان القهوة. انتقيت أجمل فنجان وسكبتها فيه. إنّ كلّ محاولة للتماسك تزيدني انفلاتا.

طرقت الباب. وضعتُ الفنجان أمامها. وكان لظهوري أمامي مرة أخرى وقعٌ آخر. نظرت إليّ مشفقة لأنّي أنفقتُ كلّ هذا الجهد والتركيز في إعداد فنجان القهوة. عندما سألتها عن أحوالها، سالت دموعها. ناولتها منديلاً. كنتُ أجهل لماذا أتصرّف بكلّ هذه البدائية!

التفتت والدتي نحو الدكتور تكلمه:

– أربع شهور اعتقد إنها كفاية، أنا جيت وباخذ منيرة معي!

لمعت شرارة فرح في عيني، فأضاء بريقها المكان. نظر إليّ الدكتور قائلاً:

– مونيره ممكن تسيبنا لوحدنا!

غادرتها وقلبي ينتفضُ داخل صدري. لا أريد أن أتركها لوحدها ولكني وجدتُ أنّه من الأفضل أن أصمت لتتولّى أمّي أمر مغادرتي.

ما إن خرجتُ حتّى التفّت الفتيات حولي وهنّ يطرحن الكثير من الأسئلة. لم أكن أملك إجابة. لهذا ابتعدتُ عنهن وأشعلت سيجارة سرعان ما أطفأتها. لم أكن أرغب في أن تعلق رائحتها بي، ومعها غبطتي

التي تسيلُ في دمائي شوقا للرحيل من المكان، وأبدد حدس قلبي الذي يخبرني أنه ثمّة شيء ما قد يحاك ضدّي في المكتب. استدعاني الدكتور. كانت هذه ثالث مرّة أرى فيها أمّي لكيان أمي. كانت أجمل. بشيء من المشقّة، ابتسمنا معا. اقتربتُ منها وقبلت رأسها، قبل أن تجلس وتشرع في الحديث:

- حبيبتي أنا مبسوطة منك وابيك تطولين بالك.

كنت أحملق فيها بينها تستطردُ في الحديث الذي ما عدت أسمعه. لقد فعلها الدكتور وحطم آمالي. غادرنا مكتبه وجاءت الفتيات ليسلمن عليها. ثمّ مكثنا لوحدنا:

- كيفك يا حبيبتي؟

بماذا أجيبها؟ لا يحق لي أن أحملها أكثر مما احتملته من عناء السّفرِ وعناء من تركتهم خلفها. ابتسمت:

- بخير الحمدلله، أنتوا كيفكم كلكم؟

- كلنا بخير بس فاقدينك، البيت ماله حس، في أحد مضايقك هنا؟ سألتني والدموع تكاد تنزلق من عينيها.

فجأة عدتُ طفلة بعمر الثامنة وأردت أن أشير إلى جميلة:

- ابد كلهم طيبين.

- محتاجه شي؟

- ما تقصرين.

- أنا تاركتلك مبلغ عندهم أي شي تحتاجينه اطلبيه، ولا أوصيك امانتك نفسك.

تقافزت اللحظات وأنا لا أعلم أيَّ واحدة منها أستطيع امتطاءها.
ثم أعلنتُ عن قراري بقراري بالعودة معها ورفضي التام البقاء هنا.
تتجاهلُ رغبتي ونحن نسير باتجاه البوابة، قبل أن تضغط على ساعدي:

- أي صح ترا كل اللي في البيت يوصلون سلامهم، ويقولون هم دايم يدعون لك.مكتبة سُر مَن قرأ

ابتسمت:

- الله يسلمهم، رجعي لهم سلامي وسلميلي على علي بعد.

و كأني لمست لغم، تبدلت قسمات وجهها:

- علي ما عاد هو موجود سرحناه.
- ليه؟

عضت على أسنانها وهي تتحدث وكأنها لا ترغب أن تغادر الكلمات فمها:

- وشو اللي ليه! من غيره اللي كان يجيبك ويوديك وحنا يا غافل لك الله.

تهدّلت ملامحي حتى أن خلتُ أنّي أسمع صوت حدقة عيني وهي تتسع، اقتربت وبنفس النبرة:

- ترى موب إنتِ الضحيه!

صراخي الداخلي كان أعلى من أن أنتبه لباقي حديثها. وفجأة، وكأن شلالا من المشاعر أغرقها، ارتخت وحنت:

- ما كان ودي أقول اللي قلته ما عليه يا حبيبتي، غصب عني تعبانه، بسلم لك على البيت كله، أبشري.

ودعتها شاكرة ومعتذرة، بعبارات رسمّية كعادتنا القديمة. لقد خشيت أن تسمع صوت حطام قلبي يتهاوى. تعانقنا مرة أخرى ورحلت. اتجهت فورا إلى مكتب الطبيب والغضب يعميني، وأنا أفكّر فيما يمكنُ أن يكون قد قاله هذا الحقير. فتحت الباب على مصراعيه بينما جميله تقف خلفي:

- بصي مامتك گبتلك إيه..

ومثل ورقة خريفية داخل عاصفة، تصطدم بي وتسقط.

ابتدأت الحديث حانقة:

- ايش القصة!؟

- احنا عارفين انو لازم نخبط على الباب قبل ماندخل.

- زين ماكسرته.

- مونيره خدي بالك ولا حتاخدي علامات.

- وش قلت لأمي!!

- اهدي واقعدي.

لا أستجيب.

يردد:

- اقعدي يا مونيره.

أجلس وأنا أرتجف غاضبة. يواصل حديثه:

- أنا قلت لها انها لو خدتك. حتكون قطعت عليك الطريق.

أقاطعه:

- وش دراك عن طريقي!

- أنا الدكتور وأنا عارف بعمل إيه وكفايه كدا، مفيش خروگ إلّا لما اقول.

أضرب مكتبه بعنف وأغادر. وكما هي عادتي، اتجهت إلى الحمام وأغلقت الباب بعنف قبل أن أسند ظهري عليه. أنفاسي تتصاعد ورأسي يكاد أن ينفجر من القهر. ثمة جرس يدق داخل أضلعي. من الضحية؟

لماذا فعلت ذلك يا أمي؟ من الظالم هنا ومن الضحية؟

أجزم أني لو كنت أسكن في الخلاء، لما وصلت لهذا القاع. حسنا! كلنا ضحايا. أنا ضحيّة جريمتي. وهم ضحايا مترابطو الحلقات. صحيحٌ أني خذلتهم، ولكنّ هذا لم يكنْ بإرادتي. لا أريد أن أرى أحدا من عائلتي مرة أخرى. آه ليتني شققت معصمي عميقًا في تلك الليلة المشؤومة كي لا أعود إلى الحياة.

دُفع الباب بعد طرق متواصل. دخلت جميلة. دفعتها عن طريقي ثمّ دلفتُ إلى سريري متكوّرة على نفسي كقمامة ترجو إعادة تدويرها وتحويلها إلى أيّ شيء آخر، لا يكونُ أنا.

من يسقط في القاع تلتصق به
بعض كنوز الأرض رغماً عنه

لقد تطلّب التغلب على إحباطي، بعد زيارة والدتي، وفقدان الأمل في مغادرتي، الكثير من الجلد والصبر. لُويت ذراعي لمعرفتي المسبقة أني مجبرة على البقاء هنا. أصبحت صامتة بوقاحة. ذلك الصمت المريب الذي يشعر الآخرون بتفاهته. كنت أبتلع الكلمات جمراً لكيلا أنطق شررا، لذلك رحت أتحاشاهم أكثر من ذي قبل.

جلست متكئة على المَقعد، في ذلك المكان الشبيه بالحديقة. كان الضجيج هو الخلفية الموسيقية. تسيرُ وفاء جيئة وذهابا بحنق شديد. رحتُ أتأملّها. كانت ترتدي ثوبًا مُزهرًا وتنتعل ما يشبهُ حذاء لا يصدر صوتًا، لكثرة استعماله. كانت تحكم قبضتها على الهاتف، وتحدسُ أنّها تستعد للرد على سيل من النصائح. تحدثت:

- أنا شبعت من الكلام دا.. كفاية،انتوا ما بترحموش حد. إيه الدنيا الوسخه دي عايزين مني أكتر من كدا إيه.. كفاااااايه.

وبحركة انفعالية تغلق الخط في وجه المتصل الغبي. مرت بجانبي كعاصفة، حتى أنّي أحسستُ شعري يهتزُّ بمرورها. اتجهت بتجهّم إلى الباب وفتحته على مصراعيه. كان صوت خطواتها الغاضبة مازال يصلني. تنهدت وعدت إلى وضعيتي. اتكأت على المقعد ولم يمض

الكثير وإذ بعواطف تتجه لفتح الباب. باغتني دخول سيدة مسنة، كان وميض أسنانها الذهبية، يظهر بشاعة ملامحها. ثمة شاب طويل، كأنه مشروع عملاق لم يكتمل، يسيرُ خلفها. فيه من البلاهة الشيء الكثير. انقبض قلبي من دخولها قبل أن يزيد صوتها انقباضي:

- هي فين البنت دي، على البنات واللي بيخلفوهم.

كرهتها وأشفقت على وفاء منها. أعتقد أن الشيء الوحيد الذي ورثته منها طريقتها في السير. فوالدتها كانت مثل كلب بوليسي تم تدريبه جيدا وهي تتشمّم خط سير ابنتها وتتبعه بنفس الوقاحة، كأن قدمها تقول «تنحوا عن طريقي من أجل سلامتكم». لم يمضِ الكثير حتى غادرت المكان مشمرة عن ساعديها وكأنها انتهت من تقديم ابنتها كأضحية.

كانت ساعة الاستراحة قد شارفت على الانتهاء، وميعاد الاجتماع قد اقترب. اتجهت إلى الغرفة لتبديل ملابسي وهنالك رأيت وفاء تقف أمام خزنة ملابسها باكية. امتدت يدي لا شعوريا لتربت على كتفها. دخلت عواطف ووجهت كلامها مباشرة إلى وفاء:

- انتي فاهمة القانون كويس يا وفاء. مستحيل الخروگ إلا بعد اربع وعشرين ساعة من التفكير فيه وتحت إشراف الأهل.

وبدورها تسقط يدها مدوية على باب خزنتها:

- أهل هما فين الأهل؟ يعني إيه أهل وهما مش مؤهلين لأي حاجة أبدا!!.

تفتح باب خزنتها على مصراعيه وتشرع في سحب ما فيه من خرق في غمرة الانفعال. تقوم سميحه مفزوعة من النوم:

- إيه الدوشه دي، حتى النوم حرام في المخروبة دي.
- انتوا إيه خلاص ما فيش أحساس، إيه اللي شفتيه في حياتك يا روح مامتك إنتِ.

ومن دون نقاش تصفعها سميحة بدورها. تعود وفاء وترد بقبضة:

- وديني لخليكي تندمي.

كانت سرعة الاشتباك ضوئية لم تتح لي القدرة على التدخّل. إلاّ أني، في قرارة نفسي، أردت أن توسع وفاء غريمتها ضربًا. اشتبكتا وتداخلتا. كلما أرادت وفاء الإفلات من سميحة، ازدادت الأخيرة التفافاً عليها وهكذا اتحدتا ولم يستطع أحد اختراقهما أو التمييز بين أطرافهما المتجاذبة. استمر النزاع إلى أن ظهرت أولى قطرات الدماء.

بعد أن عاد الهدوء، ونالت كلّ منهما جزاءها، كان علينا الانضمام إلى صفاء، فقد ابتدأت لتوها نشاطها العلاجي. جهزتُ لي كوب من القهوة ثمّ اتخذت الفتيات مواقعهنّ. كعادتي، استفتحته بالدعاء قبل أن أرحل تاركة روحي معهنّ.

القاع، إنّه ذلك العمق الذي لن تصله إلا وأنت غارق في وحلك. قصص القاع التي سمعتها هنا لم أتخيّلها يوما ما. لم أكن أعلم بوجود أنماط بشرية كتلك. منهنّ من لم تقدر بشاعة الموت الفجائي على انتشالها من بؤسها والتوقف عن التعاطي بعد أن شهدت وفاة مرافقها بجرعة زائدة.

سميحه، تلك التي كانت تتقن فن التمثيل وتبرع في سرقة محلات الذهب، والتي حاولت الهروب شبه عارية، حينما داهمت الشرطة

وكرها، صادفت في طريقها صبي في مقتبل العمر. استوقفته. لقد هربت من هروبها وهي تقبّله غير آبهة بملاحقيها، إلى أن قبض عليها وسُجنت لفترة ليست بالقصيرة، نسيها فيها الجميع ولم تتلقَ أي زيارة حتى من أهلها.

فرح تلك كانت تفيق عادة في منازل لا تعرفُ أصحابها، إذا لم تقضِّ ليلتها في سيارتها حيث يغشى عليها عادة من فرط السكر، أصيبت بتسمم كحول أكثر من مرة وكادت أن تفقد حياتها.

مضاوي تمّ إيداعها العناية المركزة، على إثر تعاطيها أقراص منشطة بعدد مهول، وتعرضها لعدة نوبات صرع متتالية أدت إلى توقف قلبها ولم تفق إلّا بغرفة الطوارئ. لقد تطوّرت هلوستها حتّى دخلت مجلس البيت بلباس السباحة أمام عائلتها اعتقادًا منها أنه حمام سباحة.

ياسمين، تلك التي من شدة عمق قاعها، لم يتمكن صوتها من الصعود إلى الخارج أبدا. ياسمين هذه تتماسك ليال وليال قبل أن تنهار بصمت لا يحرك ركوده إلا تساقط دموعها.

التفتت إليّ صفاء:

- مونيره كلمينا عن قاعك!

إنّها الوحيدة، من بين كلّ المعالجات، التي أحسبُ أنّها ذات عمق فكري. نبرة صوتها مريحة. إنّها لا تحب الكثير من الألوان في ملابسها وهو ما يجعلُ من النظر اليها أمرًا غير مزعج.

أجيب بتباطؤ:

- ما عندي قاع.

تكرر:

- بقى لك مدة هنا، لازم نبدأ نتعمق ماتخافيش.

بماذا أخبرها؟ هل أخبرها أن قاعي هو جهلي بوجوده؟ أنّ وقوعي كان بطيئًا جدا حتّى أن حواسي لم تلحظه، وأنّ الجاذبية الأرضية لم تقوَ على تسريعه كأنّما الأرض، هي الأخرى، لا ترغب بي؟

ماذا أقول؟ لم يُسمع صوت ارتطامي بقاعي بعد لشدة الضوضاء حولي. لم تكن سقطتي مدوية لتلفت الأنظار نحوي، ويتمكّن أحدهم من التقاط ما وقع أو ينتشله. إنّه سقوط اختلط غباره مع عجاج عمري. سقوط لم يجعل جسدي يشعرُ بأي ألم لكثرة ندومه وآلامه التي لا تنتهي. إنّ قاعي أرض سحيقة فسيحة، تصلح للسكنى. أمّا حتى غيابي فلم يلاحظه أحد، ولا حتى أنا.

- ركزي يا مونيره، إيه النقطة اللي نقدر نقول أنها كانت لحظة انكسارك، وخلتك تعرفي أنك انهزمتي خلاص.. استسلاام. القاع هوه الحتّه اللي قلتي يا جماعة أنا محتاگه مساعدة. إيه الحاگه اللي حصلت وخلتك تفوقي والانكار يتكسّر؟

- أتذكر يوم في الصباح لمحت أبوي صاحي.

تتدخل فرح:

- إيه يعني لمحت دي!!

تقول صفاء بتروي:

- معلش يا مونيره، حاولي تستخدمي كلمات أسهل.

- شفت والدي صاحي وهوه راجل كبير في السن. وقفت، وبخفّه رجعت لورا عشان ما يشوفني وتركته من غير ما أصبّح عليه ولا أتقهوى معه.

بدأت قهقهة الفتيات وتعليقاتهن تطفرُ حتى عمت المكان.

- مش ممكن، تحفة إيه القاع الفافي دا!!

- يختي عليكي.

تقاطعهن صفاء:

- بس يا بنات.

يا لهنّ من حمقاوات! هنّ لا يعلمن أنّ القاع النفسي أشدّ إيلاما من أيّ حدث خارجيّ. إنهنّ لا يعلمن من يكون أبي الذي تجنبته. عالمهن سطحي لا يعنيه إلا الأمور العملية. فليعلمن إذن أنه لدي من أمور الدنيا ما يخطف الأنفاس ويبهر الأنفس، ولكنها لم تؤلمني مثلما يؤلمني القاع.

تقترب صفاء:

- عاوزاكي يا مونيره تكتبيلي صفحتين فيها مواقف من القاع، يعني انطردتي من البيت، اتمسكتي. حاگات زي كدا.

لا أعتقد أنه مسّني شيء من هذا التجمع الأحمق المليء بالأغبياء سوى كلمة «الإنكار». لماذا لم تأخذ هذه الكلمة حقها من سوء السمعة؟ لماذا لم نسمع بها منذ صغرنا؟ لماذا لم يحذرنا أحد منها؟ لم يسبق لي أن سمعتُ أنها تنتمي إلى المسلمات الخبيثة، تلك المتعارف عليها، كالسرقة، الكذب، العقوق...

قطع نداء جميله حبل أفكاري:

- منيرة ورايا على الأوظة تفتيش.

طبيب نفسي، ومعالج نفسي، ومستشارون حولي، وما زلت أشعر بالسوء يتزايد.

أعطني ما تبقى مني

اتجهنا للغذاء الذي كالعادة غريب المكونات.. فهو عبارة عن خيوط معكرونة وشطيرة همبرجر دون خبز. توقفت عن الأكل لأنني كنت دوما أرغم نفسي على تناوله، بعد أن وجدت شعرة في طعامي، أزحتها بصمت وتركت المائدة، بكيت قليلا، ممّا سبّب لي حرجا من نفسي ها أنا أبكي بسبب طعام، حتى الجوع تفوق علي. لم أحدّث أحدا بالأمر، ولا أقبل أن أمكث في جلسة مع إحدى المعالجات. غادرنا للاجتماع، توجهنا إلى الخارج الذي كان كغيره مزدحما والجميع يشارك، كنت لا أطيق صبراً وليس لي من ملاذ إلا الصمت حتى تنفضّ هذه الاجتماعات، لم يسبق لي أن شاركت في أحدها رغم المحاولات الكثيرة، في طريق العودة مكثت في الخلف مسندة رأسي إلى زجاج النافذة، لا شيء يثير في نفسي الكآبة كطريق المقطم، حيث ظلامه الدامس وجباله غير المفهومة، منطقة صمت فجائية في ضجيج القاهرة. الضوضاء عالية في الحافلة كالعادة وكنت في أقصى درجات انزعاجي وتلازمني أفكاري دموية، أستمع إلى أحاديث الفتيات ودردشاتهنّ تعلو على صوت الأغاني، حباهنّ الصوتية تتألم، وفي نفسي أقول هل هذا أوطئ ما وصلتنّ إليه!

سئمت هذه القصص والمغامرات المستهلكة. كم رغبت في الاختفاء في تلك الفترة وتقليص حجمي والحيز الذي أستهلكه من الفراغ. بدأت أفكر في التقشف أكثر، ولكن الطقس بارد ولا أستطيع خلع معطفي، رغم أني لا أترك فرصة دون أن أتخلص من أيّ متعلقات مادية، أردت التقشف الخارجي وعليّ أن أصل لما في داخلي.. كم كنت أتمنى أن لا أرتدي شيئاً، فكرّت للحظة يحدث أحيانا أن نرى شخصا يسير عاريا في الشارع، فننعته بالجنون وقد يعتقد البعض أنه بلغ أقصاه وأتساءل لم لا تكون الملابس تزيد من حمولته؟ وأعود من شرودي فأمرّر يدي على رأسي وكأني تنبهت فجأة إلى شعري. لمعت فكرة في عيني، نظرت إلى السّاعة كانت تقارب الثامنة مساء.. نعم هناك وقت لتنفيذ الخطة.. سأتخلص من شعري. بمجرد نزول القطيع الذي معي سأذهب.. ولكن أين وكيف؟؟ لا يهم فقد تخطيت مرحلة العقلانية ولا شيء قد يثنيني عن تلك الرغبة والفكرة المسيطرة..

أنادي بصوت مرتفع:

- جمممميله جميله.

كانت بالكاد تسمعني مع الأغاني التي لا تتوقف، تلتفت نحوي بتكاسل:

- في إيه يا مونيره؟

اقترب منها:

- بروح الكوافير اللي جنب الهاف واي.

- ليه إن شاء الله بقى.

- عاوزه أقص شعري.

- النهارده مش أگازه مفيش إنسي.

كلمة إنسي، أشعلت النار في ضلوعي، وزادتني إصرارا:

- اطلبيلي الدكتور حمدي.

تجيب بتحدّ:

- أنا اللي ماسكة النبطشيه يا مونيره وبقول لا.

- اطلبيلي الدكتور يا جميله.

مضاوي تساندني:

- اطلبلها الدكتور يا جيجي.

تلتفت لها بنصف عين:

- وانتِ مالك انتِ؟

أعود وأكرّر طلبي بعد أن ابتسمت في وجه مضاوي:

- أما نشوف كلام مين اللي يمشي.. وطي على الصوت سنه يا أسطه.

تخرج هاتفها المزكرش بكل أنواع السلاسل الملونة وتبدأ بالاتصال:

- الو أي ويا دوكتور منيرة طلبت تروح الكوافير وأنت عارف النهارده مفيش خروگ.. اه ما أنا عارفه بس أنت عارف منيرة مبتسمعش الكلام وعّنديه، حاضر يا دوك أهي معاك.

أنتزع الهاتف من يدها:

- مرحبا دكتور بعد إذنك أنا عاوزه اروح..

- ممكن، اعرف ليه مصره!
- أخاف أغير رأيي بكره.
- دي رغبه ملحه وفكره مسيطره واحنا لازم نتعلم نقول لدمغنا لا.
- دكتور الرفض المستمر يجيب نتيجة عكسيه، مش أنتا طلبت مني أواجه؟
- دي مش مواگهه دا عند.
- اوكي مع السلامه.

لا أصدق كلّ هذا التعسّف والإذلال، ليتني أصل إلى منزلك الأن وأواجهك بكم هائل من الضرب المبرح أنت ومعالجتك الحمقاء، كم أود أن أقذفكِ من السيارة يا جميلة وأطلب من السائق دهسك عشرات المرات.

وهي مازالت تكمل المحادثة مع الطبيب والامتعاض على محياها نظرت إلى بحنق:

- مونيره إنتِ حتروحي بس على شرط يتخصم نص يوم من أجازتك.
- موافقه.

بمجرد وصولنا وبعد أن استلمت منها مبلغا ماليا الذي دارت حوله الكثير من الالتباسات، ترجلت أولهنّ مسرعة من الباص.لم أطق صبراً، سأنفرد بنفسي أخيراً.

يلاحقني صوتها:

- إيه في إيه يا مونيره!!

و أنا أبتعد:

- مش حتأخر.

أسير مسرعة وبمجرد اختفائي عن أنظارهن ركضت وكأني عدّاءة في سباق،أصل إلى كوافير السعادة.. أقف قليلا لألتقط أنفاسي وأدخل.

كان هذا الصالون تعيسا ولا يبعث على الانشراح ويفقد الدافعية لأي نوع من التجميل، فالإضاءة كانت مرتفعة جدّا وكل الصور المعلّقة تعود إلى التسعينات، صالون مزدحم بالأثاث القديم والخلفيات البائسة. لا يهم فأنا أريد أن أحلق شعر رأسي ولا حاجة لي لأي مهارات. كان أول ما شدّ انتباهي أن كل المشتغلين بهذا الصالون يرتدون زيا موحّدا ولكن بتدرجات الألوان وشحوبها. طبعا أغنية تصدع في الخلفية، هنا يتنفسون موسيقى، وما يثير الدهشة والغرابة أنّ المحيط الصوتي لا يخلو من أبواق العربات وفوضى المشاحنات والمعاكسات وطبعا الأغاني وكأن الزحمة الجسدية لا تكفي..

استجمعت أنفاسي وبادرت بالقول:

- مساء الخير.

التفت إلي شاب نحيل الوجه، كان شعره يلمع لا يبدو متناسبا مع هيئته وهو ما زاد من غرابة شكله وبادرني بالقول:

- أهلا يا فندم.

- عاوزه أقص شعري.

- ثواني حضرتك ... عماااد عماد.

يأتي عماد من خلف الستارة:

- أيوا.

عماد لا يختلف كثيرا عن البقية في الهيئة والألوان له شعر كشوك القنفذ، ممتلئ الجسد، له صوت رقيق وله عينان دقيقة النظر، ابتسامته تطغى عليه، فلا يتبين غيرها.

نظر إليّ مرحّبا:

- أهلا أهلا، اخدمك ازاي؟

أسلوبه في الحديث يدل على ثقته بنفسه:

- عاوزه احلق راسي.
- تقصيه يا فندم.
- لا عاوزه احلق احلق رأسي.
- يا فندم شعرك گميل، شكلك متضايقه الليله دي، نقص شويه وبكره نبقى نشوف حرام والله.
- أنا عارفه بعمل إيه.

جلست على الكرسي بإصرار، لماذا كل هذا التعقيد؟ لأتخلص من شيء يخصني أنا، أليس الرأس رأسي، الشعر شعري أنا؟ أخرج المقص من جيبه بخفة وحركة بهلوانية، وعالجني بابتسامة لا تخلو من الزهو والاستعراض:

- معاكي عماد الساحر.

وشرع يقص شعري، لم أصدق في بداية الأمر وأنا أرى الشعر يتطاير، ولكن سرعان ما بدأت أشعر بنشوة غريبة، لا أعلم ممن أنتقم.

يستمر عماد ويبالغ في حركاته لأثبات لقب الساحر. شعرت بأني أتحول، عجزت أن أتحكّم بعقلي، ليت كل شعرة تمثل فكرة ويتم التخلص من أفكاري ووساوسي إلى الأبد. أعود وأنظر إلى المرآة يعجبني ما أرى، يتوقف عماد عند حدّ معين ثم ينظر نحوي إذا ما كان عليه أن يكمل! فأطلب منه الاستمرار، انتشل حينها ماكينة الحلاقة فلم يكن متأكدا من رغبتي. يرمقني بنظرة، أكدت له على عزيمتي، أصبح التواصل بيننا بالنظرات والإيماءات.

يتوقف عماد بعد أن قام بحلق رأسي كاملاً، يتراجع خطوات للخلف ويبدأ بالتصفيق مخاطباً من في المكان:

- صقفوا للبنت الكريئه.

يتجاوبون ويصفقون. أشعر بغبطة وكأني منتصرة، أنحني شاكرة لهم وأنظر إلى وجهي تلك النظرة الحادة وكأني أستمتع بهذا العقاب.

اندفعت من مكاني أنفض عني بقايا الشعر وناولت عماد المال وغادرت، ولكنّه ظلّ يناديني:

- كتير يا فندم.

رفعت يدي ملوحة ولم التفت، لن أنساك ياعماد ستُنقش في ذاكرتي للأبد فقد ساهمت في تحقيق رغبة عنيدة.

وانطلقت أسير في الشارع المظلم وأنا آخذ نفساً عميقا.. بدأت أمشي بطريقة جديدة.. نعم فقد تخلصت من بعضي، وكسرت الدائرة الحسية والفكرية المملة، صرت أتمختر في مشيتي ولا شعورياً أجدني أصفر لحنا لأحدى أغاني عبدالحليم.

بمجرد دخولي من الباب ذُهل الجميع مما فعلت، ضجّت شهقاتهم في سماء المكان، وزلزلت تساؤلاتهم المكان ورجّت الأرض، واستنكرت مضاوي استنكارا لاذعا.. فهي لم تقبل ارتدادي عن شريعة «زينة البنت شعرها»، أمّا فرح فهي الوحيدة من راق لها ما فعلت وقامت ياسمين باحتضاني واكتفت جميلة بومضة أو إشارة وهي تهم بالاتصال فقد تنبهت لوجود هاتفها بيدها، تركتهنّ غارقات في ذهولهنّ وسرت غير عابئة بشيء وسارت خلفي عواطف مصرّة على المعاتبة:

- ليه كدا يا منيره!!

تجاهلتها ودخلت الحمام وأغلقت الباب، بدأت بنزع ثيابي رغم البرد الذي بدأ يتخلل مسامّ رأسي وينساب حتى نخاعي، وقفت عارية أنظر إلى جسدي الذي لم أره منذُ مدة، ها أنا الآن مسخ.. نعم مسخ، سُحقت من الداخل فلماذا أبقي الخارج، أدرت الماء الساخن وشرعت أستحمّ بكل حميمية. إلى أن تناهى إلى سمعي طرق متكرّر للباب، وكما كان متوقعا فقد حضر الدكتور حمدي. أنهيت الحمام، ثمّ اتجهت إلى مكتبه، وبمجرد دخولي التصقت بي عيناه إلى أن جلست، وبحروف ترجف بادرني بالقول:

- ممكن أفهم إيه اللي إنتِ عاملاه دا؟ منيرة إنتِ لسه ماشيه بدماغك؟

وبعد أن نظرت نحوه بحنق أجبته بهدوء:

- تعرف أحد ماشي من غير دماغه!!

- لاا‌ا لاا‌ا الكلام معاكِ ضايع، مفيش اجازه الأسبوع الگي،

اتفضلي دلوقتي.

غادرت المكتب بكل هدوء وأنا أسير بثبات، مجتازة الجميع واتجهت مباشرة إلى فراشي الذي استنكرني بدوره فلم أجد منه أي ترحيب لم يحمني الغطاء من لفحات البرد التي لم أعتدها في قمة رأسي كما اعتادها قاع نفسي.

هرطقة

مضى الأسبوع مرتبكاً تحت ظلال فعلتي، تكثفت جلسات العلاج على أمل معرفة الدافع الحقيقي لما قمت به، لم أكن أفكر أو أشعر في تلك الفترة بداخلي فكيف لي أن أهتمّ بمظهري، نادراً ما كنت أراني في المرآة ولكني قد استوحيت ممن حولي انعكاسا لمظهري، رجفة تلازمني، وعينان غائرتان تحتجبان عن الدنيا تحت حاجبين كثيفين، ملابسي كانت شاحبة مثلي، وقد شُد ساعدي من الملاكمة شبه اليومية، مشيتي كانت وقحة تحاول مواجهة القبح الذي يحيط بي، لقد عُريت وأصبحت أحتويني، يداي كانتا دائما ترتبان على أجزاء مني وكأني لا شعورياً، أُرضي أنوثتي.

لم أكن أحبذ الجلوس بجانب أحد، دائما أشغل المكان المنعزل. فضلت الاحتفاظ بحذاء أبيض أسودّ لونه من كثرة استخدامه، وبين كل فترة وأخرى، يبعث لي أهلي لي الكثير من الأمتعة فأقوم بتوزيعها خفية، تخلصت من أي مظاهر للترف أو السعادة، كل ماكنت أستهلكه وبكثرة هو العطور، علها تسعفني بعبير خاص يشعرني بالانعزال، وبعد جسارة حلق رأسي أصبحت نكرة، مرعبة. أحيانا يكون الطقس شديد البرودة فأتلحف بوشاح رمادي وجاكيت أسود وعادة بنطال

رياضي. ببساطة كنت مرتدة عن الحياة بل مشمئزة منها، اكتفيت بالتستر لم تكن تعنيني أي ثقافة أزياء ولم أعلم أني شرعت بفتح باب لن أستطيع إغلاقه بسهولة.

وضعت مهمة جديدة على قائمة العلاج، وأصبح ذلك هاجسا مزعجا وتكثفت الأسئلة الحمقاء:

- بتلبسي ملابس داخليه رجاليه؟
- في أي احتكاكات جنسيه بينك وبين حد من البنات؟
- في حد اتحرش بيكِ وانتِ عندك خمس سنين؟

اضطررت لاستخدام سلاح المراوغة. فأصبحت أضع المكياج بمبالغة، وقد اكتحل فجأة دون مناسبة إلى أن ظهرت نظرات الرضا على وجوه الجميع وأحسوا بالإنجاز المتحقق. ولكنني في المقابل ازددت يقينا بأن الثقافة التي تعتبر قصّ الشعر دالا على المثلية ليست إلا ثقافة فقيرة وبائسة.

في خضم هذا كله، حضرت فتاة جديدة في مقتبل العمر إلى المكان، كانت بارعة الجمال، منذُ وطئ ثقل جمالها أرض المكان، أحدث اتزانا مؤقتا استمر لوهلة. حين حضرت كنا في ساعة القراءة، بدأت الأعنق بالالتفات وراءها إلى أن قمنا للترحيب بها وللتعريف بأنفسنا المضطربة، وقوفنا زادها دلالا وغنجا حتى تكاد تنسكب فوق الدكتور حمدي بكل رحيقها، كان يقف بجانبها متباهياً. بعد التعريف الفقير الذي علمنا منه فقط أن اسمها مريم، غادرت مع عواطف لتريها المكان وعدنا للقراءة، وكان من الصعب على مضاوي الصمت:

- صراحه البنت صاروخ.

شاركتها وفاء:

- دي تحفه، شعرها، جسمها ووشها.

وحين همت فرح أن تتحدث، سبقتها مضاوي:

- بس أتحدى اذا ما كان دمها ثقيل.

أطبقت شفتيها على الفور حين ظهرت مريم فجأة، جلست معنا ودون أي مقدمات انتابتها نوبة بكاء حادة تحولت إلى نحيب، يا الهي لماذا صوت البكاء يثير الاشمئزاز هكذا!

ارتبك الجميع والتفتت عواطف وجميله التفافة حانقة عليها وظهر الدكتور حمدي متسائلاً، ولم يستطع أحد تبين السبب الحقيقي لانفعالها، إلى أن أُعطيت حقنة مهدئة وتوارت عن كل هذا الفضول.

عم المكان هدوء إلى أن حضر المساء بثقله واستدعينا لتناول الأدوية والوقوف صفا لأخذ الجرعة. وحين أتى دوري اكتشفت أن عدد أقراصي قد ازداد وبأن جميلة أبدلت دواء بآخر.. فاشتعلت غضباً. ولم أحتمل الاستهتار بالأدوية. نظرت إلى جميلة وخاطبتها بكل حدة :

- وبعدين بقى.. دي دماغي إلى بتلعبوا فيها!!

وكان انفجاري الفعلي عند قولها:

- وليه ما خفتيش على دماغك وانتِ بتضربي مخدرات؟

ودون شعور مني، أمسكت بعلبة الأدوية البلاستيكية وقذفتها أرضا، قفزت فوق الطاولة التي تفصل بيننا وأمسكت بحلقها، وكأن

كل أسلافي توحدوا بقبضتي، نزعة عدائية بدائية تلبستني وشرر يتقافز من عيني ويقف فوق رموشي. تداركتني الأيادي، وما هي إلا لحظات حتى حقنت بحقنة الموت المؤقت، ورحلت، ولم أعد إلّا بعد يومين لا أذكر منها شيئا غير ومضات لطف من مضاوي وكأس ماء بارد من ياسمين وتناول كمية بسيطة من الطعام.

في أثناء عودتي التدريجية التراجيدية علمت أنّه تمّ انزالي مرحلة. أي ما يعادل الشهر في هذا المكان، حقدت على جميلة وعواطف، كنت أرمقهن بجفن متثاقل وهن يتجاوزن باب غرفتي للاطمئنان علي كل فينة، كذئب يقظ، تتوه من رأسي الأفكار، ولكن صداها كان يصرخ بداخلي. في نهاية اليوم الثالث قمت من فراشي وسرت بخطى متأرجحة. أشعر بجوع شديد، استوقفني منظر رأسي المحلوق في المرآة وكأني نسيت ذلك، نظرت إلى انعكاس عيني وأقسمت أن لا أتناول أي أدوية بعد اليوم. لم يكن لي هدف إلا القيام بذلك. لا أعلم كيف، متى ولماذا! أكملت سيري نحو المطبخ وتناولت واقفة ما وجدته أمامي، رغيف خبز وجبنة صفراء وحضرت كوب قهوة.

سرت إلى الصالة وكان الجميع هنا في حلقة تديرها صفاء التي بمجرد رؤيتي قالت:

– أهلا اتفضلي معانا يا مونيره.

رفعت لها يدي التي مازالت تحمل كسرة الخبز معتذرة لها.

سحبت مقعدا وجلست إلى الطاولة التي لا تبعد عنهم كثيرا وأشعلت سيجارة بعد أن بادلتني الفتيات نظرات وابتسامات، رحت

أدخن بعمق وأشاهدهنّ، كانت فرح تلعب بشعرها ضجرة، وسميحه اللئيمة تعض على شفتيها وتسترق النظرات بخبث، أما مضاوي فلسان حالها يقول: «لأبوكم لأبو من جابكم»، وفاء آه من وفاء، ياسمين بَصمتها البليغ ونظراتها الناطقة بعمق وهناك مريم ظهورها في هذه البؤرة جلياً، كفراشة تحوم فوق أشجار صبّار، صامتة ببلاهة في المجمل، وصفاء تبذل ما في وسعها لرفع هذه التعاسة وإقناعهنّ بأهمية ما يفعلن:

- ممكن تشاركينا يا مريم، اسحبي صورة وقولي لنا بتمثلك أي؟

مدت يديها وسحبت صورة من مجموعة ملقاة على الطاولة الصغيرة بجانبها وبعد أن نظرت فيها برهة من خلف رموشها الطويلة، مدت شفتيها الممتلئتين:

- بتحسسني بالخوف، طول عمري بخاف من الظلمه، بنام والباب مفتوح بخاف من العفاريت كمان، وبخاف من بابا.

ضحكت بدلال لوحدها: «بس هو دا أنا بخاف بس، لا بخاف من حاجات كتير».

هكذا احترق وهجها وسقط حين سمعتها تتحدث، لنبرة صوتها دوي كطلقة رصاص هتك سرّ جاذبيتها، ولأسلوب حديثها مخالب شقت مظهرها الخلاب،إذاً هذه لعنة جمالها، نعم لكل جمال لعنة.

و لأول مرّة تحدثت ياسمين، تركت سيجارتي، أردت أن أحترم حديثها الأول:

- أنا عاوزه أشارك من غير صوره، النهارده عيد ميلاد ياسين أخويا، اللي اتوفى وعنده ستطاشر سنة، صمتت برهة تغالب

دموعها:

- أنا كل ما افتكر انه مات اوفردوز وهو بيضرب معايا، بحس إني عاوزة أولع في نفسي، أنا مش بلوم ماما إنها مش راضيه تسامحني.. أنا بكرهني.

وغاصت إلى عمق صمتها مرة أخرى وكأنها كانت بحاجة لجرعة هواء، عدت لسيجارتي المشتعلة بعد أن أشعلت ياسمين تعاطفي، تركتهم وذهبت للاستحمام فلم أستطع النظر إليها بأي نظرة خشية أن تقع وتتحطم قبل الوصول اليها.

ارتديت ثيابي بتمهل وأنا أحاول نسيان مصاب ياسمين. التحقت بالبقية، كنّ جميعا منهمكات على الغداء، صوت ارتطام الملاعق يعلو، قمن بالترحيب بي، مضاوي ووفاء قامتا بحضني وجلست معهن، الطعام كالمعتاد لا يفتح الشهية. إلى أن وجدت بطه على غير عادتها تقف فوق رأسي،بصحن معد بعناية وضعته أمامي:

- يله يا گميل انتا، كشري بإيديا وحياة عنيا.

- تسلم إيديك.

نظرت إلي وفاء:

- وحشتينا والله يا مونيره.

ابتسم لها:

- و إنتِ كمان وحشتيني.

تقاطعنا مضاوي:

- ترا أبد ما فاتك شي، وهي تلقي نظرة سريعة باتجاه مريم، التي كانت تجلس بالقرب من سميحة.

اقتربت جميلة واضعة يدها على ظهر مقعدي:

- بنات،محدش يتلكع في الأكل كلوا يرفع طبقوا ويغسل أيديه ويقعد. في قروب هوت سيت، مسموع؟.

كان ظهورها قد جعلني أفكر أنه ربما يجب أن أعتذر لها ولكن لا أشعر أنّ في قلبي أي رغبة لذلك، قد أفتعل أي شيء إلا المشاعر فافتعالها دنيء بالنسبة إلي، لا أشعر بأي أسف نحوها. شعرت مضاوي بما يدور في خلدي،فعاجلتني قائلة:

- لا تحارشينها ابد المره الجايه بترجعين المصح، اهجدي

- وش الهوت سيت ذا بعد.

فأجابت وهي تضحك:

- هذا قروب لعنة خَير والأكيد انه عليك.

- ما فهمت؟

- بتقعدين بكرسي في الوسط وكل احد راح يواجهك ويتهمك، اكيد عشان اللي سويته في جميلة وتضحك.

ثمّ قمت متأففة، ولم أكمل غذائي. وبعد ذلك أعدت طبقي للمطبخ وأخذت أدخن سيجارة.

تم الاستدعاء واتجهنا للجلوس في دائرة كبيرة وحضر الدكتور حمدي وخفتت أصوات الفتيات. قام كالعادة بحركة مبالغ فيها وحمل مقعده ووضعه في منتصف الدائرة وأشار إلى أن أجلس عليه ففعلت

ما طلب مني، وعاد ليجلس على المقعد المقابل لي واضعاً إحدى ساقيه على الأخرى. تنبهت لحذائه الجديد ذي الرأس المدبب. أعتقد في قرارته كم تمنى لو كان من رعاة البقر. مازال هناك شيء في أرديته يخل بتوازن مظهره،حزام كان أو سلسال لا يليق بما يرتديه، تحدث بتحدّ:

- كلنا عارفين قوانين الگروب..و يستمر في تكملة عباراته التي حفظتها عن ظهر قلب.

- الگروب دا اسموا هوت سيت، عاوزين نتكلم كلنا بأمانه.

نظرت إليه بتحدّ ممزوج ولامبالاة.

أكمل حديثه:

- اللي عاوز يواگه مونيره في الحقيقه يرفع أي دوا ويبدأ..

لحظة صمت وكأن الجميع يستعد لتعبئة السلاح. أول من رفع يديه كانت فرح التي احتكاكي بها يكاد يكون منعدما، بينما هي كالتلميذة النجيبة التي لا تهدر وقتها، نظرت إلى عيني:

- عاوزه اواگهك يا منيرة أن الدكتور بيدينا أدويه عشان احنا محتاگينها، وعاوزه اواگهك، إنك بتخسري وقت وأعرفك أن دماغك أخطر مما تتخيلي والانكار مسيطر عليكِ، وإنك شايفة نفسك ومحدش عاگبك ومن يوم ما جيتي المكان والجو متوتر.

عادت للصمت وعلمت أي منحنى ستأخذه هذه المواجهة، لم أحرّك ساكنا من حديث فرح، ثم قامت جميلة برفع يديها على الفور وكأنها لا تطيق صبرا لحين مواجهتي:

- مونيره إنتِ ما عندكيش ودان، مش بتسمعي حد، اواگهك إن

العنف لو اتكرر أنا مش حسكت، عاوزه اواگهك أن قلبك حجر.

أصابت بهذه الكلمة، نعم فقلبي صُب من حجر، كل عواملكنّ الخارجية عجزت عن إحيائي داخليا.

خرقني صوتها مجدداً:

- إنتِ شايفه الكل غبي وانتِ الذكية الوحيدة والفاهمه هنا،

وهنا لم أستطع الصمت:

- أي أنا ذكيه.

ورغم ترددي الدائم من الإجابة عن هذا السؤال إلاّ أن الدكتور حمدي تحدث على الفور بصوت جهوري:

- ممنوع تتكلمي أو تشاركي نهائيا..

لم أبادله النظر وصمت لأني أريد لهذا المجلس الغبي أن ينتهي، عدلت جميلة من جلستها:

- أنا عارفة إنك قاعدة هنا غصب عنك وعارفه كمان إنك ما بتناميش بعد اللايتس اوف وعارفة إنك بتنمي فيا إنتِ ومضاوي، إنتِ شايفة نفسك لدرجة مخلايكِ ما تشوفيش حد تاني.

هنا أيضا تحدث الدكتور حمدي بعد تنهده:

- وصلت الفكرة يا جميلة شكرا.

ساد صمت مرتبك حتى أني أكاد أسمع أصوات تنفس الجميع وبدأ لهيب يشتعل في عيني، لم يتوقف الدكتور حمدي عن تبادل النظرات مع مضاوي ووفاء، بعد أن نظر مطولا لمضاوي:

- ها يا مضاوي ما عندكيش مواجهه لمونيره؟.. فردت على الفور وكأنها كانت تنتظر ذلك:

- لا ما عندي شي.

- مش ممكن الوقت دا كله ومفيش حاجه شايفاها على أختك! فكري لغاية ما يجي دورك، والتفت إلى وفاء؟

تحدثت بأسى:

- مونيره أنا بحبك.

وهنا أيضا تدخل، كرجل مرور ينظم سير الأحاديث:

- وفاء الجروب دا مش للمدح والحنان.

ابتلعت ريقها:

- لازم تدي نفسك فرصة، إنتِ مش معانا، عينيك زايغه وبيتهألك حاجات، روحك بعيدة.

ثم أرخت عينيها بعد أن نظرت إلى الدكتور حمدي بعتب.

الذي بدوره تحدث بغته:

- مونيره إنتِ مدمنة، مونيره إنتِ مجنونة، مونيره إنتِ ضايعة ومش فاهمة. وصمت قليلا بعد أن أدار الخاتم الذي بأصبعه. لم أرفع عيني من عليه، وشددت على قبضتي استعداد للكلماته القادمة، بعد أن أخذ نفسا مبالغا فيه:

- انتِ عندك مشكلة عقلية، وما تصدقيش دماغك، إنتِ قعدتي في مستشفى مجانين عشان إنتِ مجنونه، إنتِ حتى صدمات

الكهربا منفعتش معاكِ وبأمبير عالي كمان ما تصدقيش نفسك، إنتِ في قاع.

أثار حفيظتي كثيرا فنهضت وتحديته بالنبرة:

- يعني اصدقك انت مثلا!

- أقعدي.

- مش قاعده، واسمع الكلام الفاضي دا.

- دا مش طلب دا أمر، اقعدي.

أوليته ظهري وسرت بخطى تنمّ عن حنق وغضب، كانت نبرة صوته كسياط على ظهري:

- مونيره تنزل مرحلة لا مرحلة ونص ومفيش سگاير وتنظف الحمامات كل يوم.

دخلت غرفتي وأغلقت الباب خلفي بأعنف ما استطعت، متى قاموا بإجراء صدمات الكهرباء، حتى أسلوبه في الكذب دنيء، حسنا لقد أصاب مني هذا المتعجرف، أثار ضوضاء حول خليتي الوحيدة الناجية التي أختبئ بها عن كل الجنون من حولي، ولكني مازلت متشبثة بغزارة منطقي. حتما سأنزلق من بين يديك، أيها أحمق، وسأختبئ في مكان لا يعلمه أحد حتى أنا.

كنت أحدّثه عنك

توالت الأيام ببطء قاتل، كقافلة تائهة في صحراء شاسعة. لم أتذمر فكبريائي كان أكبر، أقسمت أن لا أُري انهزامي لأيّ كان وهذا في حد ذاته كان انتصارا لي.

اعتدت على الأغاني فهي تلازمني صباحا ومساء، كانت فقرة الرقص التي تنعش البنات هي بمثابة نقلة سريعة في مزاج كل واحدة منهنّ وهي لا تتطلب سوى خلفية موسيقية هابطة. كانت ساعة إزعاج متكررة، ولكنها اليوم بدأت مبكرا وهذا يعني أن لا مجال لأن أشاهد التلفاز. أشعر بملل يوم الجمعة كم هو ثقيل، أتصفح مجلة قديمة، تقترب مريم مني وهي تجتهد في الرقص، على أغنية «معجبة مغرمة»، فاضطررت لمجاملتها وقمت بالتصفيق لها، تصرخ لكي أسمعها:

- ما تيگي أعلمك ترقصي.

- طيب.

تظلّ تضحك وتجذبني بإصرار:

- مش مصدقه يلا قومي!

فأقف وأحاول مجاراتها، فترتفع ضحكتها وهي تردد: لا مش

ممكن إنتِ خام آوي، بصي احنا نبدأ من الاول،ايوا بصي ازاي حاولي تركزي على الحته دي لوحدها.

فأواصل مجاراتها ولكن بلا فائدة.

- إيه يا بنتِ، اهو كدا حبه حبه.

فأحاول المواصلة دون أي تحسن.

- ما أعرف دا أحسن حاجه عندي.

- مش ممكن يا مونيره اللي بتعمليه دا.

فأربت على كتفها شاكرة وأتوقف عن المحاولة وأتركها غارقة في الضحك.

أصبح الملل يتّسع ويغلفني، ألمح جميلة مقبلة من بعيد، أكره كل شيء يتعلق بها حتى الهواء المصاحب لها يخنقني.

- دكتور فتحي اتصل وقال، أقولك تروحي المختبر تعملي تحليل، وبعدين حيشوفك.

فأسرعت أغير ملابسي وأنا لا أصدّق أنني سأخرج أخيرا وأتجاوز ضيقة هذا المكان، وجدت الباب مغلقا فناديت جميلة:

- ايه خير إن شاء الله رايحه فين.

- المختبر.

- ومين اللي قال انك حتروحي لوحدك، أنا رايحه معاكِ.

فأنظر إليها مليّا وأنا أغالب إحباطي ولسعة الغضب قد لمعت في عيني. ثمّ غادرنا المكان، بدأت أتحسّس الهواء لكم أنا في حاجة لكلّ ذرّة

منه، لم أرَ الشارع لأكثر من أسبوعين، حتى أن حفيف أوراق الشجر كان يرحب بي وأغصانه تكاد تقبلني، بدأت في الانتعاش ولم يعكر علي إلا وجودها بجانبي، كانت تحدثني بنبرة آمرة:

- ما توقفيش تاكسي أسود.

بعد أقل من دقيقة توقفت أمامنا سيارة أجرة بيضاء كأغلب سيارات الأجرة كانت تنتشر الزينة في أرجائها من الداخل، وكان صوت المذياع مرتفعا للغاية، والكثير من القلائد معلّقة على المرآة، دمية متسخة منسية في الخلف حمراء ذاك الاحمرار الرخيص، السائق مبتهج على غير العادة:

- على فين أن شاء الله.

- كورنيش المعادي أن شاء الله.

وكذلك هم يتنفسون كلمة أن شاء الله،ولا يملّون من إعادتها وتكرارها، لو سألت أحدهم ما اسمك الحقه بـ«أن شاء الله».

كان الطريق نزهة إثراء للعين والروح، هربت من الازدحام الذي يقبع في قاع عقلي، ما أثقل ما تحمل نفسي، مالذي أوقعت نفسي فيه؟ ماحلّ بي كان انسلاخا تاما عن كل ما عرفت في حياتي.

ما الذي سيعونه؟ لو لم نلجأ للبرنامج فنهايتنا كانت ستكون حتما في السجون أو في المصحات أو ربّما الموت بجرعة زائدة، ها أنا إذن أهزأ بنفسي هه.. فأما أن تكون نهايتي في السجن فهذا جنون أو مصحات؟؟ وبحركة لا إرادية وجدتني أتحسس جبيني بيدي، لقد كنت في مصحة بالفعل، قضيت هناك أكثر من خمسة أشهر على الأغلب، باغتتني

المعلومة وكأني أعي أخيرا ما مررت به منذ قدومي إلى القاهرة.،وأدت الفكرة وأنزلت يدي حين انتشلني السائق من وعيي المفاجئ وقال متطلعاً رأسه للخلف:

- هنا ولا قدام شوية؟

أجابته جميلة باقتضاب:

- أيوه هنا يلا يا مونيره.

ترجّلنا من السيارة وحينها استنشقت أكبر قدر ممكن من الهواء، إنّ الملل الذي أعيشه جعل من تحليل الدم حدثا، ولغرزة الحقنة معنى في يومي، وبعد الانتهاء مكثت أنا وجميله ننتظر خارج مكتب الدكتور فتحي، لا أنكر أن جميلة طيبة القلب، فقد تجاوزت تطاولي عليها، ولكن ما بيدي حيلة فأنا لا أستلطفها، فكل شيء يتعلّق بها يثير أعصابي، وبعد تردد تحدثت إليها بشيء من التودّد:

- أنا آسفه يا جميلة على اللي حصل.

- معليش يا مونيره، متعودين على الحاگات دي، بس مش من مصلحتك يتكرر.

وبعد ذلك لذت بالصمت فلا شيء آخر عندي، إن تحدثت معها أكثر سأظلم نفسي، فأنا لا أقوى على النفاق وإظهار عكس ما أبطن بداخلي، داهمتني رغبة ملحة لأسقاطها من فوق الكرسي، لم أشعر هكذا من قبل، فهل يعقل أني أحمّلها ذنب وجودي هنا، لا.. لا هي لا تُحتمل.

ثمّ فُتح باب المكتب ودخلت، بادرني الدكتور قائلا:

- اهلا يا مونيره، عن ازنك اخد المكالمه دي.

أشرت إليه بيدي بأن أعود لاحقا، فهزّ رأسه بالرفض وأمرني أن أجلس، فجلست وتمعنت النظر فيه، شقاء العلم ووقاره على محياه، ما الذي يملكه من خبرات الحياة، هل سمع بمدارس الشوارع؟ لا شك أن وقته من ذهب وتربيته مثالية. وشرعت أناقشه في سري أنت نجحت يا دكتور وأنا فشلت، فالشهادات والتوقيعات الإدارية والمؤهلات العلمية متعددة المصادر قضت بأنك الأعلم والأخبر، لبدأ بناء هندسة جديدة لحياتي وطريق لم تطأها قدماك في يوم ما، فكيف تطبق نظرياتك على تجارب لم تخضها؟

وبعد إنهاء المكالمة يمسح نظارته، يعيد توازنه ويضع سماعة الهاتف ينظر إلي مطولا ثم يسألني:

- ها يا منيرة، ازيك؟

- الحمد لله.

- منيرة إنتِ مش شغاله!

- اكتر من كدا اعمل إيه؟

- انتِ عندك مشكله لا مشكلتين لازم تبدأي تعرفي أن حياتك مش حترتبط إلا بالأدويه، عموما أنا ناوي ازود گرعة الدواء، لغاية ما تهدي ونقدر نتفاهم.

أنتهز الفرصة وأتساءل باستهتار:

- وش المشكلة الثانية غير الإدمان يا دكتور!

- حتعرفي في وقتوا..ثم قام بسحب وصفة طبية.

قاطعته بإصرار:

- من فضلك دكتور أنا ما أبي علاج زياده.

وانفعل بصوت أعلى من العادة وراحت عيناه تتسكعان في وجهي وكأنهما تتأملان لوحة تشكيلية مبهمة:

- عاوزه توصلي لفين، حادثتين لغاية دلوقتي كفاية، مش حنستنا، توصلي للانتحار تاني!

لم يجد صدى لما يقول، استأذنته وخرجت، في طريق العودة كنت لا أفكر سوى في الانتحار. لقد مللت تعاطي أسوأ اختراعات البشرية، هذه الأقراص الطبية أنتجها خبراء قضوا سنواتهم بين السطور. سأستمر في لعبة ابتلاع الدواء بطريقتي الخاصة. لم تكن طريقة سهلة ولكن مهاراتي كانت تنمو يوماً بعد الآخر. أقوم بإخفاء الدواء بخفة تحت لساني وبمجرد ابتعادي عن الأنظار أبصقه. ستنتهي قريبا أعراض انسحابه سأحتمل كلّ التوصيلات العصبية في رأسي المتكهربة، وغشائي الدماغي الملتهب كأنه صفيح من نار وكل نوبات التشنج، ستنتهي قريبا.

عدت إلى المكان،كان هادئا، لم أجد إلا مضاوي ووفاء ومريم، لم يفاجئني هذا الأمر فوفاء لا تقضي إجازتها خارج المكان فهي غير مرحب بها في منزلها جلست لنتناول العشاء ومريم تحكي عن محاولتها البائسة لتعليمي الرقص، انتهزت فرصة غياب عواطف عن المائدة:

- بنات كيف ممكن أهرّب دخان!

- أنا فكرت نشتري كم بكت ونرميه من السور على الحديقه قبل ندخل وبعد التفتيش أحد يروح يجيبه.

أجابت وفاء:

- بس حنوقع امانه كدا.

أسكتتها مضاوي:

- أقول بس خل عنكِ، أنا مستعده.

بضحكة بلهاء من مريم:

- أنا معاكم.

بعد زفرة من وفاء:

- أنا خايفه عليكِ يا منيرة إنتِ مشاكلك كترت وأخاف يرجعوكِ المصح.

عادت عواطف فلزمنا الصمت وأكملنا عشاءنا بهدوء وقضينا باقي الأمسية نشاهد فيلما حزينا أضفى سحابة كآبة أخرى، أشرت لمضاوي أن تتحدث مع عواطف لنذهب إلى السوبرماركت، وافقت بعد جهد ومحادثات مع الدكتور حمدي أن نذهب أنا ومضاوي برفقة وفاء التي قد جاوزت المرحلة الرابعة، أمهلتنا من الوقت خمسة عشر دقيقة وأي دقيقة بعدها بحرمان ساعة من الإجازة القادمة، غادرنا المكان نحثّ الخطى، تأبطت ذراعها وتأبطت هي بدورها ذراعي وسرنا كتلميذات المدارس ونحن لا نكفّ عن الضحك، دخلنا المركز التجاري وتكفلت مضاوي بشراء الحلويات وغيرها من الأشياء التي ستظهر أمام عواطف ووفاء كانت من الارتباك الذي قد يرافق من سيقوم بسرقة بنك، أما أنا فوقفت أمام «كشك»، لأول مرة أتعامل مع بائع بعد كل هذا الوقت ترددت هل أقول له:

- من فضلك سجائر!أو لو سمحت سجائر!

أخذت نفسا واستجمعت شجاعتي وقلت: أربع علب مالبورو لو سمحت.

شعرت أني عارية وأنه يعلم من أين أتيت، ولكن المال الذي استطعنا أن نستقطعه خفية من مصروفنا لم يكن يكفي لشراء أربع علب من السجائر، فأعدت العلبتين وبعد تردد طلبت منه أن يستبدلها بسجائر كليوباترا التي كانت بنصف ثمن المالبورو، أشعلت واحدة عند عودة مضاوي ووفاء، وأنا أشعر بالسعادة لامتلاك هذا الكم من السجائر رغم إصابتي بنوبة سعال جراءها، قمت بإخفائها في معطفي، عادت الفتيات وسرنا عائدات ولسوء الحظ رأيت عم رجب البواب يقف عند بوابة المنزل، فتوقفنا وقمت بإخراج علب السجائر وأعطيتها لمضاوي التي نظرت إلي بحنق:

- كليوباترا الله يحوم كبدك!
- أقول أمسكِ، واحمدي ربك.

اقتربنا من البوابة، فقمت بمباغتته وصافحته:

- ازيك يا عم رجب؟
- الحمدلله يا بنتي، إنتِ ازيك؟
- دعواتك!

بدأت عينيه الضيقة المرهقة تستعجب حديثي، وكاد أن يلتفت إلى مضاوي ووفاء، فقمت بمصافحة يده الراجفة مرة أخرى.

- إلا حضرتك من أي محافظة؟

- أنا من أسيوط.

وحينها كانت مضاوي انتهت من مهمتها، فقمت بمصافحته مرة ثالثة وتركته في دهشته حتى أني سمعته يقول لنفسه: ربنا يشفيكِ..

عدنا للمكان وبعد أن قاموا بالتفتيش، ذهبت والتقطت علب السجائر وخبأتها، كادت مريم أن تثير الشكوك بضحكها وغمزها، هددتها مضاوي إن لم تلتزم فلن يكون لها نصيب مما أحضرنا.

انطفأ جو المغامرة سريعا ولم تنطفئ رغبتي في كسر دائرة الرتابة. تركت الفتيات واستأذنت لأخذ حماما ساخنا، لا يوجد شيء يبدد الملل كالماء، وفي طريقي كان باب مكتب الدكتور حمدي مفتوحا على مصرعيه. أبطأت الخطى ودخلت المكتب لا أعلم ما أريد ولكني وجدت دفترا مفتوحا فوق الطاولة، كتبت فيه أسماءنا بحبر أحمر وتحته سطور بالأزرق، صرخ فضول في رأسي وأمرني أن ألتقط الدفتر وفعلت وخبأته تحت فنيلتي وأحكمت إغلاق سترتي بحذر وأسرعت الخطى إلى دورة المياه وأغلقت الباب خلفي وجلست مستندة إليه، تبينت أن ما أحمل هو دفتر ملاحظات عن النزيلات، أخذت أتصفحه بهدوء ثم بعبثية، حسنا لنرى، أعتقد أن هذه سطور جميلة، يالها من تعيسة حتى خط يدها يخلو من أي أناقة، مضحك هذا السطر:

- البت مضاوي ما بتبطلش رغي في ساعة القراءة، وما بتنضفش بأمانه، وبتنم حتى في طوب الأرض.

كدت أضحك ولكن السطر الذي كتب بعده فاجأني وأوشكت حنجرتي أن تفضحني بضحكة مدويّة ولكنني تداركتها بأن وضعت يدي

على فمي «البنت مريم ممحونه، وبقترح إنوا ما ينفعش تروح اجتماعات مختلط.

السطر الذي بعده جعلني أرفع فنيلتي لأكتم ضحكتي التي لم أستطع أن أقاومها» منيرة ماشيه بدماغها وأنا سايباها لغاية ما تلبس في الحيط، البنت لازم تلبس حلق عشان شكلها كدا زي المومياء».

أغلب الملاحظات مضحكة وباللّغة العامية. وهذه ملاحظة أخرى تعجبت منها «البنت فرح بتعيط قبل ما تنام».

ملاحظة أخرى جذبتني أيضا «ياسمين بتقوم تصلي في الليل».

أصبحت أتنقل بين الصفحات ولا أقف إلا عند اسمي توالت الأسطر « منيرة عنديه، منيرة ما بتنمشي، منيرة مش بتسمع الكلام، منيرة بتقول كلام كبير ومش بيتفهم» «لو الدكتور فتحي عايش معانا، أكيد كان غير تشخيصوا من ثنائية أقطاب وجداني درجة أولى، لدرجة استثنائية».

هنا توقفت وشعرت باضطراب طفيف، بايبولر إذا، هه تشخيص العصر الحديث، يالهم من حمقى، وفي غمضة عين تحول اضطرابي لتجاهل ساخر وطويت الصفحة بانفعال وأكملت.

«منيرة بتسأل طول الوقت عن عبير»!!

وفجأة باغتني طرق مزعج:

- بتعملي إيه عندك يا مونيره!!

أجبت بعد أن ابتعدت قليلا عن الباب:

- الحمم.

وقمت على الفور بفتح الماء، ثم عدت وتداركتها قبل أن تفتح الباب بأن دفعته: مش لا بسه.

- طيب ماتتأخريش.

عدت وأدخلت رأسي تحت الماء الذي كان باردًا جدا واتحد مع برودة ظهري من جلوسي على الأرض، أنتهيت وفتحت الباب بهدوء لم أجد أحدا، تسللت إلى غرفتي وغيّرت ملابسي وأخفيت الدفتر جيدا واتجهت لهن وتنهدت حين وجدت باب المكتب مازال مفتوحا، قمت بإخراج الدفتر وقذفته باستهتار داخل المكتب، لم أمكث طويلا معهن واستأذنت لأنام، ولكني لا أذكر أني نمت ليلتها.

ففي يوم واحد اتهمت من طبيب بمشكلة جدية، بمرض عقلي.

لا أذكر أين رأيتني آخر مرّة

انقضى شهر، لم أعد أنام كالسابق، كم تسللت من فراشي لأدخن بحذر في أقصى المكان، أقضي الليل أنظر في الظلماء حتى تتوهج الأشياء وأراها بمنتهى الوضوح، أعتقد أنني بدأت أمتلك قدرات خارقة، كم أرسلت روحي تحوم فوق منزلي، تعبث بخزائني وتلقي التحيات على أشيائي. حفظت فحيح أنفاس وفاء وسميحة، تأوهاتهم وزفراتهم.

بدأ الإرهاق يظهر على محياي ومع ذلك ازداد إصراري على ألا أتناول الدواء، في هذا الشهر لم أتحدث مع عائلتي إلا بعض المكالمات التي كنت أبذل جهدا قبل الاتصال لإكساء صوتي ببعض المرح، ترسخت علاقتي بمضاوي ووفاء، أما فرح فقد كانت دائمة الانشغال بواجباتها وخدماتها وأصبحت لا تقضي في المكان إلا أربعة أيام، ومريم كانت من السطحية التي تجعل أي حديث معها لا معنى له، كانت كثيرة الضحك، تسقط حقيبتها تضحك، يرتج كوب قهوتها تضحك، تخاطب أحدنا أيضا تضحك، وسميحه كالعادة تصطاد وتظهر عكس ما تبطن.

مدة مكوث مضاوي ووفاء في المنزل كانت تخولهم بحمل هاتف وبدؤوا في مواجهة العالم الخارجي، أنشأت مضاوي علاقة مع أحد الشبان رغم أن ذلك أكثر ما كانوا يخشونه، ارتباطك بعلاقة، ذلك

الفراغ الهائل والفجوة السحيقة التي تخلفها المخدرات خطرة جدا، بئر ماصة بقوة جذب مضاعفة، لم يكن أحد يستطيع أن يخفي امتلاء ذاك الحيز وعند استوطان أحدهم سيظهر للعيان مباشرة، لكن مهاراتهم لم تكن توازي مهارات نظامنا السري الذى طورناه على مدى السنين، مملكتنا أكسبتنا تلك البراعة الوهمية الضارة في تحوير وإخفاء الحقائق، تلك لعبتنا وذاك مجالنا. كانت علاقة مضاوي تتوطد، قد وقعت في شباك غرام شاب فاشل، ملامحه توحي بكل ما في نفسه من قبح شعور وتفضح خفاياه، مقته منذ اللحظة التي وقعت عيني عليه، وحدث ما كان متوقعا استلم بيده جهاز التحكم الخاص بمضاوي أصبح المسيطر الأول والأخير عليها وبدأت لعبته،وأصبحت مضاوي وما تملك له، بدأ مظهره يتغير، كل العلامات التجارية المسجلة أصبح هو ممثلها. وزادت صلعته من قبح منظره فبدا وكأنه مرابي في إحدى مسرحيات شكسبير.

نجلس في غرفة الاجتماعات ومضاوي تهمس بدلال في أذني:

- كيف شكلي، منيرة وكيف شعري؟ يووه بموت عليه.

أرمقها بطرف عيني:

- الحمد لله والشكر من زينه عاد.

هي:

- حرام عليك والله انه يهبل.

نظرت إليه مرة أخرى محاولة اكتشاف ما تراه ويغيب عني فيزيد يقيني أنه شخص مستفز لأبعد حد.

انتهى الاجتماع ومضاوي وشريف لم ينتهيا من تراشق النظرات الشهوانية.

حذرت مضاوي كثيرا ولكنها كانت في عالم آخر لا تعي ولا تسمع، كيف للعلاقات هذه القوة في اكتساح المرأة واستيطانها؟ أعلم أن ما تمر به مضاوي ليس حبا بل هو أسوأ، احتياج وسدّ فراغ، تُعمى فيه البصائر.

ولكني أيضاً كنت في عالم آخر يتقد، عالم لا يخولني الاختلاء بنفسي، كلما نقصت كمية أدويتي كلما شعرت بموجات من الحياة تغمرني، تتصاعد في ومضات من العظمة، حتى مشيتي اختلفت وكأني سأبلغ السماء طولا، أستمتع بالتحدث مع نفسي في الشارع، وأخيرا سمح لي الطبيب بإجازة قصيرة مدتها ساعتان، برفقة سوسن التي عادت إلى المكان مؤخراً، سوسن هذه مختلفة، سعيدة بزواجها، متفائلة وملونة بطريقه مزعجة، كنت أشعر بالخجل منها مما فعلته في حفل زفافها، يختلف شكلها اليوم عن ذاك اليوم على جميع الأصعدة وكأنها ليست هي، تستهلك الكثير من دبابيس الشعر وترتدي أكثر من سلسال، تصدر الكثير من الجلبة حين تتحرك من احتكاك حُليها، أجوب الشوارع معها، الشارع في مصر مسرح كبير، من دون مقاعد وتذاكر، وفجأة انتبهت لمراهق على مرمى نظري، يقف متهالكا، تحتجزه الحياة في حد حاد. حزنه رث كثيابه.

شعرت حين رأيته أن من واجبي إنقاذه من حزنه الشبيه بي وبرقت فكرة في رأسي وشعرت أن بإمكاني إنقاذ روح من كل هذا العذاب. نعم

سآخذ روحه ليفارق كل هذا البؤس ويصبح طائرا في السماء، ربما هذا هو دوري الذي خُلقت من أجله في الحياة. سرت إليه ببطء واقتربت منه لا مبتسمة ولا متجهمة، مددت إليه يدى بطريقة آلية أفزعته وكنت في لحظة من التردد هل أكتم أنفاسه وأرسلها إلى الأعلى وأقوى لأول مرة في حياتي على الإتيان بعمل بطولي، ولكن نظرة الخوف في عينيه جعلتني أمسد على رأسه وأمكث بجانبه، لعنت الدنيا في سري. يوما ما سأخلص حياتي من هذا العدم الهش.

التفت إلى سوسن وجدتها مذهولة، أخرجت هاتفها من جيبها وشرعت بالاتصال. لا أعلم بمن ستتّصل؟

ولكنها قالت لي:

– الدكتور حمدي عاوزنا.

استأت جدا على قطع فسحتي، عدنا واتجهت لمكتب الدكتور.

بادرني بسؤاله على الفور:

– انتِ بتنامي؟

– بنام يا دكتور.

– كم ساعه؟

– مش عارفه اسأل المعالجات!

– انتِ بتاخذي الدواء؟

– في موعدو،

– طيب احنا حنزود مضاد ذهان جديد.

– اللي تشوفوا يا باشا، آوامر تانيه.

نظر إلي بتعجب تحول إلى ضحكة مقتضبة، أومأت له برأسي وغادرت.

لا تنسَ اسمي حرب أمل

أصبحت أفكاري متصاعدة، نحل جسدي فوق نحوله. أشارك في كل شيء، أتعامل مع مهمات التنظيف بجدية مُضاعفة، أصبحت المثل الأعلى في القيام بالواجبات. وقد أشارك بطه في تحضير الغذاء، احتفلنا بعيد ميلاد فرح في حضور والدتها وشقيقتها، كانت ثيابهما تدل على ثقافة أخرى، أحضرتا معهما قالبين من الكعك، قمت بتعليق الزينة والتقاط الصور بكلّ دقّة، حتى أني شاركتهن في الرقص وكأني أنا من يحتفل بها.

ينفذ اليوم ولا تنفذ طاقتي، أثرت التساؤلات حولي والشكوك، ربما خطر ببال الجميع كل شيء إلا أني ماعدت أتناول دوائي، أصابني هوس بالنظافة أستحم كلما دخلت الحمام، حتى أني قمت بحلاقة رأسي مرة أخرى مما أثار غضب الدكتور حمدي وتم إنزالي نصف مرحلة ولم يعنيني الأمر. كنت أقفز من كل مشكلة أقع فيها، وكأني «سوبر ماريو»، بالفعل كنت أعيش في لعبة إلكترونية، مكالماتي مع عائلتي، غالباً ما تسعدهم، صوتي منتعش، أتبادل الطرف مع كلّ من في المكان حتى جميلة..

كان يوم إثنين، اكتفيت بارتداء قميص رغم أن البرد كان قارسا ولكني كنت أشعر بقوة تخولني للتغلب على أي شيء. اتجهنا لاجتماع

الفتيات، حيث يرتفع سقف الحرية قليلا عندما يغيب الذكور عن المكان هم وحكاياتهم البطولية المبالغ فيها فيزيد بالتوازي صدق الفتيات، ودائماً وقت الاجتماعات، أيّا كانت، فهو بالنسبة إلي وقت مستقطع وراحة من أصوات وتعليمات المعالجات، لا يحق لأحد أن يعلق على ما تقول أو أن يقاطعك كان من السهل علي ترويض صوت واحد وتحويله إلى إيحاء والهروب من واقعهم، كانت لدي القدرة على الارتفاع عن ذبذبات صوت المشارك، كنت في عالمي اللامرئي.

قاطعت شرودي مديرة الاجتماع طالبة مني المشاركة، لم أستجب. وكأن نوبة الجنون تستحث كل مابي قبل حضورها.

بدأت مريم المشاركة:

- أنا عاوزه أقول حاجة، أنا بطلت لسبب واحد أنا خايفة على جمالي مش أكثر، بشرتي ووشي، أهم حاجه عندي، أنا عاوزه لما اخرج من هنا أكون على أجمل صورة، عشان خطيبي اللي سابني يندم ندم السنين، أنا اتعزبت اوي، هو اللي خلاني ادمن وبعد كدا استعر مني..

مسحت دمعة سقطت بأناملها الجميلة المطلية بلون أحمر صارخ:

- شكرا دا اللي عندي.

لم أرفع عيني عن مريم وهي تشارك، في النهاية لم تكن دمية خزفية، نقلت نظري من فتاة إلى أخرى، كانت أشكالهنّ توحي لي بنسخهن الحيوانية، حتى أني كنت أرى في جبين كل واحدة منهن قدرها مكتوبا بل أرى أيضا نسخهن المُسنة تأمرني أن أخبرهن أن يطعنها وإلاّ

سيندمن، رحت أفرك عيني بقوة.

تعيد المديرة النداء الذي لم أسمعه:

- مونيره مونيره.

وجّهت عيني مباشرة إلى عينيها وأطلت النظر...

- ممكن تشاركينا!

غادرني صوتي وكأن لا سلطة لي عليه بنبرة مُغلّفة بوقاحة:

- أنا اسمي منيرة مش مونيره، قولوا وراي منيرة منيرره.

أمسح الحضور بعيني التي كنت أشعر أنهما جمرتان، وأبدأ بشبه ضحكة مستفزة:

- أتحداااا لو واحد فيكم مبسوط هنا، محد زي أحد، كلامكم كلووو مايلزمنيش، مهما حاولتم أنا من مكان تاني مختلف تماماً، أنا ما اتغيرت أبد من جيت ولا بحس بحاجة من اللي بتقولوها، وكل خطواتكم دي ماتمشيني متر في السعوديه..

صمت هائل اكتسح المكان والوجوه تعكس ما أقول، أمسح بيدي على رأسي المحلوق وأنظر إلى المعالجات وأخاطبهم:

- أديكو الأمانات مارجعتوهاش ليه!! سلمت ليكو، محدش سلملي ليه!! بعمل كل حاجة بتطلبوها ومبحسش بأي تغيير ليه!! انتو عارفين إيه اللي مصبرني عليكم.. ابوي آه ابوي وبس.

أبدأ بالانفعال وأخاطب الجميع بحروف ساخنة كنت أراها تتكثف أمامي من شدة برودة الطقس:

- أنا قرفت، انتوا كلكم أمواااات، فوقوا! بقى من الكلام الطالع النازل دا.. لو وحده فيكم مبسوطة تبقى كدابه.. فين مستر بيل اللي عمل البرنامج دا يجي ويتفرج على مناظركم ويشوف أشكالكم التعيسة، هو تبطيل بالتطبيل ولا تبطيل بالتبليط.. وأضحك:
- اتحدا حد يقولها خمس مرات ورا بعض. تبطيل بالتطبيل ولا تبطيل بالتبليط..

أقف من مكاني، توجس الجميع من قيامي، فقد كان الغضب يسيطر علي ونظرة الجنون بدأت تشع من عيني، أسير وأقترب من وفاء:
- انتِ فاكره اللي بيحصل هنا حيخلي اهلك يحبوكِ ويرجعوكِ..

ثم التفت إلى سميحه:
- و إنتِ برنامج إيه وانتِ اخلاقك زباله؟

تتدخل المديرة:
- ممكن تقعدي يا مونيره .



ألتفت إليها:
- قلت اسمي منيرة موش مونيره، مش قاعده ومش ساكته إنتِ اللي قولتيلي اشارك ودا اللي عندي ودي طريقتي، البرنامج بتاعكو، ماضفليش أي حاجة بح كلووو بح، ماعنديش منو ويبقى ربنا معايا صح! و لا إيه! مش هو دا الكلام اللي بتقولوه، طبقوا عجزكو عليا، أنا كدا ومش حتغير.. أشارك مين لما أرجع السعودية أنا هاا! أكلم مين! وأقله أنا منيرة مدمنه وعاوزه اشاركك، السماعات كلها اتقفلت في وشي من زمااان أوي.

تقف عواطف وتقترب مني:

- مونيره مايصحش اللي بتعمليه.

مع الانفعال لم أنتبه للمكالمات الهاتفية التي أجرتها مديرة الاجتماع وإحدى المعالجات، انفتح الباب واقتحم المكان اثنان من الممرضين شداد البنية، بمجرد رؤيتي لهما، فكّرت في الهرب واستطعت أن أخرج من باب غرفة الاجتماعات دون أن يمسكا بي، بدأت بنزول الدرج مسرعة وأصواتهما تلاحقني، بدأت مطاردة بيننا لم تستمر إلا دقيقتين استطاعا الإمساك بي، حاولت الإفلات من بين أيديهما ولكن دون جدوى فقد كانا متمرسين مع أمثالي وفي لمح البصر كانت الحقنة قد غرزت بي وفي لحظات كنت قد سُحبت للعالم الآخر.

إذا كنت تجهل ما يدور حولك توقف عن المشي

فتحت عيني بصعوبة وبعد جهد تبينت أني في المصحة فقد كانت زينب تقيس لي الضغط، فانهمرت دموعي على الفور، رفعت يدي أردت أن أخبئ عيني عن الجحيم الذي أفقت عليه فوجدت رباطا يلفها قامت زينب بمسك يدي.

- بشويش يا حبيبتي، حمدالله على سلامتك، ليه حلقتي دماغك!
- كلموا لي اهلي!
- دلوقتي ما ينفعش.

هممت بالقيام وصرخت بانفعال:

- وين الدكتور فتحي، أنا حكلم اهلي يعني حكلمهم، مستحيل اقعد هِنا ثاني.

قامت زينب بالنداء على علويه التي أتت مسرعة، وساعدتها على إمساكي وإعطائي حقنة أخرى.

أفقت مرة أخرى في هدوء صارخ، لا أعلم ما الساعة. تحسّست حبل وريدي، تمنيت لو استطعت أن أنزعه من رقبتي وأقوم بشنق نفسي به. أجبرتُ هذه المرة على المكوث في قسم انفرادي، فقد شكلت

خطراً على نفسي وعلى المحيطين بي، في عزلة تامة وكل شيء حولي يبدو متموجا، هممت بالنهوض فلم أتمالك نفسي فسقطت إثر دوار لف رأسي، حاولت مجددا فعجزت فمكثت على الأرضية وكففت المحاولة.

لمَ أطفؤوا أضوائي؟ استكثروا عليّ الوقت الذهبي الوحيد الذي أحياه، لم يكن مُقدّرًا لي في يوم أن أكون إنسانةً متوازنة، إمّا ممسوسة بجنون عظمة أو مسحوبة في دوامة اكتئاب. أفقت بشهقة قويّة، كنت أتصبب عرقا وبالكاد أتنفس، رأيت في نومي، أني كائن بجسد حمار ورأس إنسان.

حاولتُ دون جدوى ألاّ أغرقَ في مستنقعٍ قذِرٍ، وتكرّر هذا الحلم على مدى ليلتين وكان يزداد بشاعة حيث يُلجم فمي ويمتطيني مارد أحمر اللون بعين واحدة يسوقني إلى إسطبل كل من فيه بأجساد حيوانات ورؤوس بشرية، بعد أن يقوم بربطي، يضاجعني وأنا ملجومة الفم لا أقوى على الصراخ وحين ينتهي يمنحني جرعةً من المخدر.

مكثتُ أربعة أيام بلياليها، محتجزة جسديًّا لا يعمل فيّ سوى عقلي.. وفجأة ظهرت عبير، لا أعلم كيف تسللت، اقتربت مني ومسحت على رأسي:

- وحشتيني، سلامتك .
- انتِ وحشتيني أكثر .
- انتبهي على نفسك أنا لازم اطلع الحين.

حضنتني وغادرت وعدت مستسلمة للنوم.

أخرجوني إلى العنبر صباحاً، حيث استقبلتني نور محب:

- ازيك يا مونيره، شفتِ حماده نجح في المدرسة.

تمنيت الموت لحظتها، أيعقل أن تكون نهايتي مثل نهايتها ولكن ما قضيتي التي حُجزت لأجلها، جلست وجلستِ بجانبي تتحدث، إلى أن ظهرت عبير تسير ببطء شديد، مسحت على رأسي:

- نوّر المكان.

- بوجودك.

- تدرين باقي لي شوي واطلع من هنا.

- الحمدلله أن شالله معد ترجعين هنا ابد.

- وانتِ؟

ما أقصر السؤال الذي لم أعلم إجابته.

أتت إحداهن لم أكلف نفسي حتى معرفة اسمها، ولو كان بيدي لأسميتها: الجاحظ، سرت وراءها لمقابلة الدكتور فتحي، الذي رحب بي:

- اهلا، ازيك يا مونيره؟

- مونيره لازم تساعديني، عشان أقدر أساعدك! إنتِ مريتي بنوبة هوس حادة، ربنا ستر إنها وصلت لحد هنا!

دموعي تنساب وِبسكينة نكستُ رأسي رغم سّكينة سكنت أضلعي، حتى صوتي أبى أن يغادرني يحتجزه اكتئاب شد حباله بعقدة.

- مونيره جا الوقت اللي تعرفي فيه انك مريضة ثنائية القطب، إنتِ عارفة انه بدرجة ارتفاع نوبة الهوس بتساويها عمق درجة الاكتئاب، منيرة إنتِ كنتِ بتتعاطي حاجة؟

أهز رأسي بالنفي وأنا أمسح دموعي.

- إيه اللي صعد النوبة، والأدوية اللي بتاخديها ممكن تسيطر على النوبات

- دكتور الأدوية تخنطني.

- ما ينفعش، لازم تقبلي مرضك والعلاج كجزء من حياتك، منيرة إنتِ كنتِ بتاخدي الأدوية؟

باغتني سؤاله، ولكنني كنت فعلا في أمس الحاجة إلى أي علاج أي عقار طرقت على مكتبه بإصبع:

- لا.

- أيوا كدا يبقى اللي حصل مفهوم، حنأجل أي كلام، لغاية ما يتزبط العلاج وانتِ عارفه انه دا بياخد وقت للأسف.

- دكتور طيب اطلع من هنا واوعدك ما اترك الأدوية.

- اسف ما ينفعش، وارجع اقولك كلو بأيدك.

بصوت مهترىء تكاد الحروف تتساقط منه:

- وش اللي بيدي يا دكتور من ستة شهور ولا شي بيدي.

وفاجأه أن نظرت إلى أثر الجرح الذي في معصمي وكأنه عَلم ما كنت أفكر فيه، اعتدل في مقعده وغير موجة تردد صوته الذي آتى عميقا:

- كل الوقت اللي راح وانتِ قافله دماغك، ما بتسمعيش حاجة، جربي وكلنا هنا عشان نساعدك..

عدت إلى العنبر وأنا أتساءل: أأكون أعاني من مشكلة عقلية؟ لا

يعقل أن الجميع على خطأ. ولكن ما هو الشيء الذي أستحق عليه كل هذا العذاب؟ أتت زينب لإنزالي إلى قاعة الطعام، كان الجميع هناك، بكل البلادة والجنون وعدم الاتزان، فتتسع لعنتي لتشمل كل من تسبب في وجودهم هنا، أخذت أراقبهم، قد تكون نهايتي مثلهم ولكن أهلي لن يتركوني هنا مهما حدث، سأصمت وأنصت!.

أسير بخطى ثابتة بعد أن كنت أسير على رؤوس أصابع

نسيت الزمن، تكثف علاجي فشعرت بهدوء طفيف، أما أفكاري فقد بدأ صوتها يخفت بالتدريج، تجنبت باقي المرضى، باستثناء عبير ونور، اللتين كانتا فرحتين بعودتي، أقضي معهما الأمسيات نشاهد التلفاز، فأشاهد كل شيء وأي شيء، حفظت الإعلانات وأسماء المذيعين وقد أشرح لنور أحداث المسلسل، أصبحت حريصة على الدواء، والهروب من عقلي بكل الطرق، من ترديد اسمي وعدّ الأشياء، كنت أعدّ كل شيء، المكعبات في جدار صالة الطعام، الخطوات، أصبحت مهوسة بالعدّ، حتى أنّي حاولت أن أعدّ شعر رأسي الذي بدأ ينمو ولكن وقت النوم كان الأصعب،في نهاية اليوم حذائي كان في مصح للمختلين عقلياً، لم يكن أمامي سواي لأصبّ عليه لوم مكوثي هنا، فقد طرقوا كثيرا على صندوقي الأسود، وبدأت الحقائق تتضح وتنسل من رأسي أفكار حارقة، تُشعل الحقيقة، أيعقل أن عقلي بهذه القدرة على التضليل، كيف هو شعورك عندما تعلم أن أوّل من خانك هو عقلك. الإحساس قد يخدع والمشاعر غالبا ضيوف مؤقتون أو وهميون.

ولكن العقل هو الأعقل هو من يُفيق القلب ولكنه عندما ينقلب عليك كيف لك أن تعرف! من الذي سيخبرك! كيف تعلم عطب

عقلك إن كان هو المسؤول عن إخبارك! وتلك كانت أقوى الصدمات ضللني عقلي، أين أنا الآن؟؟

حلّ رمضان ورحل بصمت، وكان العيد أشدّ قسوة فتجاهلنا بازدراء كل ما أصابنا من نصيبه.

أصاب إنكاري شروخ غير قابلة للالتئام، انسلخت من كينونتي ورأيت عالمي القبيح وتذكرت عدد الأيام التي لا تُذكر التي لم أكن أتناول فيها أي شيء مُغير للمزاج. وهكذا كان الليل محاكمة، أنا القاضي والمتهم والجلاد.

هاتفت الدكتور حمدي مبكرا لأخبره بأني مستعدة للعودة سبعة أشهر منذ حادثة انتحاري كانت كفيلة بي، حضرت سوسن لزيارتي، حكت لي تجربتها وكيف أنها خسرت كل شيء، وظيفتها وأصدقاءها وعائلتها، أخبرتني أن من يمتنع يكافأ بهدية ولو بعد حين، لا أنكر أنّه لم يكن لها تأثير كبير علي، أحضرت لوحة مكتوبة فيها الخطوات وعلقتها في غرفتي:

«الخطوات الاثنا عشر»

1 - اعترفنا أننا بلا قوة تجاه إدماننا، وأن حياتنا أصبحت غير قابلة للإدارة.

2 - توصلنا إلى الإيمان بأن قوة أعظم من أنفسنا باستطاعتها أن تعيدنا إلى الصواب.

3 - اتخذنا قرارا بتوكيل إرادتنا وحياتنا لعناية الله على قدر فهمنا.

4 - قمنا بعمل جرد أخلاقي متفحص وبلا خوف عن أنفسنا.

5 - اعترفنا لله، لأنفسنا، ولشخص آخر بالطبيعة الحقيقية لأخطائنا.

6 - كنا مستعدين تماما لأن يزيل الله كل هذه العيوب الشخصية.

7 - سألناه بتواضع أن يخلصنا من نقائصنا الشخصية.

8 - قمنا بعمل قائمة بكل الأشخاص الذين آذيناهم، وأصبح لدينا نية تقديم إصلاحات لهم جميعا.

9 - قدمنا إصلاحات مباشرة لهؤلاء الأشخاص كلما أمكن ذلك، إلا إذا كان ذلك قد يضر بهم أو بالآخرين.

10 - واصلنا عمل الجرد الشخصي لأنفسنا واعترفنا بأخطائنا فورا.

11 - سعينا من خلال الدعاء والتأمل إلى تحسين صلتنا الواعية بالله على قدر فهمنا، داعين فقط لمعرفة مشيئته لنا والقوة على تنفيذها.

تحققت صحوة روحية لدينا نتيجة لتطبيق هذه الخطوات، حاولنا حمل هذه الرسالة للمدمنات، وممارسة هذه المبادئ في جميع شؤوننا.

الصندوق الأسود لطائرة محطمة

عدت للمكان صباحاً، أول من استقبلني مضاوى:

- اسفرت وانورت، يختي وحشتيني.

- انتِ بعد.

- عطيني اخبار المصح؟

- المصح ما فيه اخبار فيه اختبار!

ثم أقبلت وفاء وياسمين وخلفهما جميلة التي لم تتح لنا فرصة الحديث:

- يلا يابنات ساعة القراءة.

بعد أن وضعت حقيبتي في الغرفة، التي علمت أن ياسمين أصبحت تشاركني بها، فابتسمت واتجهت للمطبخ وهناك بطه التي سعدت برؤيتي:

- يا صباح الفل، والله المكان وحش من غيرك.

بعد أن قبلتها:

- الله يسلمك يا بطه إنتِ وحشتيني.

- عاوزه حاجه يا عنيا؟

- لا تشغلين بالك، بصلح لي قهوة!

- صلحي اللي إنتِ عاوزه بس اهم حاجه تصلحي قلبك.

ابتسمت ابتسامة تبددت حين ظهرت جميلة:

- أيه يا مونيره حنبدأ من أول يوم!

من غير أن ألتفت:

- دقيقتين لو سمحتِ.

وأنا أنتظر غليان الماء، سرحت في أنبوبة الغاز تلك كم تخيلت الموت بسببها، لن تكون نهاية بطولية. ماتت بسبب أنبوبة غاز، يا الحماقة من عنته سمعته بعد موته، أيقظني صوت جميلة:

- الدقيقتين خلصلم أهم ولا حنعد من جديد.

تنهدت في سري وفكرت هل لي بأنبوبة الغاز الآن لأحترق ولتحترق سمعتي معي. سكبت الماء على القهوة وانضممت للقراءة، تناولت الكتاب الأزرق وشرعت في قراءته من أوّل صفحة:

«من هو المدمن». كنت أقرأ وأكرر القراءة لم أنتقل من الصفحة الأولى استوقفني هذا السطر: «اعتقدنا أنه طالما يمكننا الامتناع عن التعاطي لفترة، فأننا إذا بخير». وأعيد قراءته.

إذاً في شريعتهم الامتناع عن التعاطي لفترة ليس بالدليل أنه لا توجد مشكلة، بطريقة أخرى ليس شرط الأدمان التعاطي كل يوم، أكملت القراءة إلى أن استوقفني سطر آخر: «ليس مهم كمية ونوعية المخدر التي كنت تتعطاها».

حسنا أعتقد أن كل ما أحتاجه لأثبت لهم بأنني لست مدمنة وأغادر من هنا سريعا أن أدرس هذا الكتاب جيدا، وأنفي عني ما ليس بي. كلمة تعاطي لا تشملني، أنا مستخدمة ولست متعاطية إذا هذه القاعدة لا تعنيني.

بددت مضاوي أفكاري، حيث مررت لي ورقة في الخفاء مكتوب عليها:

- شكلهم ضبطوك، خفي شوي من الدور يا فتكات.

كدت أن أضحك وتجاهلت القراءة، وأصبحت أتبادل النظرات معها ومع وفاء، فحس السخرية والتهكم لدينا يجعل من الصعب أخذ الأمور بجدية، وإن فعلت فخشية من نظرة الآخرين. أصبحنا نتبادل الرسائل، عندما تجبر على شيء سخيف بأن تصمت مثلا، تعود طفلا ويصبح العصيان قمة المغامرة. ضحكنا ونهرتنا جميلة بشدة، وهكذا انتهت ساعة القراءة ونحن نتبادل الرسائل من تحت الطاولة.

وكعادة الأيام بهذا المكان مضت الساعات ببطء كئيب، كحلزون يتكوّر ويعود لقوقعته حين نهمّ بدفعه للسير، اختلفت أحاسيسي، تارة أشعر باستياء وتارة بغضب وتارة بأمل سرّي لكن غير عقلاني، تجدد بغضي لجميلة الملاصقة لي، تحدثت مع أهلي فكانت تلك المكالمات هي الشيء الوحيد الذي يمنحني جرعة من الصبر، عاهدت نفسي أن أحتمل من أجلهم، رغم مقولة الدكتور حمدي الدائمة:

- اللي جاي يبطل عشان حد تاني مش حيقدر، الواحد لازم يبطل عشان نفسو!

حين خطر على بالي ظهر بابتسامته ودعاني لمكتبه، اتخذ مجلسه ونزع نظارته عنه وابتسم:

- ها يا مونيره حمدالله على السلامه.
- الله يسلمك يا دكتور.
- لما كلمتيني صوتك كان صادق.
- صراحه الأجواء المحيطه حولي كانت تخلي مجرم محكوم بالإعدام يعترف
- ممتاز هوا دا بالضبط اللي أنا عاوزه منك.
- ما فهمت!
- بصي يا مونيره كل المطلوب منك، تقولي دماغك بتقولك إيه، مش مهم احنا بنفكر في إيه أو بنحس بأيه المهم احنا بنعمل إيه، يعني أنا والمعالجات حنسمع منك أي حاقه دماغك تقولها، أن شالله كانت بتقولك اقتلي، اضربي. الأسرار خطيره جداً، شاركي أفكارك، أول بأول ومحدش حيحاسبك عليها.

تبادلنا النظر، ثم استرسل:

- ممكن اقولك حاجه؟
- اتفضل.
- انتِ منغلقة ذهنيا، إنتِ عارفه أن أغلب اللي يعتقد أن متفتح ذهنيا، يكون اكتر واحد منغلق، بصي يا مونيره، التفتح الذهني أهم حاجة في العلاج طبعا بعد التسليم والتقبل، العقل خطر جدا، سيطرتو اخبث من انها تنشاف، الضلالات اللي بيخلقها

جوانا صعب اكتشافها، تعرفي تسيبي كل حاجه تعرفيها وتسمعي من غير خبراتك وثقافتك وتاريخك تسيبي مساحه نظيفة وتسكتي وتسمعي، أنا عاوزك تاخدي مشرفه، عشان تبدأي تشتغلي البرنامج، بعد أي اجتماع شوفي مين من البنات الموجودين، تناسبك.

- و كيف أعرف، من الشكل؟

- حتعرفي مين، ركزي في مشاركات البنات وشوفي مين بيشبه دماغك.

- طيب ليه مو رجال، الرجال اكتر؟

- ما ينفعش، عشان ممكن تتحرك المشاعر وتبدأ علاقه.

- يوه، وينها هالمشاعر، جفاف يا دكتور.

- جفاف إيه بس، التعاطي بيوقف نمو سن الرشد العاطفي، المهم اتفقنا، أي حاجه تقولها دماغك، خرجيها.

وانتهى الحديث، صافحته فشدّ على يدي، وعدت إلى غرفتي يشغلني التفكير بأن أفعل ما اتفقنا عليه.

ينصرف حبي مبكراً

وقعت في غرام القاهرة، وأصبحت مصر أمي، فهمتها على مهل، عشقت دروبها وشوارعها المتشابكة الحاضنة لبعضها رغم اختراق النهر لها. الأزقة والبيوت والأسواق، نُقشت في ذاكرتي، تسلّل سحرها وسيطر على قلبي، بعد أن رشفت من نيلها وتلحّفت بدفئه.

ليس هناك من هو أقوى منك أيّها المصريّ، تسامر الغلب فتقهره بسخريتك فيفقد هيبته. أدمنت شرب القهوة في مقاهي وسط البلد، بدت لي روحها أجمل وأعرق من مقاهي أوروبا مجتمعة. حفظتها وحفظتني من همي.

بعد فترة اعتمدت على عجلة في تنقلاتي.. ازدحام هائل وأنا أسير بين العربات وكأني طفل في لعبة متاهة،أصل إلى وجهتي وقد تلحفني السّواد والرضوض من كثرة الاصطدام ولكني كنت أتحرر. في موطني أبسط وسائل الحياة لم تجرب هي أمنيات بالنسبة إلينا، الخيارات قليلة والحركة الجسدية محدودة، أبسط وسيلة تنقل: «القدمين» لم تستخدم إلا في مجال مغلف مكيف ضيق ويلومون اهتماماتنا بالمظهر.

مضى الشهر الأول بهدوء وأنا أطيع الأوامر وألتزم بالجدول

وجرعات الدواء. أفرغ بعض أفكاري وأبوح بأفكار أخرى ملتوية من نسج خيالي. يعتقد الجميع أني أصبحت كتابا مفتوحا ولم يعلموا أني فتحت أمامهم كتابا آخر. ورغم تحرري وحبي الذي نما مازالت هناك، أي لم أشعر بالعجز أمام كل ما يفعلون، وعقلي أخبث من أن يتركني بسلام، أتأرجح بينهم وبينه.

جلست فرح أمامي، مازلت لا أحبذها، لن أنسى أول مشاركة لي عندما أردت الإقناع بعدم إدماني، رمقتني بنظرة استهزاء. كالعادة صوت يخترق سمعي:

– مونيره ممكن تشاركينا؟

بعد تنهيدة هزت أضلعي:

– أنا عندي اعتراض على موضوع إني آخذ مشرفة.

لم أكد أنهي كلامي وإذ بفرح تنتفض في مكانها ويتهدل صوتها كسجاد يفترش المكان:

- إنتِ فاكرة نفسك مين، مين حضرتك اللي ممكن تقدر تتطاول على اللي بنعملوا.. فوقي بقى.

تقاطعها صفاء:

- خلاص يا فرح.

تستمر دون أي وعي:

- أنا بقى لي 40 سنة عايشة في الدنيا الوسخة دي، والبرنامج هو الحاجة الوحيدة النظيفة في حياتي. أنتم كدا الخليجين شايفين نفسكم.

لم أتمالك نفسي ووقفت:

- إيه التعميم دا بقى أنا حرة و....

ردّت من غير أن أكمل جملتي:

- بيتهيأ لك إنتِ مسجونه جواكي.

رمقت الجميع بنظرات كالسهام وغادرت واتجهت إلى دورة المياه وفتحت الصنبور وقمت بغسل وجهي عدة مرات.

حين فتحت الباب لا أعلم كيف ومن أجبرها للحضور. مدت إلي يديها واحتضنتني. لا أنكر أنها أسقطت جميع الاستياءات من نفسي. حينها ولأول مرة أستوعب أني لست هنا لوحدي وأن هناك أرواح قد تكون تعذبت أكثر مني. جرتني من يدي وعدنا للاجتماع. كانت وفاء تشارك إلى أن سقطت دمعة من عينيها، أشعرتني بضالتي. تلك الدمعة كانت كالدوامة ابتلعتني مرة أخرى داخل نفسي. اللّعنة على نفسي عزلتني عن المحيط الخارجي.

في ذلك المساء شعرت أن حيّز الأمان بدأ يضيق، لا أعلم مهما حاولت الانتباه لا أجد أي رغبة في الاندماج.

التقت عيني بفرح، ابتسمتُ فابتسمتْ بدورها ووميض أعيننا يلتمع وبلا شعور تعانقنا. وأكملنا يومنا الرتيب. في ساعة الراحة، قررنا أنا وفرح أن نترشف قهوة وبدأت الأحاديث بيننا تتسابق، هالني كيف غفلت عن الاهتمامات التي نتشارك بها، واستمر حديثنا الممتع ونحن ندخن، فقد كانت شرهة في التدخين مثلي.

ماذا يعني أن تعي؟

خفت صوت رأسي فجأة، رحمة إلهيّة غمرتني، بعد أن كانت أفكاري أعقد من أن تُفسر، تتسرب وتتلوى على حبالي الصوتية إلى أن تتطاير حروفها للخارج بمعاني مختلفة عما أردت قوله، وبدأ كتابي المزيف يتمزق وتظهر سطور مني، أنا نفسي تفاجأت بها. آمنت بالمشاركات وهي أساس من أسس العلاج، أشارك في كل شيء حتى في ما أريد أن آكل! أردت أن أفرغ رأسي تماما، لم نكن نشارك فيما مضى! أو ربما كنا نشارك كثيرا ولكن دون أساس المشاركة وهو الصدق، نحيط بعضنا بهالات وهميّة تحتم علينا الالتزام بها، لم يخبرونا أننا عاجزات أمام أفكارنا وأحاسيسنا. لا نملك حولا لها ولا قوة. رغما عنك قد تطفو أفكار سوداوية في رأسك وقد تتخيل أشياء مخجلة، تصرفنا بالعكس كنا نظهر أفكارا جلية وأحاسيس راقية ولكن الأفعال كانت قبيحة. العكس ما كان المطلوب، التحدث عما بدواخلنا والتحكم بأفعالنا،مجرد أن أرفع سماعة الهاتف وأطلب المشاركة حتى من مجهول مدمن سيرحب بي بمجرد اعترافي بأنني فرد من الجماعة، حتى لو كنت أعلم ما الذي يجب عليّ فعله كنت أحتاج أن أخرج تردد الفكرة من رأسي وأعيد سماعها. كانت المشاركة اختراعا بالنسبة إلي والأغرب أني

كنت أنفذ بالحرف ما يقال لي، من إعادة ترتيب فراشي أو القيام بمهمات صيانة أو البحث عن من يحتاج مساعدة.

بعد اكتشاف المشاركة آمنت بالأمانة وحفظتها عن ظهر قلب. تم غسل دماغي وأصبحت نسخة شبه نموذجية لفرد من جماعة محدودة المفردات والأفعال.!

في إجازتي الثانية، طلبت من الطبيب أن أقضيها أنا وياسمين، وكان هذا من الممنوعات فلا يحق لنا أن نقتسم إجازتنا مع من يقطن معنا في نفس الغرفة، فلربما استطعنا أن نتفق على ارتكاب «معصية» مشتركة، ربّما نكون قد ناقشناها في اللاّوعي من خلال الأحلام ونحن نيام. وافق الطبيب بعد استجداء وعناء. وأخبرت ياسمين بالأمر وأنا فرحة وفرحت هي من أجلي لا أكثر. أخبرتهن بأني سأصطحب ياسمين إلى كورنيش المعادي، حيث من المخطط أن نقضي ساعة على ظهر مركب ثم نتناول العشاء في مقهى يقع في الشارع الخلفي لمركز علاجنا، فإجازتي مازالت قصيرة.

و هكذا كنا نمسك أنا وهي بأكواب القهوة على ظهر مركب شراعيّ وصوت أمواج النيل الثقيلة كسمفونية من صنع فرعوني. ووجه ياسمين الدائري وعيناها العسلية وخصلات شعرها المتطايرة تُبقي الاشتعال حيّا، قَدرت تلك اللحظة لأن الوصول لها جاء بعد طول عناء. سألتها:

- إيش أكثر شي يخوفك في الدنيا؟

دون تفكير أجابت وكأنها تعلم جيداً ما يخيفها:

- الحنين.

- إيه تعتقدي أكثر شيء كان السبب في وصولك للمكان دا؟

وأجابت أيضا دون تفكير:

- الإحساس بالعجز التام.

لم أجد إلا الصمت، فأنا لا أطيق المواساة، بل أجزم أن أسخف أنواع المواساة أن تنصح أي إنسان بحب الحياة وأن يحبّ نفسه. نعم بعد فترة من التعايش مع أجساد أخرى.. يبدأ الجمال بالحضور بعد أن استوطنت الاختلافات والفروقات.. الجمال الحقيقي لا يحضر إلا هكذا.. وليس الجمال المختال المحتال الذي يباغتك، لم أتكلم ولم تتكلم، فقد احتجنا ذلك الهدوء، أكثر من أي شيء آخر.

عدنا في الوقت المحدد، وغادرت ياسمين لإكمال إجازتها خارج المكان.

لا قادر قدير مقتدر غيرك

فتحت جميلة الباب بوقاحتها المعتادة:

- الدكتور عاوزك!

شعرت بسوء قادم، وكأن الهواء تلبّد فجأة ودقات قلبي تضطرب. تبعتها حيث وجدت الجميع يتجمهرون حول الدكتور فتحي الذي ابتدأ الحديث:

- انتوا عارفين يا بنات إن مرضنا دا ما لوش علاج، التعافي نسبتو مازالت ضعيفة إحنا بنحاول قد ما نقدر على مرضنا ونحاربه. اللي حقوله دلوقتي تنبيه ودرس للجميع. بكل أسف ياسمين انتحرت، بأُوفر دوز،نسبة عالية من المخدر.

نكست رأسي وامتصتني هوائيات دماغي جمدتني بقنوات فكرية مرعبة لم تجرفني منها دموعي المسكوبة. لماذا لم أشتم رائحة الموت في حديثها! لماذا لم أنظر إلى قاع عينيها وأرى خيالات الموت فيها؟! آه يا ياسمين!

أيقظتني أصوات النحيب وانتقلت عدوى اللطم واجتاحت الأكف.

وعلى الفور تم استدعائي من قبل الدكتور فتحي:

- أنا آسف يا منيرة وحاسس بألمك بس إنتِ آخر حد كان معاها ولازم نفهم. ما قلتليكش حاجة قبل ما تنزل إجازتها.

لم أحتمل ما قال، وبدأت دموعي بالانسياب.

- معليش ربنا يرحمها بقى.

- أكيد ربي بيرحمها، هو الوحيد اللي يعرف وش كانت تحس.أنا اللي ما حسيت والله ما حسيت بأي نية كانت متفائلة وتقول إنها حتروح تجيب لأمها هدية وتفاجأها وتحاول تتصالح معاها، وكانت تقول إنّها متأكدة إن المرة دي حتتصالح وترجع تعيش معها. اسألوا أمها جايز هي السبب..وبدأت في البكاء.

مرّ الأسبوع الموالي ثقيلا على الجميع، حتى هبات الهواء كانت أثقل، وتدفقات الضوء كانت لزجة، بالكاد نتنفس، ومضات وجه ياسمين تظهر في كل مكان، قمت بنزع صورها وعوقبت لذلك. لست من النوع الذي يفضل الاحتفاظ ببقايا الراحلين، من رحل فليأخذ معه كل شيء.

في الأسبوع الثّاني بعد انتحار ياسمين، اجتاحتني نوبة غضب عارمة، فقدت سيطرتي كعجوز هرمة تسير وتتنبأ بجهل قومها. كرهت الجميع وقسمت ذنب ياسمين عليهم حتى على كنبتها المفضلة التي احتوتها ولكن النصيب الأكبر من الذنب كان لي. طالبت بإصرار زيارة قبر ياسمين، صحبني الدكتور حمدي عصراً، لم نتحدث طوال الطريق، وبمجرد ترجلي من السيارة توقفت أمام البوابة الصدئة وشعرت بسكينة وكأني سأدخل لمعبد، أسير بخطى خفيفة وباحترام جم وبين

كل فينة أنحني وألمس تربة الأرض، إلى أن وصلنا إلى قبرها، بركت بهدوء حذر وإذ بشلاّل من حنان ينسكب من كل ذرّة من جسدي وكأنّ كلّ كياني تحول لحبات رمل مكوّنة من حب خالص حُرمت منه وحرّمته على نفسي. هبت رياح باردة وتلاشيت كلي وتناثرت أتطاير شوقا فوق القبور، أدمدم بكلام لا أفقهه، لغة حصرية فقط خُلقت لهذا الموقف، ارتفعت في نزولي واختفيت، حتى أيقظتني يد الدكتور حمدي من صلاتي، وغادرت كما دخلت بكل احترام جم.

لم تتوقف دموعي في طريق العودة تمسح الأتربة عن وجهي. أعصر روحي مناجاة لله إلى أن استقرت عند تعميق قناعة بأن هؤلاء لا يعلمون أن من يقدم على هذا الفعل يكون خائر القوى العقلية والروحية. فقد فعلتها سابقاً.

أردد قول محمود درويش: لم يعد أحد من الموتى ليخبرنا ما الحقيقة!

اصمت عن أهل الأرض تتحدث إليك السماء

لم أعد كما كنت.. شغلني التفكير بأنني فقدت جزءا مني. جرعات الألم المتكررة تنخر الروح، يستغرب الآخرون حساسيتك، ولكنهم لا يعلمون عمق جراحك، وأنّ أي حادثة ستلطخها دماؤك.

كنت متكئة على المقعد وأشعر أن المساء تأخر عن الحضور، ربما قرر ألا يسقط على هذا المكان المليء بحنين ممزوجٌ بأنين.

وفجأة دخلت عبير إلى المركز، قمت لا شعوريا باحتضانها وقبل أن أنام تلك الليلة شكرت ربي فقد شعرت أنّه قريب مني.

أضافت عبير روحا للمكان، أسكنوها مع فرح في نفس الغرفة، استاءت فقد كانت لها غرفتها المميزة في المصحة. كانت أصلب الموجودين، لم تكن تتحدث أو تشارك، عندما يطلبون مشاركتها.

لم تكن تؤمن بشيء بتاتا، حتى كاد الجميع أن يُصاب باليأس. أكثر بصمة تركتها في المكان منذُ قدومها هي الموسيقى الخليجية. في ظهيرة الراحة كنت أتحدث معها بالنظرات والإيماءات، وخلفي كانت تجلس فرح وسميحة التي عادت للمكان مؤخراً ومعهما عواطف، غدت بعض الكلمات والجمل تصلني رغماً عني.

- هم كلهم السعوديين عندهم فلوس كدا، بصوا البارفانات اللي بيستعملوها دي لحالها حاجة محصلتش.

دعمت عواطف الحديث:

- غير مصاريفهم اللي أهلهم بيرسلوها كتير.

- هي مصاريف وبس إنتِ شوفي الحاجات اللي بتوصلهم دا كل وحدة فيهم معها آيبود ولاب توب.

تدخلت فرح:

- دي مش إنجازتهم، أهليهم بيصرفوا عليهم دول مبيعرفوش قيمة الحاجات، مابيعرفوش معنى الاستقلالية، دول يغرقوا في شبر ميّة، غير الأنا المتضخمة جدّا عندهم، انتو ما بتسمعوش قصص اللي بيشتغلوا هناك والإهانات على الطالع والنازل.

غادرت مكاني وجالستهم على الطاولة:

- ما أقدر أنكر كلام فرح، إن إحنا مانعرف يمكن أي نوع من أنواع الاستقلالية وأن إحنا عندنا إحساس بالتفرد وأن أحيانا الوافد ما يجد الاحترام اللي يستحقه في بلدنا.

قاطعتني:

- إنتو تعرفوا إيه عن الغربة!

- أعرف نوع ثاني من الغربة إحنا أجيال متعاقبة من البنات نعيش وسط أهالينا ومتيقنين إنّهم على استعداد يذبحونا لمجرد أن نفتح قلبنا ونقيم علاقة حب متكاملة، يمكن مانفهمش إيه يعني حرمان بالضبط وممكن انتو ما تعرفوش يعني إيه محرم.

لو كانوا أهالينا من بدري خلونا نعتمد على نفسنا مادياً يمكن عرفنا قيمة الحاجات زي ما قلتِ، أكيد على هرم «ماسلو» أن الأمان والغذاء، حاجات ما تتقارن بغيرها دي حياة أو موت، بس خوذوها مني بعد كدا كله بيتساوى، الألم واحد. إحنا حتى مافي علاقة بينا وبين الشارع، إحنا بلد فقير معنويا وفقير جدا. دا غير الأمان المادي اللي بيخلي أي حد من الصعب إنه يجيب قاع، ويضيع عمره بيتفرج على الحياة من غير ما يعيشها.

قطعني استدعاء الدكتور حمدي لمكتبه. طرقت بابه وجلست، ابتسم وسألني إن كنت أرغب بشرب شيء، شكرته وبابتسامة منه:

- لأمتى حتبقي هربانة؟ مفيش فيكِ إلا الطفل اللي عندو سبع سنين وفيكِ كمان الشخصية المثالية اللي شغالة تجلد في الطفل بس إنتِ مش هنا.،انتِ ما بتديش نفسك فرصة، عشان كدا دايم بتدوري حد يمارس سيطرة تامة عليك من المحتمل إنّك بتحمي كل شخص استغلك عشان تحمي نفسك من الظهور.

رغم عمق كلماته إلا أنها كانت تحلّ علي ولكن لا تحلني.

يعلو صوته:

- سرحت في إيه؟ في حالات بسبب عدم الأمان العاطفي وغيابك عنك، يبقى أي حد يسكنك ويعيش في وجدانك ومايلقاش فيك إلا الطفل فيروح سايبك وتنهاري.
- أنا مش بنهار على حد.
- لا بس مش قدامهم، فكري في الكلام اللي بقوله إزاي حنعالجك

لو إنت مش موجودة جواك!

- أنا تحت أمرك، لو قدرت تلاقيني، يسعدني إني تتعرف علي.

- عاوزك تكتبي، عشر مواقف عملت في حياتك، عاوزهم بالتفصيل، ونحكي الأسبوع الجاي. لغاية ما نبدأ العلاج السلوكي المعرفي.

- يوه يا دكتور احنا لسه حنبدأ، عن أذنك.

عدت للفتيات، كانت مضاوي في نقاش حاد مع فرح.

وقفت بينهنّ أحاول تبديد الشحناء:

- كفاية يا بنات، الحوار عبثي وغبي، أنا ضد التصادم تحت شعار الهويّات، أدري إنه صعب نتجرد من مكنوناتنا الموروثة، العرقية والدينية وبرمجتنا الأساسية، لكن الإنسان يبقى إنسان، محد أحسن من حد، إلا وش العشا؟

كانت عبير تنظر من بعيد ولا تشارك كالعادة، ووفاء تحرّك رأسها في كل مرّة تجاه من تتحدث وعلامات التعجب بادية على وجهها، في حين كانت سميحه توزع ابتسامات كلها سخرية. أمّا أنا فقررت أن أنسحب وأتوجه إلى المطبخ. وهناك كانت تقف بطه:

- حبيبتي ملابسك في الدولاب.

- الله يسلمك.

- بقولك إيه يا مونيره، إنتِ متغيره أوي.

- التعافي بقى، ولو إني مش عجباني، أصلا الإيجابية بتنرفزني.

- أيه الإيجابيه؟

- خديني مثال حي قدامك.

- كلامك يا مونيره معقد!

- أصلي كلي، عقد.

- ربنا يستر عليك.

- و يخليكِ يا رب بس الدعوه دي بحسها شتيمه.

- ليه بقى!

- عشان الحاجات الغلط دايما مستوره.

- الحب متغطي بس مش غلط.

جلست أنتظر العشاء وجوّ من التوتر مازال يطفو، شعرت أن الصمت كفيل به.

أي حلم كنت فيه !

دقّ جرس المكان، قامت جميلة لتفتح الباب:

- مين! الو.. الو بقول مين. أيوا استني لو سمحتي.

فتحتْ الباب وغادرت. إنّه روتين معتاد، إما أن يكون عامل الغاز أو الصيدلي! كنت أجلس قبالة الباب. وفيما أنا على تلك الحال، إذ دخلت جميلة ولمحت خلفها طيفا يدخل الغرفة بخطوات حثيثة. كانت هي، لم أصدق عيني. هالة تحيطها، كأنها كتلة ذهبية حطت في المكان المقفر، نجمة وسقطت في الصحاري. عيناها كياقوتتين. في لمح البصر اشتعلت كل حواسّي وأخذ الدم يتدفق في عروقي. وكل كلمات الترحيب تتراقص في صدري، ركضت نحوي:

- منيرة حبيبتي.

طرت من مقعدي وحضنتها بكل قوتي، كانت أجمل مما تركتها، نظرت للفتيات وقدمتها لهنّ عسى أن يناهلنّ ومضة مما نلت:

- نورة أختي.

قام الجميع ليرحب بها وفي ظلّ هذه الفرحة الغامرة. تنبهت لمظهري الأشعث، خشيت أن أترك المكان. خشيت أن يكون حلما وقد

أعود ولا أجدها.

لكني آثرت أن أهذّب من هندامي. دخلت غرفتي وفتحت دولابي أبحث عن أجمل ما لدي من ملابس، يجب أن أتأنق في حضرة هذا الموقف، أردت أن لا أخطئ في شيء.

قرّرت بإصرار أن أذهب معها لقضاء الليلة في فندقها، مانعوا ولكن إصراري حطم كل التعاليم. أما هي فلم تستطع التخلص من استيائها من تدني مستوى المكان. بمجرد مغادرتنا، قامت بكل ما تستطيع لتدليلي، من مساج وثياب جديدة وتهذيب شعر، وحين عدنا للفندق، تيقنت أن نورة لم تبالغ باستيائها من المكان.

دخلت للاستحمام،بعد أن طلبت مني إفراغ حقيبتها التي كانت مليئة بمستلزمات وثياب أحضرتها لي، وشرعت بفتح أول حقيبة، تناهت إليّ رائحة منزلي توقفت لبرهة لكي أتماسك، وأكملت مهمتي ولكن الرائحة أخذت تتسرب وتطرق على باب ذكرياتي بعنف أكثر كلّما قمت بأخراج قطعة أخرى، تسلّلت الرائحة بعنف إلى أقصى خلية في رأسي تنفضها، أصبحت أعمل وغيمة من الأشكال والأصوات تحوم فوق رأسي أجبرت دمعتين أن تهطلا بقوة فوق وجنتي، قمت بمسحهما على الفور، لن أسمح للحزن بتعكير صفو هذا المساء ولكني أعلم أني أسير على حافة الوقوع في فجوة مظلمة خلف آخر باب مغلق في روحي رغم انخفاض الاكتئاب ولكن لقاء عائلتي يرهقني، وجدت مجفف الشعر وقمت بإيصاله بالكهرباء، وقبل أن أعود للحقيبة، غادرت نورة دورة المياه:

- الله الله وش هالدلع!

- هذا أقل شي يا حبيبتي.

- و الله وغيروك يا منيره.

- ماشفتي شي، اقعدي خل أنشف شعرك.

وبالفعل جلست وبدأت بتجفيف شعرها وفي كل مرّة أقوم بإدارة مفتاح مجفف الشعر للأسفل لأسمع ما تقول فأجيبها وأعود لأدارته للأعلى، أهي رحمة آلهية أن لا أسمع صوت نورة إلى الآن إلا من خلف ضوضاء أو جدار، يكفي ما فعلته بي الرائحة.

ثم قمت للاستحمام بدوري. وكانت المرة الأولى منذ زمن أن أغلق فيه بابا علي، قمت بنزع ثيابي وأسرعت للدخول تحت الماء الغزير المنسكب، كان عناقا طبيعيا يستوجب التبجيل والطاعة المطلقة، أطلت المكوث في المياه لعلّها تتلبسني أكثر حتى تكاد تصبح جسدي، وفي التحامنا ارتشفت بعضها، ازدادت المياه مجونا وتخللت مساماتي واتحدت مع أوردتي حتى كدت لا أعلم إن كنت كائنا أسطوريا، وبعد أن غادرت هذا الاجتياح المباح نظرت إلى انعكاس جسدي في المرآة، لاحظت أنني اختلفت كثيرا ولا شعورياً كنت أقبلني قدر ما استطعت، حقّا إنّ المكان هو ما يكسبك المهابة!!.

بعد الانتهاء من الاستحمام، الذي لم يكن قصيرا البتة، ارتديت بيجاما متناسقة أحضرتها لي نورة أشعرتني بإنسانيتي من جديد، اتجهت للجلوس على المقعد الوثير بجانب نورة في الشرفة التي تطل على النيل. لم يتوقف الحديث بيننا برهة، وهي بالكاد تشرب رشفة من قهوتها بادرت بغتة:

- منيرة صراحة بعد ما شفت مكانك أنا أبي أرجعك معي.

تفاجأت:

- معاك!

- أنا شايفتك كثير أحسن.

ابتسمت بشدة وقمت وحضنتها.

- بس يا منيرة يا عيوني لازم تعرفين أن الموضوع موب هالسهولة!
- كيف يعني؟!
- يعني إنتِ ما تتحملين أحد يتدخل في حياتك، وبصراحة الثقة ما اعتقدت بترجع بسهولة، أوعديني ما تتنكسين؟
- أوعدك وترى هذا شي ما أنكره وما فهمته إلا بعد شهور من قعدتي هنا، ما كنت أحسب اني مدمنة أبد.

ثم أكملت بحزم:
- كنت غلطانة، طيّب أنا غلطت.

بذلت ما في جهدي لطمأنتها بأنّي لن أعود لفعلتي. انتهى النقاش، واستلقينا على الفراش ولم ننم ليلتها، أفقنا نفتعل نشاطا قلقا من فراق محتمل، أفطرنا وأخذتها لمكاني المفضل مقهى وسط البلد ثم المتحف المصري وكانت المكالمات لا تتوقف بينها وبين والداتي وبعد كل اتصال تحاول أن تطمئنني بأنها تفعل ما بوسعها، هاتفنا الدكتور حمدي لحضور الغذاء في المنزل، الذي لم تستطع نورة المشاركة فيه إلا مجاملة، بعد الغذاء قضى الدكتور حمدي وقتا طويلا مع نوره. وبمجرد مغادرتها مكتبه علمت أنه نال منها، وكما فعلت أمّي فعلت هي وجلسنا في الحديقة.

استجمعت قواها:

- حبيبتي مصلحتك فوق كل شي.

- نوره أنا قربت أعدّي السنة وشوي وأنا ما أتعاطى شي ولا عندي أي نية.

- الموضوع مو بس كذا حبيبتي.

- وش الموضوع اجل؟

- لا يا حبيبتي إنتِ بس للحين موضوع عبير.

- عبير وش دخلها!! يوه نورة إنتِ كنتِ مع الدكتور وش قالك؟

- ما قال شي.

انفعلت:

- لكم ساعة مع بعض ما قال شي؟

زاد ارتباكها:

- منيره حبيبتي، بعد شوفتك حسيت أنك طبتِ بس سامحيني للأسف ما كنت أدرى أن الإدمان مرض ماله علاج وبعدين الموضوع أكبر مني ومنك، صدقيني رجعتك السعودية بتكون فيها تحديات مو بسيطة، أمي كلما أحد سأل عليك، ألّفت قصة لين هي نست وش قالت بالضبط، أقاربنا ما وقفوا يحكون..،كم شهر ما راح تضر.

- بالنسبة لكم هي كم شهر بالنسبة لي سنين.

تراقص ذقنها وبدأت الدموع تنساب من عينيها وتُغرق حقائب الهم الملقاة على ساحل عينيها، حقائبي أنا:

- تحسبينه سهل علي أنا مو عايشة، أنا مو قادرة أسامح نفسي أصلا

كيف أهملت اتصال هند وطقيت بابك باستهتار ومشيت. كان ما صار اللي صار، الانتحار أنا السبب فيه وبدأت في البكاء.

تحدثت بودّ:

- كم مرّة نحكي ونعيد هالسالفة أنا ما انتحرت.

أمسكت معصمي بقوة ودموعها تتناثر وعروقها استنفرت والكلمات بالكاد تغادر حنجرتها مبللة: - ووذا ذا وشو!!!

حينها تذكرت على الفور واستوعبت مقولة والداتي لي في زيارتها للقاهرة بأنّني لست الضحية الوحيدة، بكاء نورة هزم كل جيوشي دفعةً واحدة. لم تهزم جيوشي فقط بل سقطت أنا أيضا صريعة، شعرت بالخزي واجتررت كلماتي خائنة لنفسي وافتعلت ابتسامة:

- الأيام تطير طيران، أصلا المفروض نصيح عليك إنتِ اللي بترجيعين لرقعة الشطرنج، قومي نروح نشتري هدايا لأهلي قومي حبيبتي.

وهكذا انتصرت نوره. لطالما كان سلاح الدموع كفيلا بانهزامي، افتعلت أقصى المرح وقضينا اليوم في التبضع والتسكع.

حان الوقت، عانقتني وهي تتحاشاني، ورحلت في المساء، نحن نودع بعضنا بالكلمات فقط وتأبي الروح أن تفارق. كم من شخص ودعته وأودعت روحك عنده، لو كان للوداع أعين لأصاب العالم العمى من إطباق الجفون لحظة ابتعادهم ولكرهك لمنظر الدنيا من خلوهم. هذا ما حدث بعد رحيل نوره. لأول مرّة شعرت بكره نحو مي وخالد. وكرهتني أكثر.

كنت أحدهم

تخطيت رحيل نورة لا أعلم كيف؟ فقد اعتدت أن أفيق قبلهنّ لأختلي بنفسي قليلاً، أروّض شعوري، لتقبّل الأزمة الوجودية المتكررة. كنت كممثلة تستعد لأداء دورها، تجد «السكريبت» جاهزا ملقى بجانب رأسها، فلم أجد أنه من المنطقي زيادة حوارات لشخصية قد تساهم في رسم وجودي خارج حدود عالمي الذي كان بانتظاري.

وبدأت إجازتي تمتدّ، ولم أكن أعلم ما أفعل بكل هذا الوقت، أكثر ما كان يشغلهم إيجاد وسائل متعة غير مدمرة لنا، المدمنون أشخاص فقدوا القدرة على الحياة دون مخدرات وأضاعوا طريقة استخدامها، البعض ما عاد يعلم كيف يختلط بالبشر أو يتحدث أو حتى أن يدخل الحمام دون تعاط، لا شيء في الحياة يصلح لشيء دون شيء من المخدر وفجأة نواجه الحياة بكامل قوانا العقلية. نصبح كالأطفال المبتدئين.

مضاوي وأنا وعبير كنا نعاني، لا مجتمع ولا عائلة لدينا هنا.

استوقفت وفاء التي كانت تعبر بجانبنا، وسألتها أين يمكن أن أقضي إجازتي، أجابت ببرود أنها ستذهب لحمام التلات في الحسين،

بمجرد سماعي لموقع إجازتها قمت على الفور بإخبار عواطف بأني سأرافق وفاء، لم تمانع البتة. استيقظت يوم الخميس مبكراً، وذهبت أنا ووفاء لحضور اجتماع وسط البلد، ولأول مرة أشارك في اجتماع:

- مافي شي في حياتي اسمه أسرار، الأسرار منطقة خطرة لتوالد الأمراض الروحية، الأمانات اللي وقعت أعترف بيها أول بأول، عشان ضميري ما يثقل. مفيش حاجة بتعبيني من داخلي زي الأمانة.

ثم تحدثت بأن الأمانات والاستياءات محاور جوهرية لا تُرى أو تلمس ولكنها الأساس. الأمانة هي الشيء الوحيد الذى قد يجعلك تجد بعضك، كحبات رمل تتساقط وتعبئ الفجوات الداخلية، تعيد بناء كياني تردم الشروخ بهدوء، أفيق من النوم وأنا أشعر بامتلاء طفيف تخلل روحي، يساعدني على التماسك ليوم آخر يسمو بي عن دونيتي. ثم تحدثت عن الإنكار بأن لا شيء يقع فجأة لا شيء ينسحب فجأة. هناك علامات قبل وقوع أي كارثة. لا نعيها، كل المؤشرات الخارجية تصرخ ولكننا محنطين في دوائر. منشغلين متجاهلين الأفكار، والإنكار يجعل كل شيء مخفي ولا يمكن رؤيته. لم أقابل شخصا في حياتي لا يسكن بعضا من زواياه العمياء.. ابتلاء إلهي، الحل الوحيد أن أنفتح ذهنيا وأحيط نفسي بأشخاص صادقين..

نحن المدمنين المجهولين.. وهبنا سرّا من أسرار الحياة. انعكاس تأملي «رفلكشن». سلاح للحياة مفيد جدا. نرصد فيه اليوم ونفرغ كل الاستياءات.. نغسل أرواحنا وننشرها لنفيق ونجدها ناصعة.

أسهبت في مشاركتي،أردت أن أسمع نفسي على أمل تثبيت ما أقول في تفكيري الإزدواجي. ثم ختمت بأني كلما عاندت أفكاري أو كبحت نزواتي تقوت عضلة الإرادة لدي.

عجز، تسليم، أمانة، تقبل، تواضع وشكر.

ثم غادرنا أنا ووفاء إلى الحسين. سرنا مسافة في أزقتها، إلى أن وصلنا إلى مبنى قديم، ودفعنا بابا متهالكًا لونه أخضر كاد يسقط عند ملامسته وبمجرد دخولنا، اختلف كل شيء. سيدة سمينة تجلس وراء آلة حاسبة وهو الشيء الوحيد الدّال على الحضارة المحتضرة في ذاك المكان المنسي. تلفّ رأسها بمنديل أحمر باهت تتدلّ منه كرات قطنية نصفها متآكل، حولها سيدات شبيهات بها، بدأت أشعر بتوجس. بعد أن انتهينا من دفع المال ولجنا ساحة كبيرة جداً، تتوسطها نافورة صدئة بلا حياة، وسيدات يسرن بعضهنّ عراة والبعض الآخر ما يسترهنّ من لباس مبلل يظهر كل التقاسيم. وبمجرد أن اقتربت منا اثنتان وباشرتا في نزع ثيابنا قمت بجر وفاء من يديها واخترقنا زحام النسوة، بعد أن أصابنا الكثير من البلل باحتكاكنا بعرّي أجسادهنّ الرطبة، لم يكن بالأمر السّهل النفاذ منهنّ، اجتاحتنا نوبة من الضحك بمجرد نجاحنا، أكملنا سيرنا ولم نتوقف إلاّ عند مقهى بعيد عن هذا المكان الغريب، بعد أن أشعلت سيجارة:

– والله لو غيرك اللي وداني ذا المكان كان وريته شغله.

– لا يا مونيرا دا مكان عريق.

– أيوا عريق جداً من أيام كليوباترا.

- بتتكلمي جد.

- كليوباترا مين يا وفاء، أعوذ بالله من مكان حتى الأجسام اللي فيه ما تفتح النفس على الأقل.

- تعرفي نفسي في إيه اشوفك وانتِ ضاربه!

- حنشوّش على بعض ولا إيه!

- مش قصدي بس وانتِ فايقه تحفه أمال وانتِ ضاربه تبقي عامله ازاي.

- ما أحب أتذكر.

- بس اكيد كان فيها أيام يعني جميله!

- طبعا البدايات بس بشاعة النهايات بتمسح كل حاجة.

- لدرجة دي، أنا كنت فاكرة بس اللي بيضرب هيروين بيمر بالبشاعه دي، البت مظاوى دايم بتعايرني وتقول إنها مش بتاعة حقن وشم وتقول إن الحبوب حاجة مش حرام وفرح كمان بتقول إنها بتاعة كاس ومزاج وماهاش في القرف زينا.

- صدقيني الإدمان واحد النوع والكمية ما تفرق!

- ازاي بقى؟

- يعني أنا بشوف مثلا تعاطي الحشيش من أصعب أنواع المخدرات فيه بشاعة خبيثة، بتخلق متلازمة عدم الاهتمام والحياة تتسرب من بين إيديه وهو مش حاسس وبيكبر حاجات تافهة ويصغر حاجات مصيرية، وتبقى عنده مفاهيم مغلوطة تحتاج سنين عشان تتهد، وأصلا المدمن يتعاطى عشان ينفصل عن الواقع بس طبعا الواقع بيمشي مع الوقت ومستحيل الوقت يوقف،

فلمّا يفوق المدمن بيحاول يرجع لخط الزمن، بيركب غلط لأن الواقع سبقه، ويعيش متأخر وناقص عمر، يعني بيفضل يجري وما يوصلش. غير إنه نادراً ما تلاقي صاحب السيجارة بينجز ويحقق في حياته حاجة، في النهاية كل مخدر له طريقه.

- مش فاهمه، بسطي والنبي!

- يعني مضاوي تقصد أن إدمان المهدئات يعني الحبوب ما تخليها تشعر بذنب وتأنيب ضمير أو ضآلة. بالمصري كدا بتاع الحبوب دايم بيحس إنه ما بيعملش حاجة غلط لأن التعاطي يكون في لحظة، كباية مويه وبلع الحبة وبقى في السليم زي غيرو، مع أن الحقيقه القاع هنا أصعب، عشان أعراض الضرب تبان على طريقة التفكير وتحويره وعلى الأمراض اللي ممكن تصيب الدماغ غير الغباء الأكيد، بتاخد وقت أطول. في حين، مثلا البودرة (الهيروين)، ظهور أعراض الإدمان وانسحابه بتبان بسرعة، عشان كدا يتهيأ لي يعني (الحقن والسرنجات) أسرع حاجة تجيب الواحد للقاع حاجة صعب جداً تستخبى كتير وممكن يبقى انقاذو أسرع. والجميع بيشترك في حاجة وحدة في اعتقادي، إن المدمن عمرو ما بيشوف نفسوا، وبيحس وهو ضارب انه دمه خفيف وعبقري وفاهم الدنيا وجايب أخرها.

- ليه كلامك متشربك كدا، هو إنتِ مخدرك الأساسي كان إيه؟

- إيه يا وفاء دوختيني معاكِ، افهمي بقى، كلو زفت في زفت، إنتِ عاوزانا نقوم من هنا نضرب!!

- خلاص ما تعصبيش، أنا حقوم آخد لفة وارجع لك.

أومأت لها برأسي وأشعلت سيجارة أخرى بعد أن أشعلت وفاء أفكاري، لم أكن أحبذ الكلام عن الماضي، كنت في وحل..

عالم التعاطي بدايته ساحرة، حفلةصاخبة، زوارها متجددون لا ينتهون، والجميع يغادر عداك أنت، تشهد امتلاء القاعة وخواءها، تملّ الموسيقى والرقص، تنظر للفوضى المخلفة وراءهم ويجب عليك عند بدء الحفل أن تكون منتعشا وبنفسية متجددة، تحاول ولا تستطيع فقد حكم عليك بالمؤبد. تنظر للقادمين تتفاجأ من نشوتهم يضحكون ولا تضحك، ترى حماقتهم ولكن بأي حق تحذرهم من هذا الحفل المحفوف بالفخاخ، ما دمت في نفس المركب، تتلاشى المتعة بالتدريج لتصبح في وضع مأزقي معلّقا لا تستقر في أيّ وضع ولا تستكين بأيّ حال. جسدك يصرخ للتوقف ولا تستطيع. يلازمك الشعور بالخفقان والغثيان، تخلط المهدئات، بالمنشطات علك توازن التركيبة ورغم ذلك، لا تقوى على التوقف، تدخل في أوهام وخيالات مريضة، حالة يمحى التمييز بها، لا مفر تخسر كل التحركات. كجندي في رقعة شطرنج يسرع لخط العدو عله يتبدل بفيل أو حصان، وما أبعده عن هذا الخط، ستهزم وتُذلّ قبل الوصول. وحين يعتاد جسدك على كمية الجرعة يصبح من الصعب الشعور بالامتلاء إلى أن تزيدها وصولا إلى الجرعة الزائدة غالباً المميتة.

عادت وفاء ولم أعد بعد من نفسي، بقيت صامتة إلى أن عدنا للمكان وخلدت للنوم مبكراً، فقد اعتدت أن أفيق قبل الجميع لأصرف منيرة القديمة عني، التي كنت أجدها تنتظرني على فراشي بمجرد استيقاظي تهزأ بكل ما أفعل.

ثم أرتديني وأختلي بنفسي الجديدة، أروّضها، لتتخطّى أزمتي الوجودية المتكرّرة كلّما عدت من النوم. كممثلة أستعد لأداء دوري، أجد السيناريو جاهزا في كتاب التأمل. فلم أجد أنه من المنطقي زيادة حوارات لشخصية قد تساهم في رسم وجودي خارج حدود عالمي الذي كان بانتظاري.

دائماً هناك توقيت محدد ولا يمكن أن يمتد

تكثفت الجلسات بيني وبين الدكتور فتحي، لم أكن أمانع، فقد احتل هذا الطبيب مكانة ثابتة لدي، رغم إزعاجه لي بالأسئلة. لم يكن يملك عصى سحرية ولكن كل ما كان يفعله أن يزور معي الماضي ويأخذ بيدي لأرى الحوادث من زوايا أخرى على أمل أن أتصالح مع ذاتي.

كلما حضرت لزيارة المصحّة أقابل بحفاوة ابتداء من البوّاب إلى كلّ شخص أمرّ به إلى أن أطرق باب عيادة الدكتور فتحي وأدخل. وفي آخر زيارة قابلني بابتسامة كعادته.. أحببت الدكتور فتحي بالتدريج وكان ذلك من أصدق أنواع الحب.

نظر إلي مطولاً وابتسم:

- ماشاء الله صحتك بقت احسن.
- الحمدلله.
- منيرة، أنا عارف أن في حاجات كتير لسه ما تكلمناش فيها ولازم نبدأ نفتح كل الأبواب القديمة.
- اللي فات مات.

- مفيش حاجه اسمها كده اللي فات ما متش هو عالق جوا ولازم نخرجوا، إيه اللي خلاكِ تدمني؟

- اول حاجة أنا مكنتش اعرف اني مدمنه، دلوقتي ممكن اقولك أن اللي خلاني ادمن ولا حاجه.

- ازاي؟

- عشان ولا حاجه أدمنت يعني أنا ماعنديش حاجه يعني الخواء هو السبب.

- ازاي ما عندكيش حاجة وانتِ بتشتغلي وعايشه مع اهلك!

- دي أساسيات وخانات في الحياة.. نعبيها بس مش شرط تعبينا.

- إنتِ خجولة صح؟

- اتوقع.

- طب مش يمكن يكون هو دا السبب.

- انت لطيف يا دكتور مش عاوز تقول عندي دونية وعدم ثقة. دي حقيقة. تعرف لما تتولد وتحس أنك ناقص مهما عملت انت مش مليان. تدخل مكان ما تقدرش تحط عينك بعين حد. أنا عندي انكار للذات يا دكتور.

- ممكن في حاجه عملتيها أو اتعملت فيك خلتك كدا؟

- مش شرط، عارف زي ما يتولد انسان عندو اعاقه. صباع زايد. مشكلة في النظر. أي حاجة من عند ربنا، في ناس بتتولد ناقصه حاجات معنويه. زي ما تقول طوبة مفقودة في البناء الداخلي.

- مونيره.

- دكتور.. الواحد اتفضح، واتكشفت كل اوراقه خلاص في حاجه أكتر من اللي عملته معايا الدكتوره هناء. تلات جلسات تفريغ.. أنا مولوده حساسة جدا ومكسورة. جايز وقعت وأنا صغيره!

- احنا حنقلبها هزار؟

- مش انتو بتقولوا أن الإدمان مرض يبقي أنا مريضة من ربنا وصدقني أعرف كتير زيي.

- مش حضغط عليك أكتر من كدا.. أنا سمعت انك مش بتثقي في حد ودي مش حاجه جديده أغلب البنات السعوديات بيعملوا معانا كدا! منيرة، لازم تبدئي تفهمي يعني إيه ثنائي أقطاب والانتحار وارد جدا، وانتِ عملتيها مرّة!!،انتِ حبيتي واترفضتي؟

- شوف دكتور كلمة الرفض تغطي على أي كلمة بعدها، الرفض هو سبب تعلقك باي أحد.

- ازاي؟

- ممكن ما تكونش بتحب الشخص للدرجة دي بس لما يرفضك تتعلق وتتمسك فيه أكتر وأكتر، وتعتقد أن مرهم جرح قلبك المرفوض، يكون عند اللي جرحك وحده هو وبس، وكل ما كنت ضعيف كل ما الطرف التاني قرف منك.

- اترفضتي من كم شخص!

- من العالم كله، اترفضت من نفسي!

- منيره إنتِ بتحبي نفسك؟

- المحبه من الله يا دكتور مو بيدي، بس أقدر أقولك اليوم اني أحترم نفسي.

- يعني مش بتحبي نفسك!؟

- دكتور قاعدة الحب الاحترام ولو ما قدرت أحب نفسي ولا حد في الدنيا حيقدر يخليني أحبها أكيد احترامي لحالي وأمانتي ممكن تبني مودة بيني وبين نفسي.

بعد أن نظر إلي مطرقا:

- مونيره الوقت بيمشي والتقدم بسيط. وما فيش وقت لعنادك، الزيارة الجاية تجيني وانتِ كاتبة باختصار قصة حياتك وأيه اللي وصلك للإدمان!

- يوووه.. تعبت وأنا احكيلكم.

- إنتِ بتقولي أي كلام وبس.

أطرق على ركن مكتبه وأقف:

- طيب يا دكتور .

- إيه كمان بتنهي الجلسه بمزاجك. مش مشكله أشوفك بعد بكره.

- اديني وقت اكثر دكتور ما اعتقد على الأحد اقدر.

دون أن يلتفت:

- يوم الحد وشكرا .

- وعبير يا دكتور.

كان قد عاد للغرق في الأوراق التي أمامه.

أترك مكتبه وأسرع إلى عجلتي، وأنطلق أسلك طريقا أطول، رغم الازدحام والاختناق في بلد يضرب بها أبواق السيارات سواء كان الطريق فارغا أو مزدحما، فعليا ما الذي حدث لي، لا أعلم ولا أريد أن أعلم، منذ زمن لم أشعر براحة لماذا يصرون على إزعاجي، لا أنكر، أن للتكرار قوة تجعل من الفكرة بذرة تُحرث في رأسك، رغم علمي بتربة رأسي البور ولكن إصرارهم كان يحطم الصخور الفكرية ويحولها إلى فتات، تحولوا جميعهم نقيض ماكنت أراهم، كان العلاج في نظري بدائي وسطحي، رغم تأثيره البطيء، أليست كل الأشياء في الدنيا تنمو وتتغير من غير أن يلاحظها أحد، تتفاعل كالشيخوخة تدب بهدوء.

وصلت إلى المنزل. وترجلت بتكاسل. فقد كان ورائي واجب كلفت به وأعلم أنه يجب أن أقوم بحله لأنحل من هنا. في ساعة القراءة بدأت أكتب وأمزّق، كنت أراني ولا أعرفني، فعلا كنت أجد صعوبة في كتابة نبذة عني وعن سبب إدماني إذا كنت أنا لا أعلمه.

هل فعلا كنت أتعلّم ما أعلم؟

جاء الغد ولأول مرّة في حياتي أشعر أن الغد فعلاً يحضر، ذهبت بعد استجداء لإيصال الرسائل إلى الطبيب، وضعتها في ظرف ودفعتها بقدمي من خلال فتحة الباب السفلية وكأني لا أرغب في أن يجدها وغادرت على الفور قبل أن يراني أحد.



خالطت فاختلطت، أفرطت فتطرفت واستوطنت الحواف، أخبرني صديق قذر أن أمكث في الحواف فهي لا تعتقد، ولكنه لم يخبرني أنها دوما متسخة.
عشت أبحث عن إطار يمحو ازدراء، كفرت بالعشق وكرهت الحب.
ادراج لذاكرة من الجلطات المكسورة اختلطت، لا أعلم من فعل ماذا ولماذا؟ الكل جان في نظري سامحت ولكن ما صالحت.
إن كنت تعتقد أنك فاهمني صح: فاهمني خطأ أرجوك..
لا تأخذني على محمل جد، فنعكس وتمح أساوأنت.
حين كنت لم أكن، فأصبحت أغرز في الدونية وأسقني من دمي بدهاء خبيث، لتعلو نظراتكم كل ما أفلحت في الهبوط لأثير أسوأ غرائز البشر فيكم "الكبر"، ولكي تشعروا بالخير في أنفسكم على نحو يخولكم لسحبي.

أسمي منيرة نصفي حقيقة ونصفي الآخر خرافة، أمي لا أعرفها جيداً رغم التصاقي بها، والدي أعظم رجل في العالم، ليس كما تعتقد بائع لفتيات، ماذا تريد أن تعلم لا شيء يستحق الذكر هنا، في سن مبكرة سقطت أشياء من قلبي وروحي ورحلت اعتقد اني مكونة حاليا، ممن لا أعلم من يا ربما سأعود يوما.
لا اعتقد ان طفولتي غريبة.. كنت أول من يحصل على الألعاب.. دراستي لم تقنعني يوماً.. كنت عادية في المدرسة لا شيء يستحق الجهد هناك.
الحب لم أصاب به. مجرد علاقات عابرة.
ماذا ايضاً ماذا ايضاً.. أرأيت ليس هنالك ما هو مميز! نعم نعم، أعتقد أني كنت من النوع.. بل لم اكن من أي نوع وربما هذه كانت مشكلتي، أحاول أن أساعدك يا دكتوري لترتاح من كل هذا.
لو كان البشر أنواع مختلفة من الجماد سأكون من النوع الهلامي الذي قد يوضع في أي مكان.. كتكملة عدد. او قد يسقط بين الجدار وخلفيه خزنة مهجورة في غرفة بائسة. او الفراغ الذي قد تسمع صوت صدى بلعه لريقه، لا شيء كان يوحي بهذه النهاية التراجيدية، نعم كنت مترفة مرفهة لحد ما.. ومع توفير كل طلب، يزداد اتساع الشرخ وعمق الهوة الداخلية التي لم يحبهما شيء، كل كالمخدر

لم أملك حلم طفوله ولم أسعى لأعيش حلم الشباب ،

فقد أكتشفت أن كل استراتيجياتي كانت وهمية.
وكتوري.. دكتوري.. لا شيء هنا وكتأرجح فقد
كنت سرحانه حزينة منذ الصف الرابع ابتدائي،
لم لأخبرك شيء كنت أموت كل يوم وأفيق بروح جديده
ربما الغربه هي من سببت ذلك.
أعلم انكم حاولتم اخراج ما كان غائراً في عمق سحيق
بكل لطف ولكن لا شيء هنالك يستحق كل هذا
العناء والوفاء.
بنائي الداخلي مهزوز تسبب في اهتزاز حبالي الصوتيه فيخرج صوتي نشاز..
كل ماتقع عيني عليه أمتحه هكذا خام كل مايشار إلي به أتلبسه.. جاهزة
لتبني اي مقوله او نظرية لا قاعدة ثابته لي.. لا تحتاج لإقناعي بأي شيء
أنا مخلوقة مقتنعه ومقنعه فلك أن تتخيل كمية الخراب الداخلي.. اتهمني
فقط وأترك الباقي علي.
روابطي بالأشياء ضعيفه كخيوط عنكبوت... أعيش بالفبركه وأدعي
أنها بركه.. تأكد أني املك مواهب سامية ولكن الأهداف
هي التي كانت ساقطه.
مع كل ما اوتيت، لم استطع ان أأتي.. اسير على حافة الحياة وبين فينة
والأخرى انظر لا مشيراري، فاتسمر مكاني.
ولهت عوالم كثيرة الانفس لم ألجها.. أخبروني مبكراً أني لا أعرف
مصلحة نفسي، فما سعيت لها يوماً، علمت أن المسبب الأول للعداوة
الصداقة فما صادقت.
احاديثي متطايرة فما استقرت في أذن، عشت وليدة اللحظة لست
مسؤولة عن شيء ولو كان قبل دقيقتين.
شملت بكل شيء الا عنايتهم.. حساسه من الرأس الى الأساس.
اضاف انا احرج الناس واخشى فرط الحنين. فشلت في
الأصطناع العضوية خامتي.
كل ما حاولت شرح نفسي أجدني أشرحها
فقتلت المحاوله وعفت التكرار، فلتجد فيّ
فيما سأقول للأذن: أعتقد أن سبب بداية
النهاية كان. أن كل شيء أستمر في الاستمرار إلا أنا

لم أتوقف عن ابتداع دوري، رغم ان الستائر أسدلت

والمسرح اصبح فارغ.. وبالتدريج ماتت كل الأشياء

المهمه وتركت السخيفه وراءها تعيث فسادا في المكان.

كل ما مضى، مضى ورائي.. اتطلع للخلف فلا يسرني

ما أرى.. فأتطلع الى الجنب لا أرى احد.. فأغمضت

عيني للأمام.. اقيس الوقت بمقياسي الخاص، حين ابتت

يترنح كل منا حولي عقاباً لي على الحوث فرحلت وقررت

ان اذهب الى حيث اكون مرغوبه لا مقبوله ولم أجد

كالجنون ولكني لم أكن أعلم أنه حافة الجنون حد حاد

كالسيف.

قد أستيقظت في يوم ولم أرى انعكاس وجهي
في المرآة، فصدت خطوتين الى الوراء والتقطت أقرب شيء
الى يدى ورميته باتجاه المرآة، فرأيتني بعد أن تحطمت
فقررت عدم إصلاحها، قد أدميت يدي وأنا
أحاول أنا أرمم شروخ كل ما كسر في حياتي قد
تركت ما يكفي من البصمات.
تمنيت مهارة روح تغادر جسد وتتركه وحيداً
متكأ.. وحين أعود أركله ثم أرتديه مرة أخرى.
أشعر انى متهمة بالعيش فأصبحت بمجرد مقابلة
أي جزمة جديده أكرهها صامتة
أضع نفسي تحت الأقدام

أوفر الوقت قبل أن أداس

أستكثر حتى الهواء الذي استنشقه، لست منكره ذاتي بل منكرة وجودي، فلو وجدتني يا حبيبي الحبيب أفعل ما تشاء.. نعم كيف يدمن من ليس له وجود..

نسيت أن اخبرك، يقبع في خلفية مخيلتي عميل مدرب موكل بإنجاز مهمة انتحاري لدير يعني.. كل ما أرجوه أن يقوم بذلك بطريقة مُشرفه كالكيميكازي وأصبح أول ساموراي سعودي..

شكراً طال عمرك

رسالة عبير

لا أصدق أني أطيعكم أيها البلهاء، سأكتب
مرغمة علكم تتوقفون عن أزعاجي يا حمقى،
حسناً، من هذه اللحظة سأرمي بكل اللوم على
غيري، قد اكتفيت من تطبيق كل هذه
المهاترات والهرطقات، نعم لن أطبق
عجزي بعد اليوم، أنتم من ستطبقون عجزكم
علي، انا لا أكره لأني ببساطة لا أشعر
+ قد توقفت عن الشعور منذ زمن، حين
كنت أشعر تألمت فقد كانت خطوات كل
من يعبر أمامي تدوس أعماقي، لما خلقت
بهذه الحساسية وكأني رادار لقياس
كل الترددات الغير مرئيه
والموجات المخفيه.

أفيق كل يوم وأشعر بذنوب العالم كلها على
متوني ولم يعتقني أحد، ليتهم تركوني
أهيم بلا راعي ليتهم دعوني للضياع
لم أرغب في خانة أوضع بها وأنا

وأنا موسومة بختم لا ينزول، بختم الحذر على
كل من يقترب ~~مني~~ مني،
ألم يكفني احتمالي للروحين اللتان بداخلي،
فالذي فعلتموه بي عندما كنت لا أعي، فالذي
أخل بطبيعتي وحبنوستي. نعم أذكر الهدى
جيداً، نعم مازلت أذكر وأنا في الخامسة من العمر
اذكر شعوري نحوها وبهجة قلبي عند قدومها
وبكائي عند ذهابها، حينها انبثقت وانطلقت
اول بوادر انفتاق الأيمان العاطفي في شخصي،
ليست لدي نعومة أظفار لكي استشهد
بوقتها ولكن لدي خشونة في بشرتي وقروح
في جلدي من قل الأهتمام والرعاية، ثم أتت
سميرة الفتاة التي في العاشرة والتي كنت
أحلم والتي كنت أحلم بها كل ليلة واجلب
لها كل ما أملك من أغراض ودمى والعاب، علها
تتقبلني، نعم كل ما كنت أحتاجه هو ~~الحب~~
القبول، فقط أن أحب (ربما)

ورقية في الرابعة عشر التي رحلت بعد وفاة
والديها وحزنت عليها فصل دراسي كامل، وفي هذه
الأثناء وصدري في بروز أخفيته بكل الحيل
كأدلة محرمة، كرهته بفجنته كنتوء كفن
ينبت في جسدي، لففته بكل الخرق التي أملك
بكل خوف وحذر خلف الأبواب وكم تسبب
ذلك في التهابات وتقرحات جلدية من
عفونة الخرق التي لم تُغسل إلا ~~نادرا~~ نادرا
وأخيرا ارتديتها رطبة لا وقت لتجف فقد
يُفضح أمري، أنام خائفة وأُفيق مرتابة
أتحسس هل اختفى صدري.
وجاءت ~~الطامة~~ الطامة الكبرى، عند أول
سقوط قطرة دم رأيتها في لباسي الداخلي
الذي عادة ما يكون مبهرج [illegible] الكريه
فقد كانت مؤونة أجبارية ~~ك~~ وكسوة
احتيارية منهم. كلها تصنيف شذرات
أنوثة

بمساس يُوقف كل ما بي، كنت سحيقة
مسحوقة وأصبحت تسلية وحقل تجارب لكل محطوة
انوثة أو جمال، يزحفون علي ولم أرفض
بربكم كيف يرفض المرفوض، ~~المرفوض~~ المرفوض
يغدو ~~ككلب~~ ككلب الشوارع سيألف من
يطبطب عليه من الماره بألفه، نجاة كانت قحبة
وكنت انا سبب لا أعلم ماكنت ولكن الأكيد
لم أكن أدافع عن نفسي، هذا ماكنت استحق
~~أنا من ملكت روح لست لها، سجينة جسد~~
~~مشوه،~~ جاموسة بين النساء، كرهت جنس
النساء والرجال، كم أُذيت صدري وجرحت
حلماتي بعد كل تواصل جسدي مع أحدهم.
لم أمقت شيء في حياتي كصدري حينئذ
ولم يدري الصغرى الاثنى حادثة حمقاء، حصل
فيه تقارب بيني وبين أمي، دعوة زواج
لقريب لها، وكأنها ~~لهو~~ لأول مرة تكتشفني
تكتشف هذا الكائن الغريب الذي يسكن

منزلها، فقدت ~~عدوت~~ عدت طبقات
من الأشرطة والخرق تلفّ جسدي، كجلد
ثمين فوق جلد، ابتاعت لي رداء من غير اي اعتبار
وكأنه تجليدة لكتاب او سترة لكنبة،
وقفت بين يديها كل ما بي يرتجف، تعربد بي
الأحاسيس وابذل جهد مضاعف لأخفاءها
وهنا بدأت مرة اخرى انقباضات داخلية من نوع
آخر، شرعت في نزع ملابسي وهالها ما رأت
من خروق الأقمشة وكل تلك الطبقات التي
تطبق على صدري، اشمئزت ولم ألومها.
وحضر ما هربت منه كثيراً حمالة الصدر
وكأنها سرج من نار أرتديه، صمت وجمر
في فمي وهكذا جُهزت لأول كفن أرتديه
رغم عني وبعدها اعتدت العبور، وهمت
في محيط الجياع المحرومين في محيط لا أحترام
فيه، فأصبحت أمثل لهم نسخة مُقلدة
برخصها من جنس الرجال.

وكان انتقامي بأن أسلمهم جسدي المشوه
يشوهون به أكثر، ثم في مرحلة المتوسط
أتت معلمة كانت أهم من خطط مسار حياتي
معلمة متزوجة حديثاً وقد أشعلها زوجها ولم يطفئها
وكنت بالخدمة هي أول من اكتشفت ألغامي المختلة
وساهمت في تثبيت خلل جنوستي وتركيزها في اللاشعوري
مازلت اذكر فحيح أنفاسها إلى اليوم وكأنها حية
رقطاء، مقتها في البداية ثم استسلمت، تجرني إلى منزلها
بحجة دروس خصوصية وبالفعل كانت خصوصية للغاية
فقد كانت تكبرني بعقد ونصف. أحكمت الشد
على عقدي ومثلتها راكزة في تركيبتي، كنت كصلصال
بين يديها تشكل كل يوم رابط خفي سيكون معي
إلى أن أفيق في يوم وأجد نفسي أصبحت
أحمد.

الله يلعنكم

قام الدكتور بمهاتفتي وأخبرني أنه قام بتقطيع رسالتي وطلب مني كتابة غيرها، ولم يعلّق حتى على رسالة عبير.

أين القضاء بلا قدر؟

حاولت مضاوي إزالة بعض الفروقات ولكنها لم تستطع التخلّي عن مبدإ العشيرة، وكم أرهقتني طلباتها المتكررة، التي تضعها تحت مضمون «الفزعة» وعلمت فيما بعد أن النخوة والضرب على الصدر والتكفل بالمساعدة العمياء، ليس فعّالا في كل الأمور. يباغتني اتصال منها كالعادة أثناء إجازتي، خصوصا بعد أن أصبحت أقطن في شقة قمت باستئجارها أمام المركز العلاجي مباشرة بعد معارضة شديدة ولكن الطبيب رأى أنه اختبار جيّد لي، أقضّي فيها ثلاثة أيام من الأسبوع. أتاني اتّصال مضاوي:

- وينك؟
- هلا.
- يو وينك؟
- ويني يعني بالبيت.
- قومي يلا انتظرك.
- ما فيني أبي أرتاح.
- ما ينشد فيك الظهر من تالي وين الفزعه.
- يعني لازم ينكسر ظهري عشان أشدّ ظهرك.. الفزعه يا

حبيبتي.. لو وقفت فيك السيارة في طريق، لو مريضة وما عندك أحد، هنا أبشري لكن نظام، مدحت ومحب وهاني مالي فيه بح.

– طيب طيب شكرا، على راحتك.

وضعت السمّاعة وأنا أشعر بانتصار الرفض. وقلبي يدفعني أن أعاود الاتصال، ولكن يجب أن أثبت على موقفي فقد بدأت أخشى عليها من مغامراتها العاطفية التي لا تنتهي.

استيقظت صباحا، وتفاجأت بعدد مهول من الاتصالات الفائتة في هاتفي، من الدكتور حمدي، ارتديت ملابسي على الفور، اتصلت بالدكتور حمدي. أجاب وصوته متوتر يخبرني أن مضاوي هربت مع شريف ولا أحد يعلم إلى أين. بدأت بجلد ذاتي على الفور واشتعلت ندماً. حضر أهل مضاوي من المملكة في اليوم التالي للبحث عنها دون جدوى، حزنت كثيرا وزاد حزني بعد قرار عبير أيضا بترك المكان.

وهكذا اختطفت القاهرة وضجيجها وزحامها مضاوي وعبير.. ذابتا فيها ولم أسمع عنهما شيئا إلا بعد فترة.. علمت من المصحّة أنهم وجدوا مضاوي في الإسكندرية بعد أن أصبحت مفلسة وأعادتها عائلتها إلى المصحة لمدة لا يعلم بها إلا الله، أما عبير فقد عادت إلى المملكة ولم تستطع الصمود أكثر من شهر وانتكست. المملكة أرض خصبة للإدمان، يتعمق في سراديبها المخفية، يبث سمه بمكر ودهاء. كأعمدة هواء ساخنة، سراب يعمي الأعين ويخنق الأنفاس، تجد نفسك فجأة غارقًا فيه، مرتبطاً بأرضه كجذور شجرة، تعمي أغصانها بصرك وبصر من لم يمر بهذه التجربة البشعة، متأصلة في التركيبة المعقّدة للمجتمع من الأنفة الكاذبة.

ومع عدم توفر مراكز علاجية إلاّ قليلاً، مهما خنوا وتوقعوا ظروفنا الداخلية لن يستوعبوا مدى عمقها وعقمها، خصوصيتنا في المملكة خصوصية مريضة تحتم التفاعل الداخلي في وعاء صدئ وكل المطلوب منك أن تظهر بمظهر جيد لا يهم أن تكون أنت جيدا. عائلتك تقضي وقتا تحاول إماطة جميع أنواع الأذى الموجودة في دربك ولكن مهما اجتهدت لا تملك النظرة المتفحصة لمعرفة أيّ المنحنيات هي الأخطر، رفقاء السوء يحملون أكثر من وزرهم هم أناس يعانون مثلك ولا أحد يعلم من المسبب الأساسي للسوء، يعالجوننا في بيئة مختلفة وثقافة أخرى ويحيطوننا هنا بأجواء عالية من التعافي والاجتماعات والأكيد أنّك أنت لست لوحدك، ولكن فجأة تعود إلى أرض الواقع، أرض جرداء تضجّ بالإدمان.

كان من الخوف ألا يعتلي تلّ ما حطمه، فعاش ساقطا

وكما هي عادة الدنيا معي، لا أعلم لماذا تعمد أن توجّه إلي ضربات موجعة وتحوّل رغباتي إلى أشلاء في كلّ مرّة. فوجئنا جميعنا بأحداث الثورة المصرية المفاجئة، وقعت الثورة وأسقطتني من عرشي الهامشي. رحلت في يوم وليلة من غير وداع، وكأن الحياة تنبهني أنّ الانتظار قد طال لأقف على قدمي وتعدّني من الأنداد وتبادلني اللكمات، بعد أن أصبحت أناسب اللوحة التي أنا فيها وبدأت أفعالي وأقوالي تتناسب مع الركب ولحن التناغم بدأ في العزف، حتى في سيري في الشارع غدت يدي ملوحة لكثيرين من صاحب بقالة إلى محطة بنزين حتى اجتماعياً كنت قد كونت دائرة موزونة من المعارف. والأهم من ذلك أني ما عدت أملك رأسي، عقلي كان بين أيديهم، هم من يسوقون حياتي ويقرّرون مصير الرحلة وأنا لست سوى مجرّد راكب. استدعاني الدكتور حمدي ونبرة حزن في صوته:

- مامتك اتكلمت وقالت الليله دي تنزلي السعودية.

- ليش؟

- تقول إن والدك مش مطمن بسبب الثوره وعايزينك ترجعي فوراً.

نكست رأسي وعلمت أنّه قرار نهائي لا استئناف فيه. لماذا يا قاهرتي ثُرتِ على استقراري؟ شعرت أن المكتب يعصرني.

- بس يا دكتور انت شايف الوضع بعيد عننا.
- والله يا منيرة أنا حاولت بس إنتِ عارفه مامتك.

أطرق على الطاولة بأسى فقلبي كان يتمزق:

- خير إن شاء الله،

لا أحب الوداع كالأغلبية ولكني فعلا لا أطيقه، لحظات تتطلب تركيز جرعات مكثفة.

كم ظلمت القاهرة، وكم اتهمت أمومة مصر بالإجهاض.. هي تئن في ليلها من شوقها لأبنائها المغتربين، وتفيق على فاجعة أبنائها الجياع صباحاً.. لن تفهم المصري ما لم تسكن أرضه. شامخ هو ومقهور كأبي الهول. من الأهوال يرى ويقرّح الصمت حنجرته ولا ينطق إلا دعابة.

أحببت المصريين،أحببتهم جميعا، لن أجحدهم ولن أنكر فضلهم ما حييت.

في طريقي إلى المطار كنت أرى بعض الثوّار. وددت لو ترجّلت وصرخت فيهم لماذا فعلتم بي ذلك؟ انفضوا بلدكم كلها ودعوني فيها. سأرحل وكل وجوهكم ستعلق برموشي وتتكثف حول عيني فتمطر دمعا أسود بمجرد اختلائي. كم تجنبتكم وأنا بينكم خشية أن أصاب برتابة المودة أو وجع الشوق، نلت الاثنين معا. عُلّقتم كأقراط لؤلؤ حول مسمعي، يصدر طنينا يقشعر له جسدي كلها لاحت ذكرى لكم في خاطري. تاريخكم نُقش على برديتين تحيط عيني المغمضتين عن رؤية

أيّ شيء آخر.

وداعا يا من كنتم لي ولم أكن لكم في يوم ما، أرحل بثقب في قلبي جديد. أرحل بحزن يأسرني من رأسي إلى قدمي ونافخ كير بصدري. أرحل وكل إرثي حروف. أرحل بمحفظة حسية انهارت كل أسهمها وسقطت طعنات فوق ظهري معمّقة وجعي. أحملني وأحملكم معي. رحلت بعهد أعلم أن الحياة ستنكصه.

في رحلة العودة، كانت الطائرة تتأرجح بحبال مودة مهترئة ووجع شوق ينتظرني. لم أتخيل أبدا أن حزني سيكون بهذه البشاعة. كنت أعتقد أني لا أطيق صبرا لمغادرتهم. حتى كفي حين الوداع غدت خرساء. بنات شفائفي تتوارى خجلا لا حمل لها بكلمات العزاء. أودع أشخاصا وأماكن وأشياء، يكاد ينفطر قلبي وينهار عقلي ولكنني أحملهم معي في آن واحد لأنّ وجهتي ناقصة بعضي.

أرى القشة الأخيرة تهبط من السماء

عدت إلى المنزل، دون سابق إنذار، استقبلوني بحفاوة وريبة، توتّر يسبح في الأجواء. لم نتبادل النظرات أبدا، تتجمع نظراتنا جميعا في أفق لا يُرى. لم يكن أحد يدرك كيف عليه أن يتعامل مع وضعي، ولم أكن أعلم بدوري ما عليّ فعله. ولا كيف للّقاء أن يكون بهذا الألم. لا أقوى على الحديث، لو تحدثت ماذا سأحكي. أطبقت فمي على معان خرساء، لو أطلقتها لشقت الفضاء. محيطي كان يابسا. أيّ كلمة ستجرحه. وأنا من سينزف. انكمشت على نفسي بكماشة تهد روحي ولا تقشع صدأها. مطارق أفكار تطرق سواحل نفسي فتغرقها..

صعدت للعشاء الأوّل بعد أن استقررت في غرفة غير غرفتي، فقد كانت مغلقة بإحكام. كموقع جريمة ختم بالشمع الأحمر، لم أعلم أين أجلس، ما هي الزاوية الأمثل لتوافق حدقات أعيننا؟ أين اختفى صوت مضغك الطعام يا أبي؟ هل ألحقت بكم كلّ هذا الضرر؟ كيف سأغفر لنفسي؟ كسّرت أمي حاجز الصمت، ونظرت بعتب.

- ليه قصّيتي شعرك مرّة ثانيه!

أشيح بنظري وأفكر. أمي أنا مقصوصة كلّي أهذا مارأيت، في داخلي كلام ويسابقه كلام:

- من شهرين..

ابتسمت ولسان حالي يقول أمي أنا حزينة، أين رائحة الأمان، أمي، أبي هل تعلمان أني دخلت العقد الشائك الثالث، أني أكاد أقترب منكما؟

في الذهاب كنت مغيبة وفي الوصول هم من كانوا مغيبين، رحلت منتكسة وعدت منتصرة، هزمت نفسي، من دون أساطيل عدت وحدي، لم يعلموا ما تركت خلفي، ألا يكفي؟؟ لا أرى زينة انتصار، بل أعلاما منكّسة. أمي غزوتني وهزمتني. تركت ما كان يجري بدمي ولكن اللقاء انهزم مبكراً.

دخلت الغرفة المعدة لي، استلقيت على الفراش وبدأت أشعر بأشباحي، لم يرحب بي غيرهم، وكأني أراهم يتراقصون في العتمة. غفوت واستيقظت على ضوء يلوح من خلف الستار يعلن ذهاب الأشباح وبداية نهار بليد. تكرر نفس اليوم لثلاثة أيّام من دون تواصل

فعلي مع والدي أو مع العالم الخارجي وكأنهم يخفون هاربا من العدالة في منزلهم. لم يتلقوا أيّ اتصال ويحيط بهم حذر لا يمكن تجاهله، نورة فقط كانت بجانبي.

لن تعود كما كنت، مهما وعدوك، ستعود موصوما، مختوما، مسحة على وجهك توحي بما حدث وأنّ ما حدث معك حدث فعلا. تنعكس نظراتهم إليك، تشوبها الشفقة، تحاول أن تستجمع انكسار عينك، جهدك في ذلك يجعل ملامحك أشدّ قسوة، لا تثق في نفسك فلا يثقون، مسحة تمرّد تدفعك إلى الخلف، لست منهم، نبرة صوتك مجروحة، حتى خطواتك تختلف، تحني ظهرك، تسير، تحاول إسقاط بعض حملك، تخجل من تلويث أرضهم. تعود وتحمله.

لم تنتبه لذلك الوشم المشين الذي ختمت به. فقد كنت متألماً جداً قبل وضعك في هذه الخانة، وشم يراه الجميع ويعلم ما حل بك، لن تعود أبدا كما كنت. الخانة التي وُضعت فيها، تأقلم معها غيّر أوضاعك فيها. إن استطعت قف على قدم واحدة بها يوما وآخر، اتكئ من باب التغيير لأنك لن تغادرها أبدا، خدعوك بمقايضة زهيدة النسخة المهذبة منك التي قاموا برسمها وألبسوك إيّاها، نسخة مزيفة لا تناسب مقاسك، تكاد تتساقط منك إذا سرت أو تحدثت، فتصبح غير متزن، ورغم هذا الجهد في الالتزام بالدور الجديد أنت تعلم أنّ هذا ليس أنت وتتمنى استجداءهم بالتوقف عن النظر.

لم ينقضِ أسبوع من عودتي حتى غشاني اكتئاب غاشم، أفقت من النوم على حرارة دمعة على خدي. جلست على طرف سريري وأشعلت

سجارة سرعان ما أطفأتها. اكتئاب الصباح يسبب الغثيان. اشتممت رائحته مع أول نفس، يتخثر الدم في شراييني، يسري في عروقي سمّ أرمق طيفه، يفتح لي ذراعيه مُرحباً، يحتضنني بشوق عميق. نتّحد ونصبح واحدا. أتجمد وأصبح كجثة محنطة في متحف تاريخي يضيق صدري، لا أسمع نبضي ولا أشعر بأي انفعال، فقد تكبلت وانتهى، الاكتئاب أقسى وأخطر عميل، يضاهي في أناقته «جيمس بوند» 007، لا تعلم من أين يظهر، يباغتك برشاقة سامة، لا يمكنك حينها إلّا أن تستسلم بكل هدوء، لا تنبس ببنت شفة..

نوبات اكتئابي هي أشرس عدو شهدته في حياتي. لا غضب ولا ألم بل خواء عميق يفصلني عن العالم، لا أسمع إلا صدى عظامي وهي تتخشب عن الحياة. أجلس على طرف سريري. أمسح رأسي علّي أواسيه، لا أرى شيئا غير بحر يتصحر على مدّ النظر، أطيل الجلوس، أخشى الوقوف، تلك الطفيليات لا ترحم إذا هبطت فجأة ستشل خطواتي. أقسى ما في المشهد، أنّه ضيف ثقيل أنا مسكنه وثيابه وزاده.

تطرق نورة باب غرفتي، تجدني في فراشي متكورة حول نفسي مرتعشة وساحبة الأغطية فوق رأسي بعد أن اعتراني الشحوب. لم يعد الأمر بيدي حتى لو أردت أن أنخرط في البكاء.

تتفطن فيما بعد أنني رحلت وسكنني مارد مدمّر. ترمقني بنظرات تستجديني بأن لا أرحل ولكنها ترتدّ نظراتها. تعلم أنها تأخّرت. تمسح على رأسي وتشرع في قراءة المعوذتين. قد تطرد أي مارد من الجنّ ولو كان من جيش سليمان.. لكن لا تستطيع تعويذاتها مسّ شيء لا يمس ولا يحسّ.

تجلس بجانبي وتمسد على رأسي:

- وش فيك يا حبيبتي ليه كذا، كنت بتموتين وترجعين وش اللي صار؟

أنا نفسي لا أعلم أدير رأسي بأسى:

- آسفه.

تمسك يدي:

- لا تقولين كذا كلنا معك أصلا.

- أمي قررت انك ما تقوين تواجهين الأهل وانتِ كذا، وحكت مع أبوي وخالي رتب لك علاج في أمريكا بأسرع ما يمكن. بعد بكره السفر.

لم أتفاعل مع هذه القرارات الجريئة ولم أهتمّ بالأمر. تجلت بوادر حرماني من المملكة لفترة ليست قصيرة. سأصبح كخادمة علم أرباب عملها بفجورها أو أسحارها ويجب ترحيلها. الابتعاد هو الحل الأسلم. ورحلت بعد وداع منظّم كمراسم دبلوماسية، لم أعرف المطارات إلا باكية.

عار كدودة

كان ترحيلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، الترحيل حالة مفاجئة، لا تمنحك وقتا كافيا للعزاء. كم هو توديع الرّاحلين عبر المحيطات مؤلم. المودِّع مهما ضاقت به الأرض فهي رحبة، يستطيع مغادرة المكان الذي هو فيه كلما تَلبس بأطياف الراحلين ولكن الراكب سيظل سجين ذاته لفترة تكفي لإعادة شريط حياته كاملًا.

المطارات والمستشفيات أصدق مكانين لتقييم الناس على جميع الأصعدة.. يتجاهل ركّاب الدرجة الأولى الراكب الاقتصادي حين يعبر في ممراتهم وكأنه شبح.. الراكب الاقتصادي يتحاشى بدوره النظر إلى ركاب الدرجة الأولى وهو يعبر من بينهم وكأن تذكرة الاقتصادية تجبره على الانكسار. هذا هو التصنيف الثابت نحلّق به لفترة زمنية محدودة.. يضع كلاً في مكانه، لا مجال للاختلاط أو الاختباء..

أنظر إلى انعكاس وجهي في شاشة التلفاز منذ متى أصبحت عدائية ومنغلقة هكذا أقسم الناس إلى أنذال وكرام؟؟ أرخي رأسي على يدي. ليتهم لم يروني، ليتني حضرت واكتفيت بمشاهدتهم من حيث لا يعلمون. المنزل كان حزينا جدا، نافذتي ونافذة غرفة نورة كانتا كدمعتين استوطنتا وجه البيت. أكملت سيري، وحين وصلت إلى الباب خشيت

لو لم أسرع الخطى قد أسمع من ينعاني. انحناء ظهرك يا أبي زادت من حملي، ألا لعنة الله عليّ. رؤية عيني نورة ودمعها تسكن عيني للأبد.

مصابهم الأوّل أخفّ وطئًا من صدمتهم برؤيتي، سنة كاملة غائبة عنهم، وأعود إليهم مهشمة، كسيرة، كيف؟

أخذت الدموع تنهمر مني حارقة. حاولت أن أتمالك نفسي وأن أستجمع ما بقي فيّ من رباطة جأش وفي الوقت ذاته أتوجّس خيفة من الراكب المرتقب الذي سيمكث بجانبي لمدة ثلاث عشرة ساعة. لا أحبّذ الحديث مع من يجلس بجانبي خشية أن يكون من صنف «أنا موجود إذن أنا أتحدث» حتى لا تبدأ كل أنواع الأسئلة تنهال علي وكأني في تحقيق، ألتفت وأرى الطائرة تمتلئ ويزيد قلقلي.

في كل منا منطقتان خطيرتان. إما دونية مدعقة أو انفرادية مستعظمة. هاتان المنطقتان، من أخطر الأماكن المعتمة لتوالد الأمراض الروحية وتكاثرها. أسند رأسي إلى الخلف وأنظر إلى الأعلى. لدي اعتقاد أن مصادفة جلوس راكب بجانبك في الطائرة قدر من الأقدار أو رزق من الأرزاق المقسمة حيث صادف أن مرّت سيدة مُلطخة بمساحيق التجميل وهي تمضغ اللبان. لم أستطع تجاهل حضورها، مبتسمة وجهها مشرق، لمعة عينيها توحي بامتلاء روحها. شعرت أنه حضور لا يليق به هذا الألم. اعتدلت في جلستي وأخفيت دموعي على الفور.. استوطنت المقعد وفاح عبيرها.. نظرت إلي وبابتسامة عريضة:

– مساء الخير.. غزوة.

رددت باقتضاب:

- منيرة.

وبعد أن استقر الجميع أقلعت الطائرة. عادت السيدة المشعة إلى وضعيتها تصفّف أغراضها وتبحث عن الحيّز المثاليّ لنفسها ثمّ أخرجت كتابا لمحت عنوانه العريض «القندس». وقع الكتاب فجأة، فالتقطته. كوفئت بتلك الابتسامة العريضة مرة أخرى. أيّ نفحة إلهية أحضرتها؟ تتخطى الخمسين من العمر بكل زهو وأناقة. تبعث على التفاؤل روحها صحيّة مقارنة بعالمي المريض.

اقتربت منها المضيفة لتسألها ما تشرب، طلبت شايا وأنا طلبت قهوة.

نظرت إلي وهي مازالت ترتدي ابتسامتها:

- كيفك؟

- الحمد لله، وحضرتك؟

تهز رأسها وترفع إبهامها إلى الأعلى وتضحك.

أيّ معركة انتصرت فيها هذه الأنيقة، مرحها معدٍ:

- منيرة صح؟

أهزّ رأسي بشيء من الارتياح موافقة، حقّا شعرت بأني أريد أن أضع رأسي على كتفها وأحكي لها كلّ شيء.

- رحلة سياحة ولا دراسة؟

- سياحة.

- إن شاء الله تنبسطين.

ارتبكت:

- إلا كيف الشاي؟

ضحكت:

- الشاي كويس. إلا كيف القهوة؟

- القهوة كويسه؟

وبدأنا في تجاذب أطراف الحديث بمتعة، حضورها لا يليق به إلا المرح. وبكل هدوء وضعت السيدة المشعة بجانبي غطاء العينين واستسلمت لنوم عميق.. وكأن الحياة أرادت أن تعطيني لمحة بسيطة عن مخلوقاتها الأخرى الجميلة. أهي لمحة أمل أم قهر؟

وبدوري ابتلعت أقراصي. حين استيقظت وبالأصح هم من أيقظوني لم تكن هي بجانبي وكأنها حلم عابر وأفقت منه.

اليوم أرحل عن كل تجسس الجدران والنوافذ

هبطت الطائرة وأنا أترنّح فقد ضاعفت جرعة الدواء، ولم أكمل تعبئة استبيان الدخول. وقفت في الصف أنتظر دوري ولم أكن أعي شيئا، كيف ولماذا حضر؟ عاودتني الذكرى، وعبثا حاولت إقصاء هذا الشعور عني فقبل وقت ليس بالبعيد، كنت في مطار القاهرة! الفرق شاسع، نعم نحن عالم ثالث ولكني أُفضل عالمي الثالث على عالمهم قبل الأول، نظافة سطحية وتهذيب حيواني للبشر، وصلت لدوري وناولت الموظف جواز سفري، تساءل لمَ لم أكمل البيانات! حاولت التركيز وشعرت بحنق على كل من عرفت طيلة عمري.

اعتقدت أني أتممت ما طلب مني وعدت إلى الصف وحين جاء دوري، استشاط المسؤول وتحدث بحدة:

- ما بالك! ألا تعين ما قلت؟؟

استشطت بدوري بحرارة أشد:

- ما بالك أنت! نعم أنت!! ماذا تريد مني، لم أستطع نعم،أنا لست مؤهلة لفعل أي شيء! أنا عليلة وما جئت إلى هنا إلا من أجل العلاج!!!

نظر إلي بذهول لم يتوقع أن يصدر مني هذا الصوت وبهذه الحدة فقد كنت شبه مغيبة، وتوقعت أن الأسوء قادم، ولكن ما حدث كان عكس كل ذلك، مسحت وجهه الرأفة وأخفض صوته واقترب:

- لا بأس خذي الأمور ببساطة لا تقلقي، أنا سأقوم بتعبئتها!

وشرع في طرح الأسئلة بمنتهى اللطف عن المعلومات وتعبئة الخانات، وبعد أن فرغ نظر إلي بود:

- هل من الممكن أن أسألك ما الذي تعانين منه؟

احترت ما الذي أقوله، إدماني أم اكتئابي، أخفضت عيني وأجبت:

- مصابة بالسرطان!

لم يخطر على بالي سوى هذا المرض لا أعلم لو خُيرت بينه وبين علتي ربما اخترته. قد يكون جهلاً وتبجحاً مني ولكن على الأقل مرضاه يحظيون بكل الحب والود، ألا يكفي أنهم وحدهم لديهم تنبيه قبل مغادرة الحياة، غير كمية المخدرات المسموحة لهم لتسكين أوجاعهم. بعد أن أعادني صوت وقع الختم على جوازي، ابتسمت له وغادرت. وهكذا كان هذا الموقف أول صلح بيني وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

أنهيت إجراءاتي وتأكدت من حقائبي وانطلقت إلى الخارج لأدخن سيجارة، كان الطقس شديد البرودة، شددت من عزمي وافتعلت نبرة أشدّ واتصلت بعائلتي وطمأنتهم علي، ووعدتهم باتصال آخر بمجرد وصولي إلى المصحة، على الفور أشعلت سيجارة وألحقتها بالأخرى، ومن ثم اتصلت بالسائق الذي كان موكلا باستقبالي، وجدته دون عناء ينتظرني، إيهاب كان اسمه.. لم يكن من الصعب تخمين جنسيته

السودانية.. بمجرد ركوبي سيارته، أحسست أني دخلت مركبة زمنية منفصلة عن كل ما يمتّ بصلة للغرب. ابتداءً من رائحتها وصوت شيخ يرتل القرآن بخشوع، وقلائد تتدلى من المرآة إحداها مصحف أخضر اللون صغير والثانية اسم الرسول، وملصقات استغفار وتسبيح على الزجاج كانت أشبه بهودج من الصفائح الحديدية متجه إلى مكة. زاد من اتساع ابتسامته بياض أسنانه الناصع وعرفت نوعه من أول خمس دقائق في الطريق كان من نوع البشر الراديو، لم يصمت، مواضيعه لا تنتهي، علمت قصة حياته وغضب والده المتوفى منه وحرمانه من الميراث، وأنه شخص مسحور منذ زمن، ولم يستطع أحد فك سحره لذلك هو يتسلح بالقرآن إلى أن باغته شلل فجائي، أردت أن أخبره أنه قد يكون مريضا بتصلب الشرايين اللوحي ولكن لم يكن لي رغبة للخوض معه في أحاديثه ولم يمانع هو أن يكون الحديث من طرف واحد، كان بحاجة ماسة لتفريغ ذاكرته في هذا الشتاء.

استغرق الوقت من مطار واشنطن إلى الوادي الذي كنا متجهين إليه الساعة والثلث.. عند مشارف ونشستر ابتدأ حديثه يأخذ منعطفا دراميا متكلفا وكأنه يريد أن ينهي قصته بأسلوب تراجيدي. وجنته بدأت بالارتجاف وذقنه بالارتخاء ما زاد وجهه استفزازا، وعندما بدأت نبرة صوته بالحشرجة، تخيلت ما يمكن أن يحدث من استهلاك للمناديل، فآخر ما ينقصني الآن هو أن يتباكى أمامي رجل، وأنا في هذه المركبة في هذه البقعة من العالم لم يكن لي حمل على سماع مكنونات كائن من كان، عندها نطقت بحدة: اذكر الله يا رجل وأعطيته مواعظ عن الصبر، بالفعل كان هذا كافيا لجعله يصمت والحمد لله.

لا أعطي الجالس إلا ظهري

وصلت إلى مشارف الوادي قبل رحيل الشمس بقليل، وكلما توغلت السيارة أكثر اتضحت الصورة بزهاء وبهاء، حتى أنّني أخذت ألتفت يمينا ويسارا، يا لهذه المناظر المتقنة بطريقة مرعبة وكأن أشباحا غير مرئية تقوم بالتشذيب والتهذيب أوّلا بأول، كأننا في عالم حالم وهمي، حتى حركة المرور هادئة منظمة، أتكون هذه مدينة «يوتوبيا» لا بد أن أفلاطون عبر من هنا.

توقف إيهاب عند محطة ليتزود بالوقود، ترجلت من السيارة خلفه أردت شراء قهوة، تناهى إلى سمعي صوت نغم موسيقي ريفي، وكلما تقدمت بالخطى تصلني الموسيقى بنفس الدرجة، وكأنني لا أبتعد عن مصدر الصوت، كانت هناك مكبرات صوت موزعة بزوايا موزونة. أصدر الباب صوت جرس حين دفعته، سرقت عيني ألوان الحلوى المرصوصة أمام البائع المبتسم، كيف لا يبتسم في هذا المحيط؟ سكب القهوة وأعطاني إياها وتمنى لي يوما سعيدا، تمنيت له المثل وعدت إلى السيارة التي كان إيهاب بداخلها، وباشر الحديث عن سعر الوقود ولكن صوت الموسيقى طغى على صوته. لوهلة شعرت أن هناك كاميرات خفية تقوم بالتصوير والجميع كومبارس مشترك في هذا

المشهد، لا مجال للخطإ. آه لو يصمت إيهاب فقط.

أكملنا مسيرنا وكأن الطرق تنشق مرحبة بي، أهو ضجيج القاهرة وكل الفوضى بها؟ غمست نفسي فيما أرى.. انعطفنا بالسيارة في طريق ضيق أخذ بالارتفاع إلى أن انتهى إلى حديقة غناء تخفي خلفها بناء عريقا. توقفت السيارة خجلة فوق ذلك التل الأخضر وهناك كانت حشود بشرية متنوعة تنتظر حضوري، وبمجرد ترجلي فوجئت بحفاوة استقبال وانهالت علي أحضان لا حصر لها من نساء ورجال تشيع الغبطة في وجوههم فعجبت من الأمر، كنت شاردة النظرات وكأني في أعقاب حلم ثمّ استسلمت لعناقهم. شقت هذا التجمهر سيدة شقراء جدا وسمينة جدّا، كان كل شيء يحدث بسرعة منذ تلك اللحظة، حضور البشر يطفئ جمال كل شيء ويقهر الطبيعة، اقتادتني من يدي بعد أن طلبت من أحدهم أن يتولى حمل حقائبي، سرت وراءها، ولجنا إلى غرفة صغيرة ونظرت إلي:

– مرحباً بكِ، أُدعى آن، وسأكون مسؤولة عنكِ إلى الغد، قبل كلّ شيء يجب أن أقوم بتفتيشك الآن!

بدأت المهمّة بمنتهى الهدوء بدأت بنزع ثيابي ومع كل قطعة أسقِطُها، أفكر مليّا: ما الشيء الذي تغير فيّ خلال هذه السنة أكثر من اعتيادي على التعرّي، ألذلك الوقوع في دروب الدعارة سهل؟

يقطعني صوتها، كانت تذكر لي ما ستفعله قبل أن تفعله، أي جزء من جسدي ستتلامس معه، لا أنكر أن تفتيشها كان لائقا وهادئا ولكنه زادني رهبة وإصرارا على أنها لن تكون من المفضلين لدي. لا أعلم ربما يعود الأمر إلى حاستي المتلبسة بالذهنية الشرقية. أنا على يقين من أنّ

العين لا تزيف الوجدان، كم وشت أعين بأصحابها. لطالما أوحت إلي لمسات الأيادي بطهارة روح الشخص، ولكنّ لمستها كانت بغيضة رغم رقّتها.

تركتني بعض الوقت لأرتدي ثيابي ثم قادتني من يدي وعلى فمها ابتسامة لا تفارق وجهها المشرق لصالة طعام كانت واسعة جدّا كأنها تابعة لجامعة، أجلستني وقالت:

- لا بد أنكِ جائعة.

كانت ملامح وجهها تأبى أن تلين تحت ابتسامتها. سارت وعادت وبيدها وجبة طعام لي وضعتها أمامي بانحناءة لم أشتم من رائحتها شيئا، ثم ربتت على كتفي:

- لن أتأخر.

وذهبت، فتنفست الصعداء، حضورها ثقيل، مللتُ أن أُقاد. نظرت إلى الطعام وكدت أبكي ولكني تماسكت واكتفيت بشرب العصير، ظهر كهل يرتدي مريلة بيضاء وتعتلي رأسه قبعة بيضاء أيضاً، اقترب وعاجلني قائلا:

- لماذا لا تأكلين؟
- شكرا لا رغبة لي.
- لا ترتاعي يا صغيرتي، كل شيء سيكون على ما يرام. وابتسم وغادر.

إطلالته كانت حانية جدا، كيف لطهارة الابتسامة القدرة على إيقاع أي غريب في شباكها، لو أنه لم ينهِ تحيته بتلك العبارة المستهلكة

الرخيصة «كلّ شيء سيصبح على ما يرام»..

ما لبثت آن أن عادت:

- آه لماذا لم تأكلي شيئا، اسمك منيرة!

- نعم.

- إذن لماذا لم تأكلي يا منيرة؟

- تناولت طعامي في الطائرة.

ووقفت، خشيت أن يصلها صوت تضور جوعي فترغمني على الأكل.

- كما تريدين ولكن الأكل في غير أوقاته ممنوع هنا.

ثم ناولتني قرص دواء، ابتلعته على الفور دون نقاش.

نظرت إلي باستغراب:

- سآخذكِ الآن إلى غرفتك، هيا بنا.

في طريقنا من غرفة الطعام إلى غرف النوم لم نقابل إنسيا، ما زاد وحشتي معها، ثم دخلنا غرفة نموذجية متسقة كالتي في صور الإعلانات، حتى المكان كان بلا رائحة، كان بالغرفة سريران بجانب كل منهما ضوء، أغطية الأسرة كتلك التي في الطائرة، زرقاء اللون ووسادتان منتفختان، طلاء الجدران رمادي، خزنتان متلاصقتان، إحداهما ملأى، وخزنتي فارغة وبجانبها حقائبي، وبمجرد رؤيتي لحقائبي أردت أن أحضنها، أمسكت بها وأخذت أفرغ ما فيها. كنت صامتة جدا ومتجاهلة حضورها وهي لم تمانع، تركتني بعد أن تمنت لي ليلة سعيدة بنبرة توحي أن وقت النوم قد حان. بعد أن غادرت تركت

ما بيدي واتجهت إلى النافذة المتسعة، أزحت الستار ونظرت ولكن الظلام كان قد ابتلع كل شيء. عدت إلى حقيبتي وانهمكت أفرغ ما بها، أخذت لباس نومي ودخلت لأستحم، كان الحمام نموذجيّا أيضا، قمت بإدارة مفتاح الماء الساخن بحذر، مكثت تحت الماء لمدة غير قصيرة، كنت أحتاج لدفقة دفء، انتهيت وفتحت باب الحمام وهناك كانت فتاة. بمجرد رؤيتي اندفعت بجرأة واحتضنتني بقوة حتّى قبل أن أتبين شكلها:

- مرررحبا بك أنا كاثرين.

ثم تركتني عجلة أيضاً، اتجهت وأشعلت الضوء الذي بجانب فراشي وأطفأت ضوء الغرفة وقبل أن تندثر تحت فراشها قالت:

- تصبحين على خير أنا نعسة جدا، أراكِ غدا.

ذُهلت من هذا الفاصل، لم تترك لي مجالا، أصبحت أتحرك بحذر في محيط جديد لا أعلم أين حيزي فيه. استسلمت ودخلت فراشي أنا أيضا.

وكما هي عادة الأسرّة الجديدة وفيّة لا ترحب بجسد غريب، استلقيت واستلقى النوم بجانبي عصياً كزوج هجر نكاح زوجه لا يبالي. تقرفصت، وشعرت بآلام عضلاتي المنهكة، انتابتني هواجس ووساوس فأحسست قلبي يذوب لوعة وأسى. سحبني أنين كاثرين المتواصل من نفسي. أعادتني إلى واقع المكان الذي أنا فيه، فبدأت أشتم رائحة الندم والذنب. لا أعلم كيف ولكني أجزم أن يد الله هي من أسقطتني في النوم تلك الليلة!

حجر على حجر

أفقت وجلة، تشبثت بسريري لحظات كثيرة حتى أتبيّن أين أنا، كان الفراش بجانبي مهذبا وكأنه لم يُمسّ، انتابني قلق أول يوم لطفل في المدرسة، وكأن كل ما تلقنت في القاهرة تساقط عبر المحيط، طرقت بابي سيدة في منتصف العشرين، زاهية وأنيقة، ملامحها تصرخ تمردا، أكاد أجزم أنها لا تنتمي إلى القارة الأمريكية، مشيتها برشاقة جسدها، تتراقص أصولها الأندلسية بوضوح. ابتسمت:

- اسمي ماريل، مرحبا بك.

بالكاد ابتسمت، وأنا أمسد شعري علّه يخفت قليلا ويكرم أصلي العربي. جلست بجانبي على الفراش وساهمت هي أيضا ومسحت على شعري.

- كيف حالك؟

عيني من أجابتها، أن ارفقوا بي.

- لا تقلقي ستعتادين، نحن هنا لمساعدتك.

هزرت رأسي، أنزلت يدها وبدأت تربت على كتفي، تريد أن تهندم هامتي أيضا:

- هلا ارتديتِ لباس رياضة؟

فاندهشت من طلبها وأجبتها على الفور:

- لا اعتقد أن جسدي يقوى على التمارين اليوم.

ضحكت ووضعت يدها على جبينها: آه نعم، معكِ حق، إذن ارتدي ما تشائين ولكن درجة الحرارة في الخارج منخفضة جدا.

غادرتها واتجهت إلى الحمام، أنثر غبار الأمس، ثم ارتديت ملابس دافئة وتعطّرت وأنا أتحاشى النظر إلى المرآة. ثمّ تبعتها إلى الخارج، حيث كان الجميع يحتسون القهوة، قاموا بالترحيب بي مرة أخرى، تناولت كوب قهوة لا أعلم ممّن!

قمت بإدخال يدي في جيب معطفي، كان البرد قارسا ولكن المنظر خلاب لدرجة تطغى على مخالب البرد، العشب الأخضر كان يتراقص كحشود من الحجيج تبتهل إلى الله، والسماء زرقاء صافية وكأن كل رسامي العالم قضّوا الليل في تلوينها. ورغم برودة الهواء فإن دفء الجمال يمتطيه. اتخذت مكانا بينهم. وبدأت الأسئلة تنهال علي:

- هل نمت جيدا؟

- هل الطقس يناسبني؟

- هل أنا مستعدة؟

كانت إجاباتي مقتضبة،إلى أن بدأ التأمل لمدة عشر دقائق في صمت عميق لم أصله. وبعد ذلك أخذت مارييل الكتاب وقرأت تأمّل اليوم ثم تسألت إن كان لدى أحدنا رغبة ملحة أو فكرة مسيطرة، تحدث

أحدهم، كان نحيلا بعض الشيء، يرتدي معطفا زاهي الألوان! يعقف شعره إلى الخلف ويرتدي قرطين لامعين، تبدو عليه وسامة لطيفة. عرف نفسه بجورج:

- لا أعتقد أنّي على ما يرام اليوم، لديّ فكرة مسيطرة لأتعاطى، أرجو من الجميع إبقائي هنا.

شكره الجميع على صراحته وجرأته ثمّ غادروا، مكثت في الخارج ولم يمنعني أحد، لا أعلم ولكن دموعي بدأت تتساقط رغماً عني وكلما مسحت عيني ازدادت بالانسكاب دموعي، وكأني أرى العالم من خلف زجاج تهطل الأمطار عليه. عادت مارييل لتخبرني أن موعد الإفطار قد حان، سرت خلفها، كان النظام مستفزا وكأنهم آلات. إفطار متنوع. منظر الأغذية المغلفة بجودة عالية وكأنها مصنوعة من البلاستيك، اتخذت مقعدا أشار إلي أحدهم بالجلوس عليه، ووضع أمامي صينية الطعام لم أرفع نظري عنها.

في صمتي المفتعل كنت أستمع إلى أحاديثهم وأترجمها في رأسي فتصبح غبية وتافهة.

- يا إلهي كان يوما جميلا، حتى أنني وجدت أوراق الأشجار تغطي زجاج سيّارتي الأمامي.. ويتبع ما يقول بضحكة..

فيجيبه الآخر بقهقهة أطول: يا إلهي.. تخيّل لو كانت مساحات نافذتك لا تعمل. ويضحك الجميع.

بعد ذلك الصخب على وجبة الإفطار، سرت وراءهم واصطففنا أمام نافذة زجاجية، خلفها ممرضة تقليدية كتلة بيضاء تشع نظافة، كانت

تناولهم الأقراص بآلية، حين جاء دوري أخبرتني بأن الطبيب ينتظرني في عيادته. غادرت مقعدها وسرنا في ردهة، كل باب نعبر أمامه، توجد فوقه لافتة مُشجعة والجدران يكاد لون طلائها لا يظهر من اللوحات المحفزة التي تزينه، والسقف به أعمدة خشبية متقنة الصنع تتعامد وتتعاكس تكسي المكان بحسّ هندسيّ قد يوحي لك بأن حياتك قابلة للتجديد.مكتبة سُر مَن قرأ

توقفنا أمام باب رمادي اللون، طرقته وأدخلتني وغادرت. وهناك كان يجلس رجل مسن خلف مكتبه، كان لطيف النظرة، نظارته مرتخية على أنفه، يرتدي فنيلة زرقاء، ابتسم بصبر وأشار إلي بالجلوس.

- أنا الدكتور لايل.

كان أمامه ملف أخذ يقلب أوراقه.

- مما أرى أمامي يبدو لي أنكِ مررت بالكثير، سنستمر على نفس العلاج لفترة مع زيادة جرعات الليثيوم ونرى ما يحدث!

و بدأ بكتابة وصفة علاجية ثم توقف فجأة ونظر إلي:

- هل تعين مرضك؟

- ما زلت أحاول.

- من المهم جدا أن تقبليه.

- قيل لي ذلك مراراً.

- النوبات قد تباغتك فجأة، كنوبة الكآبة هذه التي تمرين بها، قد يكون أي شيء خارجي قد استثارها. أحيانا لا تكون هناك مقدمات لظهور النوبة للأسف.

بعد أن نظر إلي مطولاً:

- منيرة ما رأيك في الحياة؟

أصابتني غصة بطعم الزرنيخ من سؤاله، أرخيت رأسي بطريقة عزاء.

ابتسم بحنو:

- لا تقلقي الدواء سيبدأ مفعوله أسرع مما تتوقعين، هذا كل شيء الآن، شكرا لك.

غادرت مكتبه، وأنا منزعجة لطالما أثار حنقي الحديث عن النوبات، لماذا لا يثبتونها بأدلة قطعية، قطعني ظهور «آن» تنتظرني كخادم مخلص، لو كانت «جميلة» لجزمت بأنها كانت تسترق السمع عند الباب، سرت معها ودخلنا قاعة يترأسها رجل مفتول العضلات، عريض المنكبين أشهب الشعر.

نظر إلي نظرة بدّدت أفكاري:

- مرحبا منيرة، هلاّ اتخذتِ مقعدا؟

جلست بحذر، ومازال يرقبني بنظراته، ابتسم بعد أن استقررت على مقعدي. باشر حديثه:

- هذا اجتماع تعارف وسأبدأ بنفسي، أنا معالج هنا، اسمي جاك وأنا مدمن، ممتنع منذ اثني عشر عام أرحب بكِ.

حاولت أن أسترق إليه النظر لأكتشف الشيء المزعج فيه، بدت لي ملامح وجهه أنثوية بشكل صارخ تنسكب على جسد رجولي شبيه

بصرح، لأول مرة أتنبه لجمالية العيوب المجردة. لولا تحدث إحداهن لأطلت النظر. تحدثت بمرح ومن شعرها المهذب علمت على الفور أنها كانت من تشاركني الغرفة:

- اسمي كاثرين وأنا مدمنة، ممتنعة منذ سنة وسبعة أشهر.

تحدثت بعدها على الفور من أسمت نفسها ألكساندرا، لها خمسة أشهر تنتكس وتعود، كانت أمريكية بمعنى الكلمة شقراء طويلة الأطراف ليست نحيلة أبدا، تضع أخراصا في أماكن متعددة في الشفة والحاجب ووشم كبير يغطي ذراعها، صوتها أجش. وعلى الفور تحدث من كان شعره معقوفا ومعطفه الزاهي المعلق على يد مقعده، تذكرته، جورج كانت مدة انقطاعه منذ سنة ونصف، يرتدي تي شيرت ممزقا وبنطالا غريبا! واضح للعيان اهتمامه المبالغ بمظهره، يرتدي ثلاثة من العقود يضع قدما على الأخرى.

بعد تنهيدة عميقة شقت الصمت الذي تلى جورج، تحدثت بقرف فتاة سمراء شعرها خشن وجاف جدا، لديها مؤخرة لا يمكن تجاهلها رغم جلوسها:

- أنا سوزان ولي شهر في هذا المكان.

نظراتها لم توحِ بأي ترحيب. بددت بغضاءها ابتسامة شاب كان الألطف بينهم، مهندم أشقر الشعر، أزرق العينين، ملامحه مرتخية:

- أهلاً، أنا مايكل، أكملت أربعة أشهر امتناعا، أحمد الرب.

تبينت أنّه دوري من نظرات الجميع المتجهة إلي، تحدثت بآلية:

- أنا منيرة مدمنة ممتنعة منذ سنة وشهرين.

انفض المجلس بعد تبادل الجميع عناقا لا لزوم له. وقام الجميع ليدخن في الخارج، كنت أقف وحدي ولم يقترب مني غير مايكل وبلطف مبالغ:

- هيه كيف الحال!!

وكالعادة تكون إجابتي في شكل إشارات مقتضبة أو حركات جسدية، هززت رأسي وبالكاد أفرجت عن ربع ابتسامة.

استمر بنفس اللطف:

- سأحضر قهوة هل ترغبين؟

وأيضا رأسي المقذوف فوق عنقي أجابه بالقبول.

كنت أقف على مقربة من بعضهم إلى أن عاد مايكل وبيده كوب من القهوة الساخنة، جلسنا على مقعد خشبي وبدأت أنظر إلى التل الأخضر أمامي، احترم هو صمتي، ولكن ألكساندرا، أعتقد أن اسمها كان كذلك، لم تفعل. وقفت أمامي وحجبت الأفق وصرحت بصوتها الأجش:

- لم أعلم أنكم تملكون مخدرات يا عرب!

رمقتها بنظرة حادة ورشفت من قهوتي ولكنها واصلت باستفزاز:

- أحدثك، ماذا كنت تتعاطين؟

حينها قذفتها بنظرة أحدّ، ثمّ ارتشفت رشفة أخرى وأجبت: لا يهم.

تَدخل مايكل وأنقذ الموقف وأطفأ شرر النظرات متحدثا:

- ألكساندرا هلّا تركتها في حال سبيلها، وصلت للتو.

بعد أن غادرت نظر إلي مايكل:

- أعتذر. لا عليكِ منها، هي دائما هكذا مع الجميع.

ابتسمت نصف ابتسامة هذه المرة فقد كان يستحقها:

- لا بأس.

وانقضى النهار وأنا صامتة وأهز رأسي فقد كنت ما أزال أعاني من عناء السفر، عند المساء شعرت بعزلة وغربة مريرة، لم أستوعب كل ما يحدث حولي ولم أندمج، امتلأت بالاستياء. شعرت أن الكون متآمر ضدي.

ظهرت ماريبل بخيلاء لا أعلم من أين! كانت كقوس قزح، شرعت بفتح باب مغلق وبدأت تشعل أضواء المكان الذي سار إليه الجميع وأنا معهم، كانت ردهة ضخمة، مليئة بمقاعد حمراء متراصة بنظام، أرضيتها مغطاة بألواح خشبية، جدرانها تحتفل بقواعد البرنامج.

بدأ المكان يعج بالحضور. الجميع جالس بانضباط وكأن المقاعد تحمل أسماءهم وبدأ أول اجتماع للمدمنين المجهولين. سأل مدير الاجتماع إن كان هناك عضو جديد. رفعت يدي:

- أنا مدمنة واسمي منيرة.

بعد أن تبينوا من لكنتي وشكلي أني من بلد بعيدة وعربية، قاموا بالتصفيق بحرارة أشعرتني بأني نلت جائزة ما. توالت المشاركات وكان كل واحد يرحب بي قبل أن يبدأ حديثه، تتشابه الأوجاع في كل بقاع الأرض، البشرية جمعاء تشترك في الآلام، لغة الكون الموحدة.

انقضت الساعة التي شعرت بأني معجزة متحركة فيها، أعلم ما قد يكون وضعي من ازدراء وشفقة في مملكتي.

تناولت العشاء بصمت وهجعت في مخدعي، أخادع نفسي بأن تنام واستطعت.

ما من أحد

تتالت الأيام بكل هدوء وأناقة، انقضت عشر ليال، بدأت آلف المكان وبدأ الاكتئاب ينخفض تدريجيا، تمارين رياضية وجلسات علاجية مع الطبيب، اجتماع يومي، لم يكدر صفو هذا التناغم إلا المعالجة «آن» كانت كفيلة بتسبب جلطة ممتدة من الدماغ مروراً بالقلب إلى أن تصل لأخمص قدمي وتفجرني. نبرة صوتها تستحق أن تُقطع حبالها الصوتية جراءها خشية أن تورثها لأحدهم ويستمر نعيقها في الكون. نظراتها تقول أنا أعلم كل شيء يا حمقى.. يا عالما ثالثا.

بدأت أعتاد على كاثرين لولا مرحها الزائد لكنت اقتربت منها أكثر، كم تحدثت واكتفيت بالأصغاء لهذيانها، كان صبري معها مرنا ربما بسبب نبرة صوتها الجميلة، كم تحاشيت سؤالها عن ندبات الجروح التي تفترش معصمها أو أي جزء من جسدها تكشف عنه. أما البقية الباقية مازلت لا أتواصل معهم بشكل جيّد خصوصا ألكساندرا، لطفهم مريب، مع الاحتفاظ بمساحتهم. الاقتراب مكانيّ فقط لكن الحدود واضحة ولا مجال لاختراقها، يستخدمون كلمة لا في مكانها، إذا لم يرغبوا في شيء، لا مكان لفوضى المجاملات. عاطفيون جدا، يصدقون كل شيء، كنت أقضّي يومي وكأني في لقاء صحفي، يستعجبون كل ما أقول!

مشاعرهم فياضة، الدموع كانت شبه يومية لا تتناسب مع مظهرهم الخارجي، من ثياب صارخة، وارتداء سلاسل وأخراص في كل مساحة ممكنة متوفرة، والوشم الذى يتطور إلى لوحات وأشكال كبيرة الحجم. كانوا كرسومات بألوان مُبهجة متحركة مرحة ولكن عند الحديث تبدأ الدموع بالانسكاب. ورغم ذلك لم يبهرني أحد منهم إلى الآن.

في آخر ليلة من العشر الأولى، كنت أغط في نوم عميق، فقد توافقنا أنا وكاثرين في أساليب النوم، تململت في فراشي على إثر أصوات تتصاعد، اعتقدت أني أحلم ولكن الأصوات بدأت تزيد حدتها إلى أن فتحت عيني. كانت الغرفة مظلمة إلا من ضوء الفجر الخجل. أمعنت النظر. ظلال تتراقص، وأيد تتشابك، وأنفاس تتقافز وجسدان يلتويان. جلست وها هما بجانبي مازالا يحتفلان، غادرت فراشي، وقفزا عن بعضهما وشدا الغطاء وأخفيا ما بدا منهما. ولكن شرر نظرتي قد أحرق خيمتهما.

أسحب مخدتي وأهم أن أغادر، تقبض على يدي. وهي تحتضن ما تبقى من ردائها:

- اعتذر على الأزعاج، أرجو أن يبقى سرّا بيننا، وحبذا لو تمدين لي يد العون.

شقّهم صوتي الهادئ إلى نصفين:

- حسنا.

أعدت مخدتي ووقفت خلف الباب، لمَ يذكّرني هذا الباب بشيء! أتجاهله وأفتحه وأخرج رأسي لا أرى أحدا، فنور الفجر لم ينسكب بعد.

الفراغ المملوء

كانت الأيام تسير عجلة ولكن لياليها طويلة، رغم ذلك انقضت وأنامطيعة ومستسلمة، كنت والدكتور لايل نمثل تصادم الحضارات بمعناها اللفظي، ونثير قشورها، حين أخبرته بأني ما أزال عذراء، انفلتت من قبضة وجهه ملامح تهجوني بشفقة وتتهمني باضطرابات. فقام بهز رأسه في محاولة يائسة منه لإخفائها.

- هل خف الاكتئاب؟

- نعم.

- جيد جيد سنستمر على الجرعة نفسها إذن.

ثم نظر إليّ مطوّلا وقال:

- -هل تعلمين أنك أول مريضة سعودية لدي! بل عربية؟

- حسنا، أعتقد أني قد أكون من أسوإ ممثلي الشرق الأوسط!

ضحك بقهقهة عتيقة:

- علمت أنك من الرافضين للعلاج.

- جدّا.

- لماذا؟

- حين أتناول الأقراص أشعر بـ... لا أعلم ما صنف ذلك الشعور، هو لا شعور، وكأني مسجونة في خلية واحدة في رأسي. ومشاعري متخثرة في أوردة دماغي بل هي مصلوبة هناك. أنا أفضل العيش في نوبة الجنون.

- ممم فهمت، هل تعلمين أن أعظم المبدعين كانوا مصابين بهذا الداء وقد يكون هو السبب الرئيس في إبداعهم؟

- أكاد أجزم أنهم ما كانوا يتناولون أقراصا.

- متوقع ولكن نهايتهم كانت الانتحار.

- على الأقل تركوا بصمة في العالم.

- ما فائدة بصمة تشع بعد أن ينطفئ صاحبها ويغادر الكون قبل أن يتباهى بها.

- وجهة نظر.

- هل لديكِ علاقة؟

- يا لهذا السؤال!

- لماذا؟

- لأني لا أملك، ولم أمتلك يوما إلا علاقات عابرة لا تُذكر.

- حسنا حسنا أصدّقك. والصداقات؟

- لدي أصحاب... وكانت لدي صديقة طفولة تربينا معًا ولكني نضجت قبلها فاحترقت .

- ما تعنين؟

- أقصد أننا لم نعد نتوافق حين دخلنا مرحلة الشباب، كلٌّ منا اتخذ طريقا مختلفة.

– أعلم ما تقصدين، أراك بداية الأسبوع القادم، ولتعلمي أننا سنبدأ تبادل الأسرار.

– لم أفهم.

– أنا سأخبرك بسر من أسراري وفي المقابل إنتِ تخبرينني أيضاً، إلى اللقاء.

انحصرت قليلا ثم أطرقت برأسي وغادرت مستعجلة إلى كاثرين التي كانت بدورها في سيارتها تستمع إلى الموسيقى، حاولت فتح الباب ولكنه كان مغلقا، طرقت النافذة، ففتحت لي، قفزت إلى المقعد. أخرجت من محفظتي عشرين دولار وناولتها إياها. النظام الأمريكي واضح، أنا أدفع قيمة البنزين وضريبة المرور والقهوة إن أمكن. انطلقنا إلى واشنطن لقضاء إجازة نهاية الأسبوع.

ممّا يحبب كاثرين إلى نفسي أنها لا تمنع السجائر في سيارتها ونادرا ما يحدث ذلك هنا. وهي تخرج السيارة من بوابة المكان، كنت أتأمّل وجهي في المرآة وأربّت عليه، لطالما شعرت بغربة عن نفسي. تجاهلت الإحساس وأكملت تحسس وجهي، أردت للدماء أن تسير وتسقي ملامحي. قلّ ما كنت أمعن النظر. جفني أصبح مرتخياً أكثر، وجنتي أيضاً، عيناي ليستا عينيّ، نظرة عتب تفترشها حتى حدقتي. أفزعني صوت الموسيقى المفاجئ المرتفع جدا وألهاني عن وجهي. توقفت كاثرين عند محطة لتعبئة البنزين بينما توجهت أنا لأحضر ما نشرب ونأكل. عدت ويديّ ممتلئتين، ابتسمتْ في وجهي ثم عادت ملامحها للسكون ممّا جعلها واضحة فجأة أمامي، ملامح منحوتة وكأنها أتت من زمن سحيق. كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل.

- يجب أن تخففي من القهوة يا منيرة؟
- لم يتبقَّ لي غيرها من الممنوعات.
- أفهم ولكنها تأثر في الدواء، قد شعرت بتحسن بعد امتناعي عنها، وأنا لا آخذ من الأقراص نصف ما تأخذين! أنت النوع الأول من ثنائيّ القطب أليس ذلك؟
- وما النوع الثاني؟
- لا أعلم فعليا ولكن أعتقد أن نوبات الاكتئاب تغلب عليه أكثر من الهوس.
- وأنتِ؟ إذا جاز لي أن أسأل.

كشفت عن ذراعيها وتحسست جروحها:
- أنا ليست لدي مشكلة عقلية وإنما اضطراب في الشخصية، يدعى الشخصية الحدية!
- بوردرلاين؟
- نعم قد ألخصه في عبارة واحدة: أكرهك لا تتركني!

بعد أن ابتسمت.
- لست أنا من لخصه بل الطبيب، عادةً ما أمتحن من حولي وأخرج أسوأ ما فيهم لكي يبتعدوا ثم أتمسك بهم، متطرفة في كل شيء، وإذا بادلني أحدهم الحب أشعر بأني لا أستحقه. أبعده ولا أستطيع تقبل الفقد وأبدأ بانهيار يمتد لأسابيع.
- أجل سكان بلادي كلهم «بوردرلاين».
- هذا أحد جوانبه، الألم، ولكن هناك الكثير ممّا يحمله هذا المرض،

أصحابه دائما ينتهون وحيدين مبغوضين.

- دعينا الآن نترك حملنا وعاهاتنا خلفنا، أساسا أنا لا أؤمن بكل هذه التصنيفات الطبية، لقد اخترعوها فقط ليخفوا بها الشرور في نفوس البشر.

أدارت مفتاح الموسيقى للأعلى مرة أخرى بعد أن رفعت حاجبها وأرخته تعبيرا عن تعجبها وانطلقنا. كاثرين تكبرني بثماني سنوات. دماؤها ساخنة نوعا ما، تقضي وقتا في الاهتمام بشعرها ولباسها، تتناول حبوبا مؤكسدة لتحارب الشيخوخة مبكراً..

طوال الطريق وأنا أنظر من خلال النافذة، عالم غير عادل، كل هذا الجمال يقابله تصحر في بلادنا.. ألا نستحق أن نستمتع بمثل هذا الجمال؟ القول إن الله وهبهم ذلك في الأرض وسيهبنا إيّاه في الجنة لم يقنعني يوما.. لم أعر الوقت انتباها حتى أوقفت كاثرين السيارة في أحد المرائب، قضّينا من الوقت ساعة وعشر دقائق.. تبادلنا ابتسامة بنظرات تومض بحدة وكأننا انتصرنا في سباق رالي، أشعلت كاثرين سيجارة واتصلت بصديقة لها، قد تم الاتفاق معها لاستئجار غرفة في منزلها الواقع في أرلنجتون فيرجينا، كي أمكث عندها، فلم يكن مسموحا لي بعد الإختلاء بنفسي. ترجلت من السيارة وأسندت ظهري إلى هيكلها، في انتظار قدوم صديقتها، انضمت إلي كاثرين وبيدها كوب القهوة:

- ما هو شعورك الآن؟

سرحت في سؤالها:

- مريع.

- إذن لماذا هذه الابتسامة؟
- أشعر بغبطة.
- أسألك ما شعورك؟ تقولين مريع ثم غبطة!!!
- لست في مزاج للشرح ولكن رغم إحساسي بالغبطة إلا أنه إحساس مريع، إحساس دخيل عليّ لم أعهده، كمن أخرجوه من نفق فجأة ليرى النور ويعلم أنه عائد لا محالة.
- متشائمة؟
- بل حكيمة. الحمقى وحدهم يستمتعون. لماذا أغادر حالتي الدائمة لأعود وأتلبس بها من جديد.
- وأين ربك منك!

سرحت.. فعلا أصابتني:
- ربي جعلني من المختارين ولست من السعداء البلهاء. وأنتِ لك بالمقابل هذا السؤال الأحمق السطحي: هل إنتِ سعيدة؟
- كنت كذلك قبل حضور الحقير جورج.
- صحيح! لماذا لم تقابليه؟
- لم أستطع، شعرت بضعفي، انعزالنا عن العالم يضمر مهاراتنا الاجتماعية والعاطفية دون أن نشعر. نسكن حصنا ونتخيل ما الذي سنفعله حين نواجه كل من أساء إلينا ثم نهزم قبل أن نصل. لم أكن أعلم أنه غادر السجن. وقع المفاجأة شلني، خشيت أن أعانقه، سكنت هذه اللحظة خيالي وصوت الصفعة المدوية التي سيتلقاها مني كنت أسمعها أينما حللت.. كل هذا

تبخر حين باغتني بهذه الزيارة.. اللعنة على المفاجأة لا شيء يظهر الحقيقة مثلها.

عدنا للصمت ومراقبة المارة.

تلقت كاثرين الاتصال المنتظر، صعدنا السلالم، طرقت كاثرين الباب وعانقت فتاة لا أعلم إن كانت من الباكستان أو الهند، رحبت بنا:

- السلام عليكم.

وبشوق للتحية أجبت:

- وعليكم السلام.

عبق المكان برائحة بخور، آية قرآنيّة في إطار ذهبي تشع على الحائط، مسكنها مهذب كسلوكها. تمّ التعارف ورؤية المكان، بعد ذلك غادرت كاثرين، بعد أن استوطنت الغرفة وأخذت حمّاما ساخنا.

طرقت الباب بتهذيب وأطلت سونيا برأسها مبتسمة، تخبرني بأن لي مكالمة، لحقت بها وكانت المتصلة كاثرين تذكّرني ألا أقوم بأي عمل جنوني. طمأنتها.

وجدت أنّه من اللياقة أن أمكث قليلا مع سونيا أستمع لقصتها. هادئة تلتحف شعرها الطويل المختبئ تحت حجابها الذي لم تنزعه إلا قبل ميعاد نومها. وحينها فقط رأيت نموذجا بشريا حقيقيا يختلف كل الاختلاف عما آلت إليه الإنسانية المبهرجة، تبادلنا الثقافات التي مللت الحديث عنها، قررت المكوث في حجرتي والاستمتاع بالخلوة إلى أن ابتلعت أقراصي ورحلت.

حين أفقت قررت القيام بنزهة. تجولت في العاصمة، ثم اتجهت للتبضع. خلال سيري توقفت فجأة وكأني رأيت أشباحا. أخفضت رأسي خلف إحدى المقاعد ومكثت على الأرض.

مددت رأسي لأتبيّن ما إذا كانا فعلا هما من لمحت. نوف وهديل يجلسان إلى القهوة. مكثت أراجع بحزم وانتظام بناء قصة اختفائي وحبكها وحفظ التواريخ والأماكن في حالة أنهما تبينا من أكون، عصرت مخيلتي، وبعد أن بنيت قصة اعتقدت أنّها مقنعة، راجعتها مرة أخرى، كنت أدرس سنة تحضيرية في الجامعة الأمريكية في القاهرة، إلى حين قبولي لتحضير الماجستير بجامعة... بجامعة؟ آه نعم شنندواه في إدارة الأعمال.

وقفت بحذر وحاولت الرجوع للخلف. لم تفلح حيلتي فقد نادتني نوف بأعلى صوتها، واتحدت معها نداءات هديل، التفتّ بتفاجؤ شديد، وقاما بحضني بحرارة، انتهينا من السلام ودعانني دون نقاش للجلوس معهما على الطاولة. وعلى الفور قامت هديل بالإمساك بجوالها:

- ما حد يقولي لا، بصور سناب، ما حد راح يصدق إنو منيرة معنا!

لم تتح لنا أي ردة فعل. قامت بمهمتها بكل حرفية. وبعد أن وضعت الهاتف نظرت إلي:

- يختي وينك، خبري فيك متى يا ربي متى، إيه تذكرت يوم بيت هند أما ذاك اليوم!

تحاشيت لؤم سؤالها:

- أبد أدرس.

- إيه ما شاء الله، وش تدرسين؟

- بزنس ماجستير في البزنس. والتفت عنها إلى نوف، بشرينا عنك؟

بالكاد سمعت إجابتها فقمت بنداء النادل وكان الحديث معه هدنة للتحقيق اللاحق، لم أستلطف هديل يوما، بمجرد ذهاب النادل، عاد صوت هديل بقوة:

- أنا سمعت إنك كنتِ في مصر!

- إيه جربت الجامعة الأمريكية هناك بس ما جاز لي الوضع .

واستمرت الأحاديث والأسئلة والنميمة في كل حدب وصوب، تعرقت كثيرا خلال العشاء الممل، نظراتها كانت تعريني، اللقاء كان اختبارا تحضيريا لما سأعود له عاجلا أم آجلا، من شدة ما تماسكت خشيت الانفلات، للكذب نحتاج طاقة هائلة، تستصرخ بصمت دورتك الدموية لتتحد كل صفائحها حاملة الحروف الكاذبة، توحد نظرتك، توجهها إلى بؤبؤ عين مستمعك تكاد تخترقها، ولسان حالها يقول:

- انظر، إني لا أهابك، انظر كيف أني صادق، أكذب من غير أن أرمش أو تهتز لي شعرة. عند كل إجابة كنت أشد ساعدي ولكن مع كل سؤال كنت أصير أقوى بل أصبحت أستمتع بالكذب، آه فهمتكم الآن أيها الكاذبون، أعتذر، هم من أجبروكم.

سرحت فيهم وفي أحاديثهم، نعم فالحياة قائمة في الخارج... كان عشاء مُنهكا، حمدا لله أنّه انتهى.

عدت سيرًا رغم برودة الطقس، بعد أن تذمرت بما فيه الكفاية من فضول هديل الذي لا يطاق وأخذها لي في جولة على حسابات الفتيات. لم أجد وجها قد أشعر بشوق إليه، ما من أحد، الزمن توقف هناك، جيل الأغبياء، الكل يتشابه، أين ذهب الزمن الجميل الذي كانت الأنوف فيه تختلف. وضعيات التصوير متشابهة، التعليقات لزجة، كمية مشاعر مبالغ فيها، ودّ ورقّة مصطنعة تفوح رائحة الغدر من حروفها، لا شيء يُذكر أكثر من ذلك، وتوالت الوجوه، كل ما شعرت به هو الاشمئزاز.

في اليوم التالي غادرت عائدة إلى ونشستر. لم أكن على استعداد لأي صدفة أخرى.

ردود أفعال لأفعال قديمة

بدأ الأسبوع ثقيلا، لا تثق في الشوق، إنك لا تراه قادمًا أبدا، يباغتك بحضور كثيف لزج، فيالق من الذكريات وجيوش حنين بأنين صاخب داهمتني بخبث حارق، للقاهرة ولكل من عرفت فيها. ما أفقرنا، لا أحد منّا يعرف قيمة الأشياء إلّا باستبدالها، بعد أن نُزعت من لوحة القاهرة وكل جنونها، عبقها وتاريخها، يُلقى بي إلى العلم الأمريكي ونجومه وسطوره التي لا أرى فيها أي هيبة، كانت راية عصرية لا تمت للتاريخ بصلة.

تبدلت فرح، ووفاء، سميحة ومضاوي، إلى ألكساندرا وكاثرين وسوزان، ومايكل وجورج. ضاعفت تواصلي معهم جراء ذلك، بانتظام أسبوعي قارّ، أسأل عن الجميع حتى جميلة التي لم أكن أتخيل أني قد أفتقدها في حياتي أبدا.. لم تستطع الجودة العالية أن تعلو فوق روح القاهرة، كم افتقدت أصوات الباعة المتجولين وعمْ رجب وكل التفاصيل من الهواء الملوث إلى الشوارع المزدحمة. لم أكن أعلم أني أملك حسا وطنيا عقائديا إلا حين عاشرتهم. جراء انتقاداتهم اللاذعة، أصبحت أبالغ برفاهية العيش لدينا وبتميزنا عنهم وجميعنا نعلم أن ذلك لم يعد كالسابق. في نقاش عن الأديان، تطرقنا للحديث عن سيدنا

عيسي، حين نطقت بأنه مازال حيّا انفجروا ضحكا. كدت أضحك معهم ولكني تماسكت.

تحدثت:

- حسنا جاك، لنقل إنك أردت شراء أيفون، المؤكد أنك ستسعى لاقتناء آخر تحديث.. كذلك هو الإسلام آخر تحديث من الرب.

نظر إلي:

- أنا لا أستخدم أيفون، فهاتفي أندروييد.

مستفزون، كيف يعتقدون بأنهم من يعلم كل شيء، تهت قليلا مع الفكرة! !لماذا؟ أعتقد أننا نحن من نعلم كل شيء!! فليحترقوا جميعا، آية واحدة من القرآن كانت تخمد رأسي وتطفئ شكوكي، ومع هذا تحاشيت الحديث بعدها عن الدين. ابتعدت عنهم أحاول تذكر حالة روحية سكنت شغاف قلبي سجدت فيها لله بدافع محبة لا خشية من النار. فقد نشأت في مدارس يكفنون فيها أحد الأحياء ويصورون لنا القبر وعذابه، مكبرات صوت في وقت الصلاة تتوعدنا بالنار وتحذرنا من الذئاب البشرية الذين لا يحقون لنا إلا عند إكمال نصف ديننا. غادرت نفسي وكأني خشيت أن تتحطم آخر نافذة مغلقة في رأسي. لست في المكان ولا الزمان المناسب لأخوض هذه الدوامة.

جورج بعد كاثرين كان أقربهم إلي، حساس، يقرأ ما حوله، أكثرنا أناقة، يرتدي ما يريد ويعبر عن شخصيته من غير أي سياط نظرات خارجية تنتقده، هم الأحرار. أما عالمي المتخلف الذي قد يحكم عليك

من حذائك أو تسريحة شعرك،كل هذه العقد، كل هذه الروابط الخفية التي تحرقنا،من يحيكها في الظلام؟

هناك في أرضي نخالط بعضنا دون ثقة، الكل يتوقع نذالة من الآخر، من سيخبر عن من ومن سيشي بمن. الجميع يشير إلى الجميع لإبعاد التهم عن نفسه، محيط مريض. هنا تحررت من تلك القيود الوهمية، كانت حياة كريمة، أرتدي ما أشاء، حتى أني لأول مرّة أعلم ما هو ذوقي في اللباس.

أما ألكساندرا فقد انتكست ورحلت. لم تتوقف نظرات العداء بيننا قط. وسوزان أيضا. حافظنا أنا وهي على المسافة بيننا. هو مايكل الذي كاد أن يفقد صوابه في محاولة التقرب من كاثرين. كان إذا حضرت لا يفارقها. من أنبل التصرفات هنا، أنه إذا أعجب شخص بآخر يتجه إليه ويسأله بصراحة والأجمل أن الشخص الآخر يستطيع الرفض بلطف والأجمل من ذا وذاك، أن لا عداوة تنشأ بينهم أبداً، بعكسنا تماما نستمتع بلعبة المطاردة وتعليق أكبر عدد من المعجبين. نحيط أنفسنا بهم، نقرب البعض تارة ونعلق الآخرين في الحواف كلاعبين على دكة الاحتياط، جاهزين لاستبدالهم، حين يصاب أحد اللاعبين في قلبه تحتم إبعاده عن ساحة الغرام السامة. نعم أخلاقهم في هذه كانت أنبل، فقد تجرأ وطلب وقُوبل برفض ورغم ذلك لم يتغير الاحترام بينهم.

سارق النوم يعاني الأرق أيضا

بدأت حواسي بالثبات نوعا ما وأعضائي الحيوية بالركود، ما أتاح لي إفلات زمام أمري قليلا،كان مساء أمريكيا بامتياز. طغت على المكان رائحة الشواء على إيقاعات موسيقية لا تطرب لها أذني، وضحكات مبالغ فيها. يشارك الجميع بطرفة كلما بدأت تخبو روح الفكاهة التي أراها تختنق بينهم. كم وددت لو استطعت اختراق هذا الحس الفكاهي. حين أتكلم بجدية يضحكون وإذا حاولت إلقاء طرفة تقع وتموت من غير صدى. جورج ومايكل، يتنافسان على كرة سلة، على مسافة بسيطة يَصعب من خلالها منع موجاتهم الصوتية من اختراق محيطنا.

لا أعلم كيف كنت أراهم أجمل منا. لم أكن أعرف أن للجمال مكرا يبدأ من خداع أبصارنا ليستقر حقيقة في عقولنا وقلوبنا. بعد اقترابي منهم تبينت العكس، تنقص ملامحهم تلك الهيبة العربية، فمهما كانت ألوانهم أجمل كانت وجوههم شاحبة لا زهو فيها. لا أعلم إن كانوا يروننا كذلك أيضا. ابتسمت فجأة حين تذكرت أشكال مدرجات المشجعين في مباريات النصر والهلال في الرياض بعد أن مسحت من حولي بنظرة. اعتقدت أني بالغت. عموما ليس أمرا مهمّا، حتى لو كنت في مركز علاجي يضج بالهنود الحمر الذين أعتقد أنهم على شفى الانقراض...

خطر ببالي حينها الكوالا!! فلم أكن قد سمعت آخر أخبار محميته.

التفت إليهم وصوتي يخترق إيقاع ضحكاتهم: هل انقرض حيوان الكوالا؟؟

ولم أعلم حينها أني نلت جائزة أفضل طرفة لهذا الأحد، صدحوا بالضحك المستمر وبدأت أضحك معهم. فقد كان سؤالا ينم عن استهلاك التوصيلات العصبية بين الأفكار. تلك الفاصلات التي تصدر من شخص كان يستخدم المكنة الدماغية على كهرباء أعلى.

فجأة، ودون مقدمات ظهرت فتاة وسط المكان. لا، ليست فتاة بل غانية، لا أعلم. المهم أنها ظهرت وأمطرت. عربية خليجية. هكذا فجأة وكأن الحياة اعتادت بعد أن تُقدم لك وجبة تُتبعها بالتحلية، لأنها ستحرمك وتضعك في حمية قاسية. كانت تقف خلفها ماريبل، قدمتها بنبرة استعراضية:

- ندا من الكويت!

الغريب أنها كانت مبتسمة، وهذا ليس من عادات الوافدين الجدد، وكأنها تعلم ما سببت لنا من بهجة في نفوسنا. بل كانت مبتسمة جدا. كانت أنيقة بأقراطها الماسية. ثيابها متسقة وكأن رسّاما ألبسها. شعرها خيلي من دون نقاش. عيناها لوزية عسلية. استكملت ماريبل التي تداري جمالها الأندلسي أمام مصدره الخام: لدينا منيرة أيضا من السعودية يا ندى.

اتجهت على الفور وحضنتني. كانت دافئة:

- كيفك منيرة؟

ابتسمت بدوري:

- بخير انت كيفك؟

وكانت خلفيتنا دعابتهم الثقيلة بأننا سنصبح فريقا عربيا هنا. قمت على الفور بوضع منديل على ساعدي كالنادل، فقد ابتهجت فعلا بحضورها، انحنيت:

- what do you like to drink beautiful?

وأيضا أضحكتهم بهستيريا. الأجمل أني سمعت ضحكتها، تلك الرنة العربية وكأنها صوت ناي اقتحم إيقاعاتهم.

- قهوة ولا عليك آمر.

هنا تدخلت ماريل على الفور:

- التحدث بالإنجليزية رجاء!

وبنظرة حادة ذكية منها:

- لا تقلقوا ليست لدينا أي أجندة أو أسرار!

لكنتها الإنجليزية منقوشة من الصغر تنم عن دراسة مبكرة للغة. حيث أن لكنتي كانت تحوي تلك البصمة العربية. أحضرت لها ما طلبت والتففنا حولها وبدأت بتعريف نفسها:

- مرحبا اسمي ندى، مدمنة، أشتاق إلى أمي كثيرا، شكرا.

لحظة صمت منّا جميعا أفقنا منها ببداية تصفيق أحدهم حمل مسؤولية الصمت على عاتقه، ما أعمق ما قالت، اختزلت به كل وجعنا. تلقت ابتسامات كثيرة ونظرات إعجاب سقطت قبل أن تلتقطها. فقد

تساقطت دموعها. من يبكي دعه يبكي. يجب احترام حضور هيبة الحزن وعدم قطعه بتلك النصائح وألحانها الفارغة. نعم دموعها كانت تلمع، في هذا المساء الأمريكي البارد. انتهينا من ليلتنا وتفارقنا بابتسامة وخلدنا إلى النوم.

أفقت باكرا، بزاوية ابتسام منفرجة أكثر، بإحساس من اقتنى هدية ثمينة في الأمس. تحممت وارتديت قميصا لونه لون السماء. حين غادرت غرفتي كانت كاثرين ما تزال نائمة. اتجهت لأسكب لي قهوة وهناك وجدت جورج فلم يلبث أن وجّه لي صفعة صباحية مبكرة:

– هل علمتِ أن ندى رحلت عن المكان!

تحول في نظري فجأة إلى غراب.

ذهبت ندى كما الحلم حين أتت،علمنا لاحقا قصتها، باختصار والدتها انتحرت بسبب إدمانها، شق قلبي مصيرُها، هل ستنجو من ذنب حِمله يفوق طاقة الجبال، لا تتكلم عن الندم في حضور الذنب، فهو أقسى، الندم يقتات ولكن الذنب ينهش. ابتعدت بكوب قهوتي قدر المستطاع، فقد تلبستني روح ندى ويجب أن أخلع رداءها.

ندى لا وقت لديك لشيء. احملي شوال همّك فوق ظهرك وسيري في هذه الأرض. جففي دمعك يوما وانثريها آخرا. الطريق التي دفعتك إليها الحياة لا بد فيه من مسافرين غيرك. لا أتجرأ عليه، لم أطأه، لا خبرة لي به، لا خارطة له. أعرف ذلك. ابحثي، ستجدين هناك مسافرا عتيقا. ملامحه قد توحي لك بنوع الألم وحجمه، إنه موجود، امكثي بجانبه لوقت، قد يمسح على رأسك.

لِمَ رحلتِ! نعم، طريقي كانت أسهل وأوقح من أي لوم ألقيه عليك. لكني كنت أحتاجك هنا. من الجيد أنها لم تخبرنا إلى أين هي ذاهبة. على الراحلين دائما أن يفعلوا ذلك أن لا يتركوا أثرا خلفهم، ارحل ولا تسبب خللا في خارطة مسار من تركته. سيهندس كل خطواته بمحاذاة خطك الاستوائي على رجاء أن يتقاطع مساره بمسارك في يوم.

تخطيت رحيلها، فقد اعتدت ذلك. لا يمكن أن تخدعنا الحياة أكثر، هاتي ما عندك فأنا محاربة قديمة لا أخشى أي إصابة.

الماثل أمامك في المرآة.. أنت ابتسم

صباحات الفاقدين دائما موجوعة، صباحات ناقصة. وضعت شكواي في قهوتي وارتشفتها بصمت. قد تسقط دمعة تُمسح بأسرع من ومضة برق. لا تقوى تدخل خارجي عقيم. يظنون أنه يسعفك. كل المقولات محفوظة والإرشادات أكثر سوءا. ارتديت ملابسي وخرجت. سرت بلا هدى. دخلت المقهى المفضل لدي وطلبت قهوة أخرى. جلست أرتشفها بهدوء وأنا أتصفح وجوه الناس. امرأة شابة ترتدي ثوبا أحمر، رجل يعبث بالمنفضة، قمت وجلست في الخارج وتناولت قداحتي لإشعال سيجارة المالبورو الأحمر الذي أصبحت أدخنه مؤخرا. مهما أخبروني بأني أقترب من الشفاء هناك دائمًا جزء عصيّ. أخرجت من حقيبتي ورقة وجلست بهدوء أعتصر ذهني لأكتب سرا للطّبيب «لايل» كما اتفقنا. الهواء نقيّ والمكان رغم ازدحامه يكاد يكون صامتا. فجأة، اقتحم المكان رجل، متوسط الطول، رداؤه مهلهل كأنه أخرجه من قمامة، لا أرى في عينيه أي ومضة عقل، دخوله كان ثائرا. نظر إلى الجميع وبدأ يشتم ويكيل اللعنات وأن لا أحد منا يعلم ما الحقيقة، تتخلل حديثه مصطلحات علمية. كان يحلل أمورا بذكاء فريد، لكن لا ترابط بين أفكاره. نبرة صوته تشتد وترتخي، آلمني منظره

جدا، كان هناك رعب شديد في عينيه،بدأ يهجو أكثر وأكثر، تصدعت داخليا من رؤيته. أعلم أن هذا قد يكون مصيري في المستقبل. فكما قرأت، من أصعب الأشياء في مرض ثنائي القطب هو تقبل المرض والاعتراف به. وإذا حدث ذلك فهذا نصف العلاج، حينها ستنتظم في تناول أدويتك التي ستوصف لك مدى الحياة.

لم أكن أعلم ما علتي قبل هذا وما أجبرني على التعاطي، تتوالى علي النوبات وأنا لا أعلم ما السبب، اكتفيت باتهام الظروف وتحميلها المسؤولية في ما يحدث معي حتى هزمتها وظلمتها فحقدت علي وكالت لي الضربات. وكأن هناك سدًّا منيعا يُرفع في نوبات الجنون فتغمرني الحياة، ثمّ يُوضع فتعتزلني. تتركني معلقة على جدار النسيان. رفضت تشخيص حالتي لفترة طويلة، توقعت أنه كغيره من مسميات الاضطرابات ولم أعلم أنه داء عقلي. فكيف يَعقل من كان عقله داؤه وعدوه. كالنائم لا يعلم أنه نائم. نعم، أُجبرت على الأدوية المثبطات والمهبطات، ونعم كانوا في كل نوبة ارتقاء يطفؤونني قبل أن أتخطى الواقع. مقت الأدوية. ولا حيلة لديّ، بشاعة الاكتئاب أجبرتني عليها. كثافة الشعور في كل نوبة وعواصفها أدفع ثمنها في نوبة الموت.

وهنا كتبت أول سرّ لطبيبي: أنا ثنائية القطب الوجداني.

حرفة تكرير الأخطاء

أصبحت خانعة. وبعد حضور عدة اجتماعات توجّب عليّ اختيار مشرفة ولم يحدث هذا معي في القاهرة لأنهم كانوا يعلمون أنّي لست مستعدة بعد لتشغيل خطوات البرنامج، كنت أتأمل في كل اجتماع وأسمع مشاركتهم، إلى أن لمستني في يوم إحداهن، سيدة في أواخر الأربعين تدعى سارا، شقراء جدا، نحيلة، قليلة الكلام وعيناها خضراوان لامعتان وكأن روحها ترفرف حولها من خفتها.. كانت تقطن في كوخ في الغابة هي وزوجها الذي يؤمن بالطاقة أمّا هي فكانت من اللطف بأن جمعت ديانتيْ البوذية واليهودية، اتفقنا جميعا أن لا نتطرق للحديث عن الأديان، فبرنامجنا روحي.

أصبحت أقضّي معظم وقتي معها في الزراعة، فهي من محبي الطبيعة. كنا إذا قابلنا في طريقنا شجرة توقفت لعناقها ممّا يثير في نفسي الحنق، تتغنى صباحَ مساءَ بحب الرب. كنت بالنسبة إليها شخصية معقدة منغلقة خصوصا حينما رفضت إكمال المكوث في جلسة تأمل بعد أن رأيت تمثال بوذا وأعمدة البخار تتطاير حوله. أحدثت ضوضاء جعلت الجميع يستنكر انسحابي.

سرعان ما أصبحت علاقتي بسارا متينة، علاقة صحية لم أشهد

مثلها من قبل، أصبحت كامي الروحية، قضّيت ليالي عديدة في منزلها، علمتني الكثير عن الموسيقي وأساليب التأمل، كانت تجعلني أتفتح ذهنيا بهدوء وهو من أهم مبادئ البرنامج، حبها وتسامحها مع الكون ينعكس على تصرفاتها وأقوالها، تفعل ما تنادي به وتقوله،حكيت لها كل شيء عن قصة حياتي، فقد وصلت إلى الخطوة الرابعة من البرنامج، الخطوة الأعمق، التغيير الفعلي لمسار الحياة. كم تمنيت لو أن البشرية جمعاء تتبعها. في تلك الخطوة الرابعة وجب أن أكتب كل المواقف التي نُقشت في ذاكرتي وتركت أثرا في نفسي. مكثت شهرا أدعو الله ثم أشرع في الكتابة.. حينها تأكدت أني كنت فعلا أعاني من مشكلة، الكتابة كانت كفيلة بهتك الشك الذي كان يلازمني كظلي. بعد أن انتهيت من كتابة كل ما أذكر، أجلستني مشرفتي في ظل شجرة في الحديقة وبدأنا نتكلم عن كل موقف، استغرقنا أسبوعا لننهي ذلك، لا أنكر أنها استفزتني كثيرا بنظراتها الحانية ونبرتها الهادئة وهي تخبرني:

– لا بأس، كل شيء سيصبح على ما يرام.

مع كل موقف تضع يدك على العطب في بنائك والنقص في شخصيتك الذي أدى بك إلى مثل هذا التصرف، تُصدم مما ترى، الأمانة كانت أساس كل شيء. مواقف كثيرة أثرت في حياتي، كان انعدام الأمانة السبب الفعلي الكامن وراء ما حدث، وإن كان بكلمة. الإحساس بالدونية هو ما يجعلك ترضي الآخرين، علّهم يقبلونك. وحين يفعلون ذلك ترفض مشاعرهم معتقدا أنك لا تستحقها. بعد الانتهاء كما وعدوني، أحسست بأني تخلّصت من القاذورات بداخلي وبأني نقية، شعرت بحرية عارمة والأهم بتصالح وهدنة مع نفسي، رغم

أنّي استلمت من مشرفتي ورقة بها أربعة وستون عيبا يجب أن أعمل عليها، أخبرتني أن أحتفظ بما كتبت لاستخدامه في خطوة التعويضات لكل شخص قد سببت له أي نوع من الأذى معنويا كان أو ماديا، بعض الأشخاص التعويض لهم سيكون بأن لا أظهر في حياتهم مرة أخرى. عرفت إلى أي حدّ يمكن لأيّ منّا أن يسبب عطبا في قلب أحدهم، وقد لا يبرأ منه أبدا.

أجدني أجبن مما كنت

استطعت تجاهل الفروقات والأفكار المزعجة في صدري وأطفأت الاستياءات، قدّمت أربعة اجتماعات أكون أنا المتحدثة فيها، في مقاطعات عدة. كان لديهم حب استطلاع كبير. مستمعون جيدون ومنبهرون على الدوام، يثيرهم أي شخص من بلاد بعيدة عنهم، كنت مهمة جدا بالنسبة إليهم باعتباري من إحدى دول الخليج العربي. لطالما انتظرت اللحظة المناسبة لأقفز بمهارة وأعتلي موجة معتدلة المدّ والجزر، تقديمي تلك المحاضرات جعلني أعرف عن نفسي أشياء كثيرة. كنت أشعر بأني أقترب مني.

وبعد كل اجتماع يطلب البعض أخذ صورة معي، فبدأ كبريائي الزائف بالانتفاخ مغلّفا بغرور طفيف، لقد أصبح لدي أصدقاء كثر والدعوات إلى المناسبات وحفلات الشواء أصبحت بصفة مستمرة.

وهكذا انبثق الملل في نفسي وأخذ في التصاعد، الحقيقة أني لم أكن أستمتع كما أُظهر ولكن ما بيدي شيء، كان حزني ينمو سريعا. رغم كل هذا الجهد والأمان إلا أنه كان هناك شيء بداخلي حين يحل الليل يشرخ جدار تعافيّ. كان له من الخبث ما حال دون معرفة مصدره أو سببه، كنت أتجاهله حين يفترش روحي كنوبة ذعر إلى أن ينتهي. أبدا، لم أخبر أحدا عنه.

في الصباح، قسوت على نفسي بتمارين رياضية شاقة علها تخفف ما بي. ثمّ اغتسلت وارتديت ثيابي لألحق بموعدي مع الدكتور «لايل» العائد من الإجازة، وكالعادة حين طرقت الباب ودخلت وقف، ربّت على كتفي، ورحّب بي مشيرا إلي بالجلوس.

- حمدا لله على سلامتك.. افتقدناك.
- شكرا منيرة، أنا أيضا افتقدتك.

تبادلنا الابتسامات، ثم قام بسحب درج الخزانة في مكتبه وأخرج ورقة مطوية، تذكرت على الفور أنها رسالتي السرية الأولى له. بعدأن نظر إلي مطولاً:

- لا يمكن أن تعلمي مدى سعادتي برسالتك وتفاجئي. إن هذا أجمل وأصدق سرّ يخبرني به أحدهم يوما.
- حسنا أين سري أنا الآن.
- سأخبرك، هل تعلمين أني أنا أيضا كنت مدمنا، ومصابا بثنائي القطب، وأتناول أدويتي بانتظام؟

تعجبت، وقبل أن أنطق أكمل حديثه:

- كنت مدمنا لمدة طويلة، ما يقارب السبع سنين، أصبت أثناءها بنوبتين قلبيتين جراء جرعات زائدة.
- لو سمعت هذا الحديث من غيرك لما صدقته.
- دائما هناك عطايا من الرب حين نتخلص من أشياء علقنا بها.
- وإذا كان الشخص عالقا في ذاته فما الحل.
- أعتقد ليس أمامه سوى الاستسلام ليدع قوته العظمى تتولى ما

تبقى.

- أنا سلّمت يا دكتور.

- ولكن لم تستسلمي، لم تتركي القيادة، جربي أن تتركي نفسك ولا تفعلي أي شيء.

- لم أفهم.

- دعي مشرفتك تقودك وستصلين يوما، ألستُ مثالا حيا أمامك؟ تأكدي، لم يكن طريقي سهلا، أظن أنه ما حُقّ لي أن أكون الآن هنا لولا البرنامج وأدويتي.

- إذن لماذا مازلت أشعر بكآبة في بعض الليالي مع أني ملتزمة بالعلاج؟

- أعتقد أنك تمرّين بنوبات مختلطة.

- وما هذا أيضا؟

- قد تتوالى نوبات الهوس والكآبة خلال اليوم ذاته.

- هل يمكن أن نتوقف هنا؟

- قبل ذلك أردت أن أسألك إن كان لديك أصدقاء هنا في أمريكا؟

بعد برهة:

- نعم لدي صديقة تسكن في نيويورك.

- هل هي مدمنة نشطة؟

- حسب علمي لم تتعاطَ غير الحب.

- إذن أقترح عليك السفر لزيارتها.

ضحك ضحكته المعتادة وصافحني. غادرت إلى غرفتي وعلى

الفور تحدثت إلى هيفاء التي سرها الخبر أيما مسرة. واتفقنا على اللقاء.
جهزت أمتعتي وخلدت إلى النّوم.

ليس رأس الحكمة ما بلغته أو ما عثرت عليه

أفقت عجلة. تناولت أمتعتي وحاولت ترك لوعتي في غرفتي، وأنا في طريقي إلى العاصمة انشغلت بإتمام الحجوزات والتأكيد على هيفاء وأنا أتجاهل هاتفي الداخلي ذا النبرة الكئيبة. بمجرد أن استوطنت مقطورتي الخالية من أيّ أحد سواي، عكفتُ على نفسي، أخرجت ورقة وقمت بتقطيعها قبل أن أشوّهها بجرة قلم، حتى القلم قمت بكسره أيضا، لا أعلم ما الذي كان يعتريني، ربما لم يتبقَّ لي أعذار أستند إليها. ها هو الدكتور «لايل» مثال حي أمامي ولكن ما المطلوب أكثر من كل ما يحدث؟ أغمضت عيني لوهلة ثم أخرجت الكتاب المرافق وبدأت في قراءة رواية الغابة النروجية، نعم أجد تشابها لا يراه غيري بين عقدنا النفسية العربية واليابانية، سرقني الكتاب من نفسي ولم ألحظ القطار يتوقف، ترجلت وترجل اكتئابي يسير بجانبي وكأنه حارسي الشخصي. وصلت إلى «التايم سكوير»، مكان كنت أتمنى زيارته. بمجرد ولوجه تلقيت صفعة مدوية من تلك الساحة المهيبة، نعم، من أكون؟ ما الذي يميزني؟ يا لضآلتي... من أكون بكل ما أحمل من أفكار ومعتقدات؟ لا شيء، نكرة... أخذتني الصفعة وأخرجتني من نفسي. أكاد أجزم أن كل من ولج هنا لأول مرّة ينال هذه الصفعة. دقائق

وظهرت صديقتي القديمة التي غبنا عن بعضنا لفترة ليست قصيرة أبدا، دائما تلك اللقاءات بعد طول غياب تعكس لك المؤشر الحقيقي لحالتك، حتى لو لم ينطقوا بما رأوا فإنّ أعينهم تخبرك. تعانقنا بشدة.

هيفاء شبه مهاجرة، تاهت منذ زمن هناك، ما عادت ترغب في العودة بعد أن كُسر قلبها في قصة حب عنيفة استمرت سنين، شبه منسية تتناسى..

بمجرد لقائنا أخبرتني:

- منيرة إنتِ صرتِ بوهيميه؟

نظرت إليها وقلت:

- يمكن ،ما أعرف.

- لاأصدق منيرة!

- ليه؟

- أولا شكلك، ثانيا...

قاطعتها قبل أن تكمل:

- ممكن تفكينا من ذا الحكي والتحليل.

جلسنا في مقهى وكان لها مكالمة فسرحت في ملامحها. أيّ عقل يسمح للحب بأن يفعل في صاحبه هكذا؟ كم ضحية كلفها الحب حياتها؟ بمجرد انتهائها، خضنا في أحاديث كثيرة، إلى أن عادت بها الذكريات إلى حكايتها، فبدأ الحديث يأخذ منعطفا آخر، بدأت تتحدث عن عمق جرحها وأن جرح الحب كآلة حفر، يغور عميقا، عميقا جدّا، يبلغ أخمص القدمين ويتعداها إلى أعمق بؤرة أرضية. علام تراه ينقّب؟

ألمٌ يسير بدائرة كهربائية تكون فيها أنت المحول، من أعلى هامتك إلى أعمق بؤرة، ثم يعود ويلتف وهكذا. تولت هي الحديث بشجن لمدة ليست قصيرة. لم تتح لي فرصة لتغيير دفة الحوار واسترسلت موضّحة أنها لا تعلم إن كانت قد شُفيتْ. قد ينقص الألم ذرة في يوم ويتكاثر في آخر. يتجدد مع المواسم. لا تثق في غيابه وإن طال، تعلم أنه سيجتاحها كطوفان في صدفة لقاء أو خبر يحمله عذول.

نظرتُ في من حولنا من البشر وتفكرت، كم من القلوب كانت تحترق في صدورها دون أن يلحظها أحدّ!

صدقا بدأت أختنق. كان الوقت يسير ببطء سلحفاة، أشعر بها تحبو علي ثم تلتصق بي. تخرج رأسها، تريعني كل فينة. أردت أن أخبرها بأنها ربما تكون قد أدمنت دور الضحية بلا وعي منها. حتى لو كنتِ فعلا ضحية، لديك الخيار بأن تقفي، أعتقد أنه ليس هو من بداخلك بل هي جثته. ليتك تتركين مساماتك الحسية مفتوحة لدرنه حتى يخرج. لقد حان الوقت لأن تفرغي الدمامل الروحية وقيح الشعور. كل ما عليك هو أن تأخذي الدرس من هذا وأن لا تأمني لجرح لأن عدته جاهزة دوما، تلك التي يخفيها في البقع السوداء من روحه، سيخرجها مرة أخرى. عليك أن تسامحي ولكن لا تصالحي. لم تترك لي الفرصة لأقول لها كل هذا.

أعتقد أن أساليب الجرح كثيرة حتى أنه لا يعطينا مجالا لنشرحه. ما معنى أن يساء بك الظن، أن يُفتعل موقف للتخلص منك لأيام... كما أعتقد أن خيانة الأصحاب أشد إيلاما من خيانة الأحباب. فكّرت

كذلك في أنّ عليها أن تكفّ عن حماقاتها، من سيعوض لها حياتها المتفحمة. ما من أحد إلا وفيه جرح من أحد. ألا يكفيها أن تكون من المجروحين غير الجارحين. من يكبح قهره لا يقهره أحد ومن يحكي قهره تتكوّم حمم تحرقه قبل غيره. استجمعت أفكاري كلّها وتكلمت معها بصراحة:

- هيفا، الوقت الي الألم يوقف فيه هو الوقت الي معناه انك اتلقنتِ الدرس، صدقيني يمكن تحتاجين بس تذاكرينه شوي وتصكين الكتاب وتحطينه في ملف عمرك وتفتحين صفحة جديدة، أصلا وش الحياه إذا كانت كلها إجابات، الإجابة يعني الموت، عيشي مع تساؤلاتك مو لازم تلقين إجابه ما في شهادة تخرّج من مدرسة الحياة.

قطع حديثنا رنين هاتفي، أخرجت جهازي بتثاقل ونظرت. اتصال من بلادي، لم أتبين من المتصل. تسارع الأفكار حتّم علي المرونة واتخاد القرار، هل أجيب أم لا؟نظرت حولي، رأيت آلافا من البشر، وبكل عفوية أجبت:

- ألو.

كررت:

- ألو.

وصدحت أغنية: «تدري أن الجرح للمجروح دين»

نعم أعرف هذه الأغنية، اشتعلت ذاكرتي ودخان حرائقها أصاب فكري بضباب واختناق لم أتبيّن ماهيّته.. أغلقت الخط.

قالت هيفاء بعد أن عدت إلى الواقع:

- وش فيك؟

- ولاشي، وش فيك إنتِ كل شوي تقولين لي وش فيك! بعدين حيصير فيني شي.

قررت دون سابق إنذار أو تفكير مغادرتها فورا. لم تكن تستحق مني اكتئابي. ولم أكن حمل تاريخها. تبينت أني غير مستعدة لمخالطة أيّ كان. حضنتها واعتذرت منها بشدة:

- سأشرح لك لاحقا وتركتها غارقة في تعجبها.

لم أطق المكوث في نيويورك، وضّبت كل أغراضي وذهبت إلى محطة القطار. ها قد عددت إلى الوادي المشؤوم.

خدمت عيني إلى أن غرقتُ في بحرها

عند وصولي رأيت الفتيات. رأيت الجمود في غرفتي. إنّ ذهابنا لم يحن، وهذا عادة ما لا يمكن أن ندركه إلا بعد أن نصل. ربما استقرّت هذه القناعة في داخلي فجأة ودون أيّ مبرّر منطقي. كنت منزعجة جدا واكتشفت أني لم أنفرد بنفسي منذُ أكثر من سنتين. لقد منحتهم الوقت الكافي. وغدا الفضول والدهشة واهييْن مثل بيت العنكبوت.

تمنيت لو أستطيع شق الغلاف الجوي. والمكوث في منطقة اللامكان التي لا يستطيع إثباتها حتى أينشتاين بكل نظرياته. ما المطلوب مني أكثر ممّا فعلت!! بعد الامتناع والاستمتاع الإجباري بالسكينة المؤقتة وإزالة المخلفات وتطهير الروح من الأسرار، وقد فعلت وتفحصت كل موقف وكلمة في حياتي كان لها دور ولو صغير فيما حدث. والآن، يريدونني أن أبني فوقها رسما من تصميمهم لا ذوق لي فيه أبدا. رسم موحد وكأننا مشروع وحدات سكنية متماثلة في كل شيء، في المساحة ومقابض الأبواب وحوافّ النوافذ وحتى لون الفرش، وحدات سكنية تجمع المصابين.. كالناجين من إعصار ترنيدوا أو فيضان أنهار.. نحن الناجين من الإدمان وجب علينا التوحد في كل شيء حتى في اللغة والمصطلحات ورغم ذلك مازلت لا أنتمي.

وهكذا حضر القرار السامي، من سلالة تلك القرارات التي لا تمر على أي هيئة داخلية بل تُرسل على الفور إلى لجنة التنفيذ. دون أي تفكير سيطر قرار الانتكاس. كانت بي حاجة ملحة لمعرفة الحقيقة: هل أنا مع القطيع السليم أم أنهم مجردة ثلة من الحمقى لا يؤمنون بشيء لذلك يتماسكون سويا؟ خططت لذلك بمنتهى الدهاء وأصبحت أتباطأ بعد كل اجتماع علّي أجد من لديه نوايا تتوافق وقراري. قد أحاول اجترار حديث مبطن مع أحدهم وسؤاله عن قيمة ما نفعله وقد يكفر معي بكل مبادئنا الحسية. ولكني تراجعت. ما ذنبهم فيما يحدث داخلي؟ لا شأن لي بغيري.

حينها كنت في الخطوة الثامنة، خطوة التعويضات.. كيف أعوض شعبي إذا كانوا لا يؤمنون حتى بفكرة أن الإدمان مرض؟.. كانت مشرفتي تطلب مني كل يوم البدء بذلك. واقترحت أن نبدأ بالأقرب فالأقرب. كيف يمكن أن أتحدث مع عائلتي وبأي لغة أخبرهم بكل ما فعلت؟ المواجهة ستذيبني خجلا. نفضت كل أفكاري وقررت الانتكاس، ولكن كيف أحصل على المخدر، وجدت أن أسهل طريقة هي الذهاب إلى حانة، في شرع البرنامج يعتبر الخمر مخدرا ومن بينهم جميعا كانت لدي شريعة أخرى تحرّم هذا الفعل وتعتبره من الكبائر. ولكني كنت أحتاج إلى جرعة من الأسف.. فأنا لم أخطئ منذُ فترة ولكني أيضا لم أفعل الصواب. أردت أن أخوض التجربة بكامل أبعادها. لم أنتظر حتى إجازتي بل قررت الانسلال خفية. في يوم اجتماع مزدحم كنت أشعر أن ومضاتي توحي بما أنا مقدمة عليه ولكني أستمتع بإخفائها. أخبرت معالجيّ بأني أحتاج إلى أن أسير ولم يمانعوا. وبمجرد ابتعادي

عن حدود المكان بدأت بالركض بسرعة تتزايد شيئا فشيئا وكأني كنت أهرب من نفسي وأغدر بها. وصلت إلى مكان الجريمة المنشود، وقفت لالتقاط أنفاسي كعادتي قبل دخول أي مكان، ولوجي كان دائما يثير في نفسي إحساسا بالدونية. لم أرتدِ في عمري أحذية مرتفعة قد تصدر وقعا لخطواتي، قد تلفت الأعين. تماسكت ودخلت الحانة. ليست لدي خبرة كافية في الكحول. مجرد ثقافة اكتسبتها من الأفلام وبعض ليالي الرياض. طلبت كأس نبيذ وتناولت أول رشفة منه. لم أشعر بأني انتهكت أي شيء، لا شيء إلى الآن، أنهيت كأسي الأولى وطلبت أخرى... عدت إلى المكان، حاولت ألاّ أقترب كثيرا من أي أحد وأخبرتهم أني نعسة وأرغب في النوم مبكرا والتخلف عن «الرفلكشن» فلم يمانعوا، ولو كان هذا في مصر لكان من المستحيل، ولعلموا وقتها ما فعلت. وأنا أدخل فراشي شعرت بأني كملصقات الجدران بإعلانات لمنتجات مزيفة. أطويني آخر اليوم وأضعني تحت فراشي. أفيقُ لأكرّر ما لا أفقه.

أصبح الخوف ضيفي وسيدي وأنا خادمته. سيد مستبد يغتصبني صباحَ مساءَ. أسير وألتفت خلفي، أخشى ظلي، يجمح قلبي ويعتلي صدري فتتسارع أنفاسي فجأة. أغادر مكاني خشية أن يلاحظ أحدهم ما بي. بدأت أدخل عوالم العالم الأول المختلة، كما سبقونا في الحضارة سبقونا في الجنون أيضا، البحث عن المخدر فتح أبوابا من الرعب وعينات بشرية لم أرَ لها مثيلا إلا في بعض خلفيات الأغاني المصورة، كنت فريسة سهلة، بدأت القصة في إحدى ليالي إجازة الأسبوع التي اعتدت فيها على زيارة الحانة ذاتها، المنزوية في شارع خلفي، متجنبة الحديث مع الغرباء باستمرار، رغم ذلك كنت وكأني أشعلت ضوءًا

أحمر فوق رأسي يقول ها أنا، فتاة قررت الضياع والانصياع للعالم السفلي. كنت قد غادرت الحانة للتو، استندت إلى جدار وأشعلت سيجارة رحت أنفثها بحرقة. كان نظري معلقا بالأفق، وإذ برجل أسمر يقترب مني، رجل يتلألأ من كثرة ما يرتدي من حُليّ، خطواته تتراقص ولغة جسده لها من الوقاحة ما يجعل كل من كان أمامه يبتعد فاسحا له الطريق، طوقني بذراعه واقترب من وجهي:

– ماذا هناك أيتها المحاربة؟

دون ترحيب أبعدت يده عني بصمت.

– مهلا مهلا لا تفزعي، هذه هدية صغيرة مني.

أدخل يده في جيب معطفي ورحل وهو يغني ويتراقص، وهكذا بهذه البساطة كنت أملك في جيبي شيئا لا أعلم ما هو، انتظرت إلى أن غاب وعدت إلى الحانة. دخلت دورة المياه الضيقة المتسخة وأغلقت الباب خلفي. بيد مرتجفة أخرجت ما وضع، وإذا بعلبة شراب ضدّ السعال شبه فارغة وبجانبها إبرة بلا رأس وورقة مكتوب عليها: «لا تتناول أكثر من واحد مليلتر ونصف للجرعة». فتحت الغطاء، لم أشتم أي رائحة مركزة ولم أتبين لونا لهذا السائل، أدخلت الإبرة وبالكاد استطعت تعبئة المليلتر والنصف ومن دون أي تردّد أدخلتها في فمي دفعة واحدة، طعمها كان له من المرارة ما جعلني أسعل بعنف حتى كدت أختنق. بعد أن تخطيت الأزمة بسلام، غادرت الحانة مسرعة، وبمجرد ملامسة الهواء وجهي شعرت بنوبة أخرى ولكن من الغثيان وإذا بذاك الرجل المتلألئ أمامي، يطوقني مرة أخرى، ضاحكا:

- بهذه السرعة، ما الذي فعلتِ؟

أجبته خوفا مما أقدمت عليه:

- فعلت كما هو مطلوب.

- في أي شراب وضعته.

متفاجئة أجبت:

- لم أضعه في شراب.

وإذا به يصدع بالضحك:

- فعلا أنت محاربة، مرة أخرى لا تتناوليه إلا مخلوطا في شراب. لا بأس الآن، لنرى ما يحدث، استمتعي..

ورحل.

في اليوم التالي لم أطق صبرا لأتجه إلى عالمي السري، كانت إجازة الأسبوع قد بدأت، أخبرتهم أني سأقضيها في واشنطن والحقيقة أني سكنت موتيلا قريبا من الدار، اتجهت إلى حانة أخرى فقد أقسمت ألا أعود إلى حانة البارحة أبدًا فقد كانت تجربة سيئة للغاية. وجدت مجموعة من الأشخاص توقعت أن لديهم ما أريد. الوجوه شاحبة ومرهقة وأعينهم الحمراء المرتخية، كانوا يدخنون «الماروانا» ولم يمانعوا انضمامي إليهم بعد أن دفعت عشرات الدولارات، استفسرت عن البائع، أتاني أحدهم ودفعت له كل ما تبقى معي وفي المقابل أهداني قرصين فوق نصيبي عربونَ تعارف. عدت أدراجي إلى مسكني، كان أول ما فعلته أن تناولت القرصين دون تفكير، ومكثت على الكنبة أستحضر كنبتي في مملكتي التي اشتقت إليها، وبدأت في لف السجائر

وكأني لم أغادر غرفتي أبدا ولم أتعلم شيئا، كنت أشعر وكأنني أطفو وأغرق، نشاط ممزوج بكسل لذيذ، غادرت غرفتي وأخذت أسير حول المسكن بلا هدف. جلست تحت جذع شجرة، إلى أن غفوت. استيقظت لأجد نفسي في العراء، قمت على الفور، نفضت ثيابي ودخلت حجرتي. أخذت حمّاما ساخنا، ارتديت ثيابي وسحبت مبلغا من المال ثم هاتفت البائع مستفسرة عن الجديد لديه. فالخمر و«الماروانا» لم يصلا إلى أعمق أعماقي، أعطاني عنوانه فاتجهت إلى مسكنه، هناك كان بانتظاري. وجدت داره الخربة، رأيت أمامي أدوات وقنينات لم أرَ مثيلها إلا في الأفلام، نظر إلي، هززت رأسي ولم تكن لدي أدنى فكرة عمّا سأفعله، وهو يعدّ العدة سألني:

- ألستِ هنا من أجل العلاج!؟

- بلى.

- أحسنت بقدومك إليّ، الحياة لا تحتمل أخذها على محمل الجد والعيش متيقظة.

لا أعلم ما الذي انتفض فيّ وقلت:

- وهل من الحكمة أن نعيش الحياة ونحن شبه غائبين من غير أي احترام لحضورها وندعها تتسرب من بين أيدينا كالماء؟

- إذا كان هذا رأيك فلماذا أنت هنا إذن!؟

صفعني، لكن مرضي كان حاضرا للدفاع ولم يخلّف تساؤله إلا شقوقا بسيطة في إنكاري:

- هي فترة مؤقتة.

- جميعكم تقولون ذلك.

انفعلت:

- أنا فارغة حاليّا، لا كائنات حية بداخلي، لا شيء أستند إليه، لا أعمدة لا حزام ولا حقيقة واحدة، أناخواء، ومع كل هبة وجع كما القرطاس أتطاير.

ناولني العدة التي كانت بيده:

- ريلاكس، من منّا يعلم الحقيقة، لا حقيقة إلا الموت.

تناولتها منه وأنا أعلم أني لا أصدق نفسي وأن مجرد إحساسي بتفرد وجعي هو قمة الكبرياء والانغلاق الذهني وكأني أودّع جميع مبادئي وأولها التواضع. قمت بتقليده دون تردد وسحبت الهواء من قنينة عن طريق ماصة زجاجية، عندها أحسست به عاد كالوحش، انقضّ علي ينهش في كل شيء، أفكاري تتناثر، هباء منثورا صارت، شعوري اللاشعور، تلك الهوة السحيقة انفتقت، وبدأت في انقسام. كأسير حرب بين اثنين لا أعلم من العدو فيهما، هوت المبادئ وبدأت أعتقد أن كل ما كنت فيه كان هوسا وغسلا للدماغ وأنها ليست طريقة حياة طبيعية.

بعد أن استرددت قليلاً من وعيي، هممت بالرحيل، استوقفني ثم أعطاني كمية وفيرة من الأقراص، تبينت أنه زانكس. أخرجت ما تبقى معي من مال، فنظر إلي:

- لا داعي البتة، تناوليه كي تستطيعي الاسترخاء والنوم.

- أعلم ما هو ولكن الكمّية التي منحتني إياها تساوي الكثير.

بعد أن ضحك:

- تأكدي أنها لم تكلفني شيئا، ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟

- في وطني شريط يحوي عشرة أقراص يساوي ما يقارب المائة دولار.

- ماذا!! هل تمازحينني، إلى هذه الدرجة العلاج مكلف لديكم؟

- ليس الأمر كذلك، إن وصفها لك طبيب فهي تكلّف ما يعادل دولارا واحدا ولكن إذا أردت شراءها من مُتاجر لن تكون بأقل من المائة.

تحوّل رأسه إلى علامة استفهام:

- وماذا عن الكحول، كم هو سعر القنينة؟

- أعتقد ما يعادل الستمائة دولار ويزيد.

- ماذا!! لم أرَ نسبة أرباح كهذه، أفكر في الانتقال للعيش هناك.

استمر يهز رأسه يمنة ويسرة غير مصدّق، تركته في ذهوله، وسرت في طريقي الخالي إلى أن وصلت إلى الشجرة نفسها التي قضّيت الليلة السابقة عندها، فقد فقدت القدرة على التمييز أو الحركة وأصبحت في انتظار إلهام إلهي ينير دربي مرة أخرى. خبا الصوت الصادق في رأسي بين الأصوات وعاد النعيق القديم. من أخبر وكيف؟ فكل آرائي السابقة أنا من ساهمت في بنائها وبثّها إلى كل من أعرف، كنت مثل خبير روحي، أسير باحثا عن مريدين وأتباع.

لم يمضِ أكثر من أسبوعين حتى بدأ وخز الضمير ينقلب إلى مخالب تنغرز في كذبي اليومي المستمر. إن من يجرب نقاوة الصدق لا يستطيع

أن يلطخ نفسه بالأكاذيب. كل بداية يوم كنت أشعر بالتعافي في طريقه إلى الزوال، أفيق فأجده في تضاؤل. أسمعه يلتقط آخر أنفاسه في إحدى زوايا الحجرة. يستنجد بي ولكني كنت أتوحش وأكشّر له عن أنيابي وأرمقه بنظرة لا شفقة فيها. نعم أردت أن أتحرر منه. لم يكن مقدّرا لي التعافي يوما.

سأمتطي صهوة الخطيئة، سأتحرر وأجعل الشيطان رفيقا. فليستفرد بي ألمي، ذلك أرحم من بلادة التعافي. أردت منعطفا خطرا يحيد بي عن الطريق. أردت شيئا يزلزل كياني الراكد.

سأذهب اليوم لزيارتهم، زيارة القطيع أقصد. أكاد أقسم أني لو شاركت في الاجتماع لاستطعت سحب بعضهم معي، ألهذه الدرجة كانت مطالبهم ثقيلة؟ كل شيء كان يجب أن يكون نقيا، يجرّدونك من كل أسلحتك. ويقلّدونك بكل المبادئ حتى تستنكر نفسك الجديدة القادرة على عدم إيذائك. وبفعل الصدف ومن غير هدف. فتحت أبواب ذاكرتي وأطلقت سجناء عبثيين يعيثون فسادا في حدود اليوم. بدأت علامات الإدمان وبوادره تظهر عليّ من جديد، نقصان في الوزن وتأرجح في المزاج، بل تغيّر فيّ كل شيء بالتدريج حتى طريقة سيري وتفكيري، لقد اختلّت الأفكار بل أُستبدلت تماما.

رغم ذلك لم أتوقف، كنت أسير منكسرة في جوف الفراغ مالئة حقيبتي بأنواع من السموم ومال متكور في جيبي لا أعلم عدده، وقبل أن أفترش البقعة المعتادة، إذ برجل يشبهني في تعطشه يمسك بتلابيب قميصي ويده الأخرى ارتفعت وهوت بصفعة مدوية على

وجنتي اليسرى ثم دفعني حتى وقعت أرضا. تجمّد الزمن. لأول مرة يد غريبة ذكورية تتطاول علي، انتشل كل ما أملك قبل أن يبتلعه الليل، جلست وأنا أشعر بمهانة مركزة، أسندت ظهري إلى الشجرة، فجأة بدأ شعور الإهانة يتحول إلى إحساس بالراحة غريب. نعم تجسد لي دور الضحية وارتديته وعم السلام ومن ثم دخلت صندوق الشفقة على الذات، يالراحة هذا الدور، لأول مرّة أشعر أني أستحق حبي وعطفي وبأني ظُلمت وأهنت وسأنال مكافأة سماوية. أيعقل أن العنف مريح للضحية؟ ما بالهم إذن يقيمون الدنيا على من يبادر بالعنف؟ حين فقدت السيطرة وتطاولت على جميلة، وبعد أن استعدت رشدي أفقت على تعاسة شعوري وجزعي من نفسي وقرفي من ذاتي. كان الجميع قد دعّم تلك الأحاسيس بنظراتهم المؤنبة نحوي، ووجوب الاعتذار لإرضائها. نعم أشفق على من هو عنيف. أرحم فقدانه للسيطرة على نفسه، ها أنا الآن مُعنّفة وأشعر بتسامح مع نفسي لم أشعر به من قبل. غادرت مكاني بصمت خشية أن يتحول شعوري إلى شفقة مقيتة.

هل سمعت عن أحجار سور تصرخ باسم بانيها؟

بكل بساطة، مهاتفة واحدة من والدي كانت كفيلة بكل شيء. لم أستطع سماع صوته وهو يشدّ من عزمي ويخبرني أنّه مؤمن بي وأنّي فخره. كلماته كانت كالسّحر، محت كل خسّة فيّ. هاتفت مشرفتي. وقد تطلب ذلك شجاعة.

- أنا منتكسة.
- أعلم.
- هل تسخرين مني؟!
- بل انتظرت حتى أمنحك الفرصة، لتعلمي دهاء المرض وجبروت الإنكار، كل علامات اقتراب الانتكاسة كانت ظاهرة عليك.
- وما الذي كان يجب أن أفعله؟!
- المشاركة ببساطة، ذلك الأزيز الخافت الذي بدأ يدكّ صروح مبادئك، عرّيه، تحدثي عنه، حينها يخبت، تستّرك عليه جعله ينمو.
- كان عقلي يخبرني الكثير من العلل المقنعة.
- هذا صوت المرض.

- أنتم من سميتموه، حتى في القاهرة كانوا يطلقون عليه الاسم نفسه، أليس هذا غسيل دماغ من نوع آخر؟

- فليكن، من منّا لا يتمنى أن يُغسل عقله، وإن أزعجتك التّسمية أطلقي عليه ما شئت. سمّيه الشيطان إن أردت ولكن كوني على ثقة أنّ هذا الصوت ليس صديقك، كلّ المطلوب منك تمييزه، وتأكدي كلّما زاد التعافي زاد هذا الصوت ذكاء ولن يأتيك بصورة مباشرة ليطلب منك أن تنتكسي.

صمت ورحلت إلى بدايات النهاية. كل الأفكار التي أدّت بي إلى السقوط كانت واهية، لو نطقتها لسمعت حماقتها.

- تعلمين يا منيرة أني استعنت بصديقة لي قضّت وقتا في بلادك واستطعت أن أجمع معلومات جمة ساهمت في استيعابك، أعتقد أنّ بلادكم من أخطر الأماكن، الأمان المادّي يجعلكم تنحدرون أعمق في مستنقع الإدمان، معظمكم لديه منزل يأويه ولا يعلم عن فواتيره شيئا، أنت هنا في الولايات المتحدة، لو لم يكن معك هذا الكم من المال لكان انهزامك أسرع.

- تختصرين كل هذا في توفر المال؟

- لا ولكنه عامل أساسي. أنا لديّ ابن مدمن قمت بطرده من المنزل. أردت أن أعجّل انهزامه وسقوطه في القاع علّه يمدّ يده لطلب المساعدة وهذا ماحدث، الأصحاب يئسوا منه وأغلقوا أبوابهم في وجهه، صديقته تخلت عنه ومن يلومها، أصبح مشردا بعد أن أضاع ماله ووظيفته على المخدرات، الجوع والمهانة جعلته يتنازل عن مبادئه بالتدريج حتى بلغ به الأمر إلى السرقة.

لم يمضِ الكثير حتّى قُبض عليه. كل هذه الأحداث لم يحل عليها الحول، ولكن لو كان ابني يعيش مع أسرة سعودية قد لا يبلغ هذا القاع إلا بعد مضي أعوام وربما عقود. أعتذر، لقد أطلت عليك ولكن أردت أن أستوعب خلفيتك لأني مسؤولة عنك وأمانتي تحتّم عليّ ذلك.

- هذا بالضبط يا «سارا» ما قد ينفّرني من الانضمام إلى ثلّة التسامح غير المنطقية هذه، لا أتخيّلني أسير مبتسمة وأمسح على رؤوس الغير كأنّي قدّيسة.

- باستطاعتك نيل كل العلم والحكمة وكسبها بشخصك من غير أن تصبحي نسخة مروّجة لبضاعة. آه إذن أنت ترينني هكذا. وضحكت. يا لغبائي، للتوّ انتبهت. واستمررت في الضحك.

شاركتها الضحك وأخذت أقسم لها بكل الكتب السماوية أني لم أعنها بكلامي.

تعاملت معي بكل لطف وأخبرتني أنّها مؤمنة بي وطلبت مني أن أعاود المحاولة. أكملنا طريقنا إلى أن حان وقت الاجتماع، اقترحت عليّ أن أعلن انتكاستي والاحتفال بتقصير مدتها. لم تكرر ما قالت، لم تنصحني أو تأمرني كما هو عرف الإشراف. أحسست أنّي لا أرغب في ذلك وأنّي أحتاج إلى جرعة أكبر وعمق أكثر في القاع لكي يتجدد إيماني، فالإيمان إحساس وليس فعلا وإيماني بالبرنامج أوشك أن يبلى. رفعت يديّ وشاركت بالفكرة المسيطرة التي كانت تدور في رأسي. وبالفعل حين سماعها غدت هشة واعترفت بانتكاستي ونلت كمية عناق لا حصر لها وضجت القاعة بتصفيق ساخن...

تطلّب منّي إخبار نورة وقتا، وتفهمتُ الموقف مع أن بصمة الخيبة والحزن في صوتها كانت فوق احتمالي، أن تخيّب ظنّ أحدهم يعني أن تُسقط وجهك على الأرض.. ولا تستطيع حتى الانحناء لالتقاطه، تُشلّ حركتك لأن نظرته مصوّبة نحوك لتخترقك مثل سهمٍ.. تتمنى في تلك اللحظة أن يحدث زلزال أو كارثة طبيعية تُفني البشرية. وليس هناك من هو قادر على تخييب الآمال أكثر من المدمن.. ليعود إلى خطّ البداية محاطا بسور من الشك..

شكوت الحرمان فأصبحت أشكو الفيضان

مبدأ «لليوم فقط» هو من أنقذني إضافة إلى الأمانة. أصّب تركيزي على انتهاء اليوم دون تعاطٍ، كما بدأت أتقبل الاقتراحات بل وأعمل بها. أُفرغ رأسي كلما بدأت الأصوات تتحدث. عدت للاندماج في الثقافة الأمريكية البسيطة، يجذبني من حديثهم القول إنه يوم جميل، فهو تعبير لا يستخدم لدينا البتّة.. قد يكون بسبب المناخ، لا أعلم ولكنّي لم أسمع مثل هذه العبارة في بلدي..

الحرّية هنا ضيقة في الحيز المكاني. هائلة في المظهر والشخصية بل إنّها لا حدود لها.. لا يحق لك تعكير مزاج أيّ كان.. صراحتهم رائعة وبساطتهم أروع..

يقول مايكل وهو يشعل سيجارته:

- لم أكن أصدّق أو أتخيل أن فتيات الخليج العربي يتمتعن بهذه الصفات من جمال وأناقة، أجل، لماذا يقبلن العيش المُتردّي الذي هنّ فيه؟

يردّ جورج:

- وما يدريك عن حالهن هناك في بلادهن، ربما كان تصوّرنا عن

دولهنّ خاطئًا كما كان تصوّرنا عنهنّ.

- كفاك غباءً يا رجل، إن النساء هناك لا يقدن السيارة ويحتجن إلى تصريح وإذن للخروج!!
- أعتقد أن هذا دينهم، وفي نهاية الأمر كم هو عمر بلدهم، لا بد أن الثقافة هناك مازالت تحبو وإلاّ ما كانوا في هذا الانقسام والصراع والانفصامات التي يعانون منها، أعتقد أنهم أكثر شعب يستخدم المخدرات في العالم.

عند هذه الجملة قررت التدخل في النقاش، لكنّي خشيت أن يريبهم ظهوري، فهما لم يرياني وأنا مستلقية على العشب الأخضر... أصلاً، ماذا لدي لأضيف على ما قالاه أو أُنقص؟

تصوّرهم عنّا ليس خاطئا ولا صائبا. كيف سيتفهمون أن قوما قد هبطوا إلى مستوى هم لم يعيشوا مثله، ولأول مرّة يرون ممثلين عنهم، ومع ذلك نظهر لهم بهذه الصور الأنيقة. لن يفهموا أننا قوم نوقف مجرى حياة الفتاة إلى حين زواجها، وحين تتزوج تكون قد نسيت كيف هي الحياة. قد يكون إذلالا لكرامتهم وامتحانا لمستوياتهم.. لماذا أدير حوارا نتصادم فيه بصداقات وعداوات، لا هم لهم فيها ناقة ولا نحن لنا فيها جمل. التناقضات قديمة جدا على هذا المساء الصافي والعشب الأخضر.. فلنبقى هكذا، بسطحيتنا، نستمتع بهواء لا تدنسه فلسفة.

كرامة اللاشيء

بدأت مرة أخرى من الصفر، أعدّ ساعات الامتناع وألتزم بالتعليمات بحذافيرها، ملازمة المكان أغلب الوقت ولا أغادره بمفردي أبدا. أصبحت جادة بعد ما رأيت سهولة الوقوع في الوحل مرة أخرى، من المخيف أن الموضوع لا يقتصر على تعاطي المخدرات فقط بل هو تغيير جذري لطريقة التفكير، في فترة انتكاسي كل أفكاري غدت مريضة، طريقة تحليلي للأمور اختلّت وبدأت أعاق فكريا وأتوه في غياهب الإنكار، حتى عاداتي القديمة افترشت سلوكي وكأنها ثوب عدت وارتديته من جديد. من يعلم، ربما استطعت السيطرة على حياتي وتولي زمام أموري. ولكن هل هذا فعلاً ما أريد؟ على الأقل هذا ما تريده عائلتي ولن أبخل عليهم حتى بنفسي.

فيما تبقى من اليوم تصرفاتهم كانت غريبة معي.. نحّوني عن الواجبات المنزلية، وطلبوا مني إحضار بعض الطلبات من البقالة على غير عادة.. وحين هاتفهم ازدادت الطلبات وازداد توتري. عدت.. وفجأة اشتعلت الأضواء، كان الجميع متأنقين. علت أغنية ضربت على وتر قديم داخلي.. «i will survive».. ثم اجتمعوا كلّهم حولي وعانقوني واحدًا واحدًا. لقد كان يوم احتفالي بالشهر الأول.. أخذتني أجواؤهم

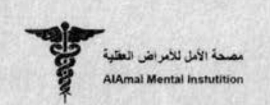
وبددت انزعاجي كلّيا.. احتفالاتهم مرحة بسيطة. نعم جعلوني أشعر بقيمة إنجازي، ولأول مرّة تحررت من كل قيودي واندمجت معهم. احتفال أشعل الأجواء. شعور لم أختبره منذُ سنين. احتفالي بثلاثين يوما من الامتناع والاستمتاع. بدأت أشاركهم برقصات سعودية تحت الأنغام الأمريكية والجميع أصبح يقلدني. كان الوضع مضحكا ومبهجا. لم أرد لهذه الدقائق أن تنتهي. لماذا لا أحتفل رغما عن كل هذا العناء اليومي، نحن المتعافون نحتفل، نحتفل من القلب، نحتفل بأعيننا، نتعانق جميعا ونتبادل التربيت على الأكتاف كما لو أننا فريق نجى من الهزيمة بهدف في الوقت البديل. نعم نحن الناجون من الموت، نحن من هزمنا أنفسنا وانتصرنا بها.. الأخطار من حولنا وفي داخلنا، نسير حاملين وصمات عارنا أوسمة. دفعنا كل تعويضاتنا وسدّدنا كل فواتيرنا، حتى سمعتنا المشوهة نظهرها بأجمل حلة. لا يملك من أمامك إلا أن ينبهر. نحن العائدين من الموت. نفضنا قبورنا. نعيش يوما بيوم،مع كل أفكارنا المسيطرة ورغباتنا الملحة. نتحاشى أماكن وأشخاصا وأشياء. قد نغير وجهة مسارنا في شارع نعلم أنّ به ثلّة من المدمنين. والأصعب من ذلك التخلي عن ماضيك بكل ما فيه من رفاق وأصحاب. نتألم لصدهم. ولكن ما العمل؟جلسة تعاطٍ إنما هي كقارب مثقوب يوشك على الغرق ولا يتحمل راكبا إضافيّا، وإن ذهبت لإنقاذهم فسأغرق معهم. الأفضل لي ولهم أن يروني أسير على الشاطئ متماسكة مشعة، قد أغريهم ويمد لي أحدهم يده، حينها لن أتوانى لحظة عن سحبه إلى برّ الأمان. باختصار، أفضل طريقة لمساعدة غيرك هي أن تكون أنت بأفضل حالاتك وهالتك مشعة. شريعتنا تقوم

على الجذب وليس الدعاية. أحب جميع مدمني العالم. أعلم ما أنتم فيه!

استمر الاحتفال لوقت متأخر. استسلمت للنّوم مبتسمة، واضعة ميداليتي البيضاء المذهبة بجانبي. إنها البداية مرة أخرى، ها أنا أعيد تجربة الشهر الأول. وسام جديد يرسم لي إطارا جديدا يجمعني بنفسي.

كنت سعيدا جدًا وأنا نائم

استيقظت مبكرا وأنا ماأزال أشعر بنشوة الانتصار، كانت فرحتي باحتفال الشهر أعظم من نظيرتها في القاهرة فهناك لم يكن لدي خيار، إذ كيف للمحتجز أن يختار! سرت كثيرا وعدت منتعشة من نزهتي. كان وقت استراحة، ذهبت لأحضر كوب قهوة، فوجدت رسائل ورقية فوق بعضها البعض في سلة البريد التي حذو آلة تحضير القهوة. لفتت نظري رسالة عليها اسم المصحة التي كنت فيها، ودون تردّد سحبتها وسرت مسافة بعيدة عن المكان وبدأت بالقراءة، فدهست الأمانة في طريقي دون أي ذنب:



Psychiatric Medical Transcription Report

File No: 3176
Name of the Patient : Muneera Saleem
DATE OF DISCHARGE: 01/27/2011

DISCHARGE DIAGNOSES:

Bipolar disorder with psychotic episode.

REASON FOR ADMISSION:
The patient was admitted post suicide attempt , with a chief complaint of hallucinations. The patient reports over the last year these symptoms have exacerbated. Which developed into a fictional character named (Abeer). The Previous observations, reinforce the current diagnosis (Bipolar disorder accompanied.)

HOSPITAL COURSE:
The patient hardly responded to individual and group psychotherapy, however medication management had a positive effect when taken, patent continues to refuse adhering to a medication plan.

PLAN:
The patient was discharged after her family insisted due to the political unrest in the country.
We recommend the patient continue on the following medications; Depakan 500 mg. and Abilify 20 mg. Lithium 90 . Cymbalta 20. Leponex 250. Please note, if the delusions of Abeer (imaginary personality) persist we recommend the use of ECT

Dr. Fathi Nasr

المهندسين - شارع مرتضى منصور - القاهرة
(+20) 2 333 21500

ماهذا!! أعود وأقرأ العنوان لأتأكد، نعم إنه لي، أتصفح بفوضى باقي الأوراق بيد متعرّقة مرتجفة، أهمل النسخ المكتوبة باللغة الإنجليزية بعد تبيني وجودَ أخرى بالعربية، ماهذا!!! حتى والدي أيضا؟؟؟

From: Salem@hotmail.com
To: dr.Fathi@miclinic.net

أسأل المولى الكريم أن يلبس ابنتي ثياب العافية. لا أصدّق شيئًا مما حدث، الأكيد أنّ التحاليل تخصّ مريضة غير ابنتي. لم أصدق بالأساس أنّها قامت بمحاولة انتحار، سينكشف سرّ ما حدث لها قريبا. أقوم بالبحث عن المسبّبات الفعليّة لكل هذا، وسأقتصّ ممن كان وراءه.

ابنتي أمانةٌ بين يديك يا دكتور أكرم، عالجها وعاملها بأمانة! ثم من عبير هذه أيضا!؟

From: fozaya@gmail.com
To: dr.Fathi@miclinic.net

لم يخطر ببالي ولو لواحد بالمائة، أن ابنتي كانت تعاني من مشكلة إدمان. هل هذا يجعلني أمًّا سيئة؟ لا أعلم. قلبي يتمزق، منيرة اختلفت منذ صغرها عن أختها، عنيدة ولا تفصح عن مشاعرها بسهولة، متساهلة أو بالأصح مستهترة، حتى في أغراضها الشخصّية، لم تكن متفائلةً يوما، بل إنّها كانت تسخر من المتفائلين وتراهم حمقى، لقد أخبرتني مرة أن مصطلح «غدا يومٌ جديدٌ» يثير سخطها. أحاول العودة بذاكرتي إلى الوراء والله وحده يعلم أنّي لا أقوى على ذلك.

أكثر حادثة تأرخت في مخيلتي عنها في أواخر طفولتها، كانت تعاني من جنون التسامح، فقد حدث أن دفعتها ابنة الجيران عمدا من فوق الطاولة، ممّا أدّى إلى إصابتها بجرح عميق، وحين كانت تتألم وهي تنزف بغزارة، كانت تتوسل إلينا ألا نقوم بمعاقبة سلمى، حتّى عندما

أنكرت سلمى فعلتها بحزم، صدقتها وأخبرت الجميع أن هناك جنيًّا تمثّل في صورة سلمى ودفعها، ويومها لم أستوعب تصرّفها.

وجاء حدثٌ آخر جعلني أستغرب من سلوك منيرة، ولكن ليس إلى الدرجة التي قد توحي لي بأنها تعاني من مشكلة، فقد توقفت عن أداء واجباتها المدرسية وهي في الصف السادس، وعلمت من أختها فيما بعد أنّها كانت تحتضن دفترها كل مساء، وترجو الله أنها حين تفتحه تجده مكتوبًا، وكانت تحبط قليلاً حين يأتي الغد ولا تجد حرفًا واحدًا مكتوبًا.

استمرت فترةً على تلك الحال، وفي النهاية قامت معلمتها بالاتصال بي. أما في مرحلة المتوسط فقد تدهور مستواها التعليمي. نعم في تلك المرحلة أيضا حدثت قصة غريبة. ذهبت معي لأداء العمرة وهي في مرحلة الحيض وحين سألتها لماذا فعلت ذلك، أخبرتني أنها كانت منهكة فلم تقدر على إخباري بذلك!!

بدأت بوادر انعزال منيرة عن الأخريات ومحاولة تخلّفها عن الزيارات العائلية بحجّة أن الفتيات حمقاوات. في الثانوي بدأت مسحة حزنٍ ترتسم على ملامحها، سرعان ما اختفت في الجامعة، لم تختفِ كليا، ولكنها كانت تتناوب عليها كل حين، فقد كانت إمّا مسرورة جدًّا، أو حزينة.

بدأت تتخلى عن صاحباتها الواحدة تلو الأخرى، وأصبحت تقضّي وقتًا أطول في غرفتها، وبالكاد كنت أراها، وعندما كنت أعاتبها تجيب: لا يمكنكم تخيل الإنجاز الهائل الذي أجنيه من فعل اللاشيء.

لا أنكر بكلّ أسى وقهر أن ذلك كان مريحًا نوعًا ما لي، مكوثها في المنزل كان يبعث في نفسي الطمأنينة.

في الأيام الأخيرة كانت منيرة نحيلة جدًّا، وأيضا بكلّ حسرة لم أعر الموضوع كل هذا الاهتمام، ظننت أن هذا حال أغلب البنات في سنها.

لا أستطيع إكمال رسالتي، فكلّ حروفي أنزفها هنا. يا لفقر معرفتي بابنتي!

وما هذه القصة الجديدة التي تسأل عنها أيها الدكتور، لا جواب لدي وما عدت أعلم شيئا، ربما تكون موجودة وبراعة منيرة في إخفاء الحقائق ساهمت في إبقائها سرا، كما أخفت إدمانها، رغم هذا لا تُعدها إلي حتى ننتهي من موضوع عبير هذه، لقد رفضت كل محاولات أختها نورة للعودة بها إلى هنا. أنا المسؤولة من الآن وصاعدا عن أي قرار يخص منيرة والكلمة الأولى والأخيرة لي.

* غادرني صوت مهشم: آه يا أمي فهمت الآن لماذا أحبك جدّا وبعد ذلك بقليل أكرهك بعض الشيء وبعد ساعة أعود لأحبك بقوة وإلى الأبد.

From: noura@hotmail.com

To:dr.Fathi@miclinic.net

حاولت تنبيه أهلي ولفت نظرهم أكثر من مرّة، أختي أطيب روحٍ سارت على الأرض وستسير في يوم، كلّ ما هنالك أن أحدًا لم يفهمها. أنا السبب فيما حدث لها، ليتني قصدتها بعد اتصال هند صديقتها، تخبرني بأنّ منيرة تعاني من مشكلة أكيدة، وأنها هرعت من منزلها من غير أن ترتدي حتى عباءتها.

لم يفهمها أحدٌ كما فعلت، لم تؤذني يومًا، بل كانت خفيفة الظل

معي، غامضة لمن لا يعرفها، لكنها واضحة كالشمس بالنسبة إلي، رغم حدّة ذكائها. لم ترَ الشّر يوما في البشر؛ لذلك كان يجب أن تحاط برعايةٍ مستمرةٍ وتؤمَّن جوانبها.

في الشهور الأخيرة، كانت عيناها دائما حمراوين، قد باغتتني يوما وأيقظتني من نومي تخبرني أن هناك من يتحدث إليها باستمرار. كانت قلقة أغلب الأوقات. بصفةٍ عامةٍ، منيرة إمّا سعيدة جدًّا أو تعيسة جدًا. أرجو الموافقة على قدومي للزيارة التي مازلتم ترفضونها، أرغب في معرفة المزيد عن تفاصيل قصة عبير. منيرة لا تكذب.

بنواح وأنا أعتصر الورق: آه يا نورة حتى انتِ.

From:hend_ald@yahoo.com

To:dr.Fathi@miclinic.net

منيرة ابتعدت عني كثيرًا في الآونة الأخيرة، بدأت في الانعزال بالتدريج ولم أعد أسمع عنها شيئًا غير أعذار بحجة النوم أو العمل.

منيرة لا تستمع إلى أحد، ولا تعير اهتمامها بسهولة. كانت رياضية في بداية حياتها، وتحب لعب الورق كثيرًا.

أستطيع القول: إن بداية تغييرها الفعلي كانت في العشرين من عمرها، بوصفي قريبتها المقرّبة، وبحكم دراستنا معا، لم تكن تقوم بواجباتها، ولكنها تتمتع بذكاءٍ حاد، أكثر صورةٍ مطبوعةٍ عنها في مخيلتي إضافة إلى النحول، تناولها المستمر لأقراص.

حدثت حادثةٌ غريبةٌ في زيارتها الأخيرة لي، كانت في حالة من الهلع والانفصال عن الواقع، ارتعنا جميعًا، كدت أجزم أنّها فقدت قواها

العقلية تمامًا، أنكرت بدورها هذه الحادثة تمامًا وكأنّها لا تعلم بها.

ساء سلوك منيرة منذ مخالطتها لي، أتمنى لها العافية من كل قلبي. نعم لا أذكر أن لها صديقة تُدعى عبير ولكن ربما كانت تخفيها عنا. شكرا.

فقدت السيطرة وقمت بتمزيق كل ما بيدي وأنا أشتعل من الداخل، الجميع خائن وأنا أكبر مغفلة. كبريائي يترنح من الصدمة، أشعر بغضب وقوده يوصلني إلى الصين على أقدامي ويكفي لهدم سورهم بعد أن أنتهي من عدّ حجارته.

عبير، عبير؟؟ ما شأنهم بها؟ ما الذي يقصدونه؟ عبير!! كانت دائما معي!! هم المرضى ولست أنا. أقسم بالله الذي لا إله إلا هو، أني لم ولن أعود كما كنت وإن عدتم ورصصتم لي المكان بالقد والمقاس، على ما مضى لن أكرر ما جنته يداي.. أنا اليوم لست أنا، لن أرتديني بعد الآن في حضوركم، نعم، أنتم لا تستحقونني، سأخبئني لمن هم أعلى مقاما منكم، ليس ذاك المقام المادي الساحر للأعين، بل المقام السرّي الموزون، ذاك المقام الذي لا يسمع عزفه إلا من نزف قلبه واغرورقت عيناه بلمعان لا تنتجه مستنقعات الألماس بل مستنقعات البشر القذرة.. لن أنتقي منكم إلا من حُرق بهاء نار الروح، من شُوّهت نفسه وذاب صدره ولم يثلجه كائن من كان. أنا مصدرُ الألمِ الخامُ، أنا العدم الموثّق للذات، أنا الندم من غير ذنب. وأنتم ما أنتم، جماعة لا ترى فينا إلاّ فئران تجارب.

تركت المكان، أجتر خطاي ثقيلة، إلى أن وصلت إلى بقعتي المفضلة، تحت شجرة بعمر وجعي أسندت رأسي علّها تسمع بعضي. رنّ هاتفي، نورة المتصلة..

أجبت بهلع:

- نورة!

- كيفك؟

أكرر بحزم:

- نورة ليه صرتِ معهم علي؟ نورة عبير يا نورة عبير!!

- منيرة، وش فيك باسم الله عليك؟

والدموع تنصب من عيني والفزع قد سيطر علي وراح يضرب على قلبي بقوة:

- عبير كانت معي في المصحة، أعرفها أكثر من نفسي.

- منيرة، حبيبتي.

- من هي عبير يا نورة؟

- ما في أحد اسمه عبير، حبيبتي يتخيل لك.

- شلون؟ ليه ما حد خبرني، ليه يوم أحكي لك قصتي أنا وعبير واغنيتنا اللي نحبها، ليه ما واجهتيني؟

- حبيبتي، ما كنتِ مستعده.

أغلقت الخط وتردد صوتها، لم يعبر أكثر. لم تتوقف عن الاتصال، ولكني كنت قد ألقيت بالهاتف بعيدا جدا. أصابني صداع فتك برأسي وقلبي يصفق ضلوعي كطائر مذبوح.

وقفت ورحت أركض جيئة وذهابا. نعم، حتى لو كانت عبير من صنع خيالي، فقد كانت أصدق حضورا ووهجا منهم جميعا، ستظل معي إلى الأبد، لن نتفارق، ليتني لم أغادر مشفى المجانين أبدا، وهناك

يقبع كل الصادقين، العالم هو المجنون، نعم المجد للمجانين، لمن فقدوا عقولهم لأنهم ببساطة لم يستطيعوا مجاراة الحياة الملوثة والأقنعة الدائمة.

أتعلم ماذا؟؟ حتى أنت عزيزي القارئ وليس جميعكم أعزائي، دعك مني، أتعلم أنك ممثل بلا أجر أيضا! حياتك لا تعدو كونها فيلما رديئا، سئمتكم جميعا وقداستكم المزيفة، يعميكم غروركم عن رؤية الجهد الهائل الذي ينبع من شخص لا يفعل شيئا البتة.

سأضع القلم الآن، لا رغبة لي في أن أكمل الكتابة، قد وُلدت ناقصة ولو اكتملت لمتّ، على الأقل أنا أمثل نفسي بكل عيوبي يا بسطاء...، وداعًا.

مواقف مجهولة حاضرة التفاصيل

أنا سارا مشرفة منيرة، أكتب وأنا أشعر بأسًى عميق. كيف غفلت عن كل حديثها البارحة، آلمني اختفاؤها المفاجئ، آآه ليتني كنت أعلم أنّها ستكون المرّة الأخيرة التي سأراها فيها. كم أحببت هذه الفتاة.

ولكني لم أتوقع أبدا ما كانت مقدمة عليه.أتيتها ووقفت لبرهة أتأمّلها، كانت مسندة ظهرها إلى هيكل سيارة، لا تعلم إن كانت تقف لتصادق أم لتحارب، مطأطئة رأسها وكأنها غارقة في دوامة فكرية تكاد تعصف بواقعها، تُشعرك أنّها منهوبة مهجورة. ثم نظرت إلى السماء وعادت ترمق العابرين. نحيلة وجلة وكأن قلبها يركض داخل جسدها.. من يراها لا يتبين حجمها بسهولة من جرّاء أرديتها الفضفاضة، شعرها ثائر، يخفي بعض وجهها. كانت من النوع الذي يُلبس كل مكان يمكث فيه بعضا منه، الهالة حولها مختلفة متألقة ليست مألوفة. يصعبُ وصفها، ثائرة ومتلائمة في الوقت نفسه، بريئة وفاتكة.. تخلّف فيك شعورا بأنه من غير الممكن الإمساك بها أبدًا.. اعتدلت في وقفتها لاستقبالي.. فتحت ذراعيها لاحتضاني، اقتربت منها قائلة:

- اشتقت إليكِ.

سرنا بصمت إلى مقعد قبالة بساط أخضر من العشب، ابتسمت

وأنا أنظر إليها. كنت أحدّق في ملامحها، أتأمّل الحزن الغائر في وجهها، وجه أوّل ما يشدّك فيه جفنان مرتخيان على عينيها اللوزيتين، وكأنها ترفض أن ترى الحياة مجردة.. لا يعكّر تناغم وجهها مع الطبيعة إلا كآبتها الظاهرة. بمجرد رؤيتها تعلم أن لها ماضيا قاسيا.. لا يمكن أن ترى هذه الفتاة دون أن تشدك أصابع يديها التي توحي لك أنها موشكة على إكمال عمل فني. وجه منيرة من الوجوه التي تؤرخ في ذاكرة من تقع عيناه عليها رغمًا عنه. قطعتْ حبل خيالي وقالت بعد أن تململت في مقعدها وكانت هذه عادتها وكأنها تحاول نزع قميص وجدانها عنها:

- هل أستطيع المبيت عندك اليوم؟

هززت رأسي بالإيجاب. مسحت على شعرها فابتسمت وعادت لتغرق في النظر إلى يديها. كنت ما أزال أنظر إليها بعد أن هزّ صوتها بعضها. فقد كان لها صوت أجش ممتلئ بالأسى. ورغم أنها شامخة فقد فشلت في إخفاء الانهيار بداخلها. تنهدتُ وتفكرت لو كانت فقط، تفتح نافذة أو تترك بابا مواربا للعبور إلى روحها.

قالت فجأة:

- أتراني سأؤذي أحدا بعد الأن؟

تفاجأت من سؤالها ونظرت إليها بعين حانية.

غادرنا المكان لتناول العشاء في منزلي، تكلمنا طويلا وأخبرتني بأنها كانت تخطط لأحلام كثيرة ولكنها تعلم أن بداخلها جزءا يخاف على نفسه من النجاح. صمتت برهة، وحكت أن دنياها تخيفها، فالعالم

أصبح بالنسبة إليها غامضا كالموت، تفيق كل يوم وتشعر أنها تتسلق خواء خاويا. كانت متشائمة جدا تلك الليلة.

قالت:

- أشعر أحيانا أني اقتربت من أن أقبض عليّ ولكني في الوقت نفسه بعيدة جدا وكأني أشاهدني من مكانين حيث أقف وحيث أتخيل أني أقف في المكان الصحيح، ينفصل وعي عن ذاتي وأشعر بأني أحلّق فوق نفسي وأراني وأنا أتصرف دون إرادتي وأتحول إلى مجرد مشاهِدة محبوسة داخل عقلي الشريد، هل نجحت في مسعاي أم مسعاي نجا بي فقط.

نظرت إلي وسألتني: بأربابك الذين تؤمنين بهم، هل تفيد الكرامة في أعمال الصيانة؟

لم أعلم ما يتوجب عليّ قوله، فقد كان في صوتها وحروفها أسى يلزمك بالصمت. تابعت:

- أفيق أحيانا وأجد نفسي تحدق فيّ فأخاف، لا يمكنني أن أكون منتصرة تماما ولكن يمكن أن أُهزم هزيمة تامة. يبدو لي خيار المعركة في مجمله أكثر طمأنينة، حيث يمكنني أن أقف وأحارب نفسي، في النهاية أنا أقف معي حتى لو كنت ضدي، لا أعرف إن كنت أعيش حياتي مضاعفة مرتين أم منقوصة لنصفها. أنا أعيش كل لحظة مرتين ولا أعيشها كاملة أبدا، أتطلع إلى ما لن أبلغه حيث لا أستطيع السير في طريق واحدة، هل سيمكنني ردم شروخ الهوية بتنظيرات معقدة عن التسامح والاستسلام؟

لكنني أعلم أن كل ذلك سينفجر يوما، والله وحده يعلم من أي المكانين سيمكنني مشاهدته حينها.

استوقفتها وقمت برفع الإضاءة، أردت أن أخرجها من هذه الدوامة العميقة التي تتحدث من داخلها، قمت وأدرت مقطوعة موسيقية هادئة وناولتها كوبا من الشكولاتة الساخنة.

فقالت بصوت خافت:

– ربما أنا لست إلاّ كومة أعضاء حيوية انغمست في ذاتها حتى ظلت طريق الخروج.

قبّلتها وأخبرتها أن فراشها مُعَدٌّ ثم تركتها، فقد كانت حالتها أثقل من أن أستطيع التعامل معها، دعوت لها في قلبي وصعدت إلى غرفتي.

أفقت ولم أجدها في فراشها، أعددت قهوتي ولم تظهر بعد، لا أعلم كيف خطر لي أنها قد تكون ذهبت للصرح القديم الذي كان يثير إعجابها وتحب أن تقضي بعض الوقت فيه، وبالفعل حين اقتربت من نافذة إحدى الجدران، رأيتها. كانت تسير بلا هدى، خطواتها تشي بيأس عميق.

لا شعوريا وقفت مكاني أراقبها، فقد كانت مشاهدتها تبعث الدهشة دائما، رأيتها تقف أمام البيانو وتمرر أصابعها عليه، ضربت على أحد المفاتيح فأصدر صوتا لم ينته صداه في المكان، أظن أنه استمرّ في الزمان أيضا، واستمرت في سيرها والحزن يكسوها إلى أن دخلت الشرفة التي بها مقعدان، رجّحت أن منيرة كانت تتخيل أنه ثمّة من يجلس هناك، ودار حوار بينهما. فقد كانت دائما تتوقع ما سيقول كل شخص قبل أن يقوله لذلك كانت دائما، تشعر بالملل ويجذبها أي

شخص جديد. حين بدأت أسمع صوت وقع خطواتها على السلم القديم، دخلت المكان معها، لا أعلم فقد كنت أشعر أنها ليست على ما يرام. ومن ثم توقفتْ عند النافذة وسرحتْ بعيدا وكأنها فتاة تنتظر بيأس رسالة من حبيبها. وقفتْ ثم تثنّتْ وأرختْ رأسها وكأنها تشعر بضآلة، تنحّيتُ وقتها عن طريقها احتراما لحالتها الذهنية. بعد ذلك، اتجهتْ إلى السلالم ونزلتْ بهدوء، كنت أتمنى أن تغادر المكان فقد بدأت أشعر بقلق.

التفتت يمينا ويسارا، وكأن وجع كل من قد عاش هناك التصق بها. تسير قليلا ثم تنكمش، لا أعلم أكان خجلا من التاريخ أم ألما يستعمرها؟

توقفتْ فجأة بتواضع، وجلستْ بزهو على أحد المقاعد في البهو ثم استوت واقفة مرة أخرى بشكل آلي، كما لو أنّها تركت روحها جالسة. سارت مسافة إلى أن ثبتت مكانها بحزم، وكأن أحدا ما يخاطبها، شعرت أن فرائسها ارتعدت. مسحت رأسها وعادت تجرّ أقدامها إلى أن وصلت إلى الباب وقبل أن تغادر نظرت إلى انعكاسها في المرآة وكأنها تراها لأول مرة. اقتربتْ أكثر من المرآة ومدّتْ يدها ولمستْ وجهها. ارتخت ملامحها وكأنها وجدت ما كانت تبحث عنه، ابتسمت واقتربت من المرآة أكثر وقبّلت وجهها. وعلى غير عادة ابتسمت ابتسامة عريضة لم أرها على محيّاها من قبل، ابتسمتُ بدوري، وعندما همّتْ بالمغادرة توقفتْ على السلّم، أخذتْ نفسا عميقا، وبدأتْ بالنزول من على السلالم ببطء وهي تنفض أكتافها وكأنها تنثر كل ما كان عالقا بها من الماضي وكل من سقط من عينيها وتشبث بمتونها. ثم شرعت

بمدّ ذراعيها إلى أقصاهما وكأنها ستحلّق، قفزت آخر درجتين وسارت وراحت تسرع الخطى إلى أن أصبحت تركض واختفت عن ناظري!!!

كانت تلك آخر مرّة شاهدت فيها منيرة، أنا أو غيري. بعد بحث مضنٍ عنها،عدت ووجدت أنها تركت لي رزمة الأوراق هذه فوق طاولة الطعام ومنحتني حرية التصرف فيها كما أشاء فآثرت نشرها.

ثم وصلتني هذه الرسالة بعد مدة ليست قصيرة على صندوق بريدي بلا عنوان مُرسل. وبعد ليالٍ طويلة من الأرق استطعت النوم، لقد تمكنت من ترجمة الرسالة بمساعدة صديق.

حرفتي الغياب ومهنتي الفراق

اغفري لي رحيلي المفاجئ عزيزتي سارا وباركيني وإن عصيت.

كل مبررات الغياب باطلة ولكن سأحاول، فالغياب أيضا حضور في مكان آخر.

رحلت إلى أبعد من الأبد، حتى العدمِ، لأبدأ من جديد، أبحث عن حياة قد تمارسني، تطهو لي الرضا، مازلت أتوقف كثيرا، أدفن الأحزان في الشوارع وأكمل الطريق لأن الرجوع صعبٌ جدّا. كيف لم تخبريني من قبل أن الانتهاء شعور مريح؟

تصدقين، لقد أصبحت أتساءل هل أنا فعلا أتعلّم ما أعلم؟ أسوأ ما في إخفاء حقيقة أنفسنا، أننا نلحق الضرر باحترامنا الذاتي. حاولت تلوين حياتي الشاحبة بالأمل فأصابني الملل، أسترخي الآن في بقعة خارج خط الزمن، في برهة لا ترهقني فيها توالي اللحظات والساعات. أتلحّف بأيامي المكسورة. ألتقط أنفاسي معلقة نظري على الأفق، قد ألمح حلما تائها يخفض جناحه لي وينتشلني،كل تجربة تقرّبني من سفح الجبل، وكلما اعتدت، أسقط فأقف مرة أخرى لأعود خطوة إلى الوراء، وألتقط ما سقط مني. لقد وجدت خزانة الكلمات السحرية ونهبت منها ما هو فوق حملي.

لم أعد أملك ما هو ذو أهمية ليقال، سأصمت إذن وأسير بتروٍّ وروِيّة، علّي أروي لاحقا.

أريد فقط أن أعلم كم من الوقت يجب أن يفوت حتى يحين الأوان!



.. لحظة قبل الذهاب

من أنا ومن أنت؟

* لا تنسَ، قم بترتيب فراشك عند استيقاظك، احترم محيطك الأول.

The end

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾

الحاقة، الآية 25.





بين الكينونة والعدم مسافةٌ تُقطع في اتّجاهين وليس كلّ شخص بقادرٍ على قطعها في الاتجاه الصحيح، فما بالك وضبابيّة الرؤية واقعه اليومي. حياة رتيبةٌ كئيبةٌ تحياها الشابة منيرة، وإذ لا تجد لها من طعم أو لونٍ أو رائحة تهرب منها إلى دَعَةِ المُهدّئات أوّلاً، وإلى ألق المُخدّرات لاحقًا، لتسكن فُقاعةً من الوهم سرعان ما ستنفجر مُفجّرة معها ينبوع دماء سالت من وريد البنت بغزارة. أحقًّا حاولت منيرة الانتحار؟ هي نفسها لا تعلم، ولكي تجيب بالنفي أو بالتأكيد كان لا بدّ لها من خوض رحلة باتجاه الذات نقلتها مكانيًّا من بلدٍ إلى آخر، وطوّحت بها زمانيًّا فإذا هي الماضي المُعتم والحاضر الشاقّ والمُستقبل المجهول في آنٍ، وكما في كلّ الرحلات طوت المُرتحلة الراوية بطيّها للمسافة وجوهًا ومشاهدَ وأحداثًا تجمّعت في حقيبة الذاكرة وحين نُثرت كانت هذه الرواية.

رمزي بن رحومة

